موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء السابع

مركز الشرق الأوسط الثقافي

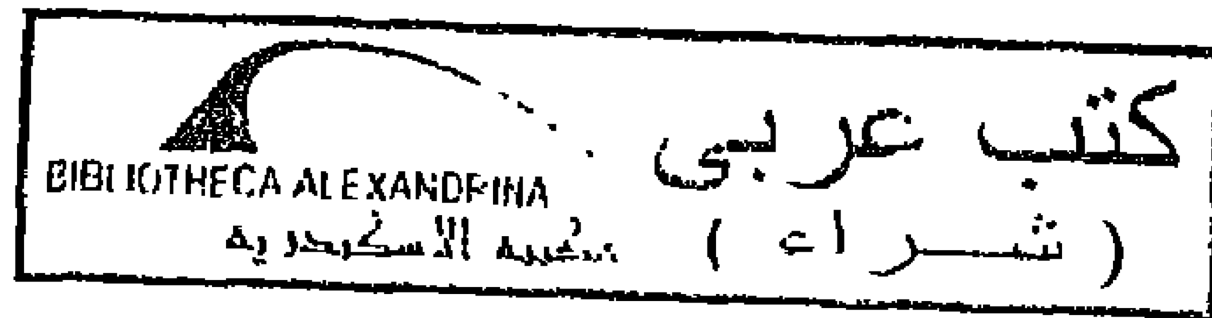
موسوعة
المرأة والجاسوسية

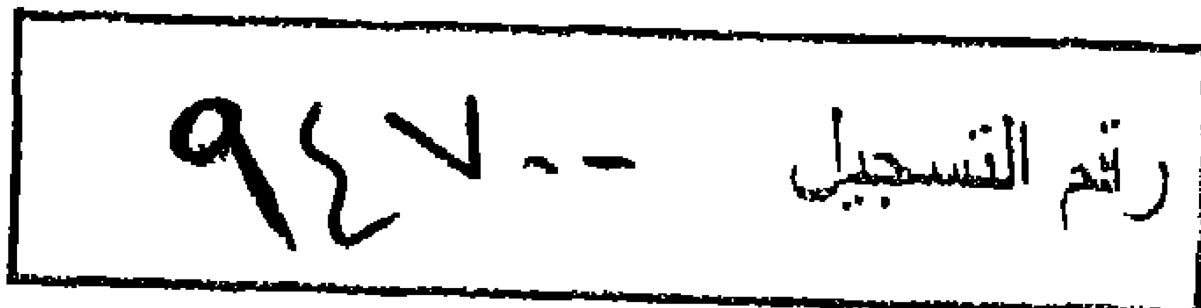
موسوعة
المرأة والجاسوسية



الدكتور صالح زهر الدين

الجزء السابع





مركز الشرق الأوسط الثقافي

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل. سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها. دون إذن خطي من الناشر.

Middle East Cultural Center مركز الشرق الأوسط الثقافي

For Printing, Publishing, Translating & Distributing للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

General Management: **الإدارة العامة:**

بيروت - الحدث، هاتف: ٨٨٨ - ٤٦١٧٧٧ - ٥ - ٩٦١ - فاكس: ٤٦١٩٩٩ - ٥ - ٩٦١ - خليوي: ٦٤٠٤٩٠ - ٣ - ٩٦١

مصر - الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ - خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١

سوريا - دمشق، هاتف: ٠٣٠ - ٠٢٠ - ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ - خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490

Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561

Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764

Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

حرف الميم

1 ـ ماتا هاري.

2 ـ ماتيلد كاري.

3 ـ مارت ريشار.

4 ـ مارتا الألمانية.

5 ـ مارتا بريك.

6 ـ مارتا هيلتش.

7 ـ مارسيا وليامز.

8 ـ مارسيل نينيو.

9 ـ مارغريت أندريان.

10 ـ مارغريت بولي.

11 ـ مارغريت فرانسييز.

12 ـ ماريا تمبلون.

13 ـ ماري كلود ماجال.

14 ـ ماري مادلين فوركاد.

15 ـ ماريا غراتسيا دونيني.

16 ـ ماريا فون كريتشمان.

17 ـ ماريا لبك.

18 ـ ماريا لورنز.

19 ـ ماريا هولشتاين.

20 ـ ماغي بشنس.

21 ـ مانيا جوزيفونا.

22 ـ ميريام رشيدة.

23 ـ ميشيلان كاريه.

24 ـ ميلاني كينان.

ماتا هاري(*) (مارغريتا جيرترودا زيل)
(Mata Hary) (Margareta J. Zill)
(1917 ـ 1876)

هي من أشهر جاسوسات الحرب العالمية الأولى وأكثرهن ذكاء ودهاء. وبالرغم من المؤلفات العديدة التي كُرّست لـ «ماتا هاري»، فليس من السهل أبداً أن نعيد كتابة مراحل حياة هذه المرأة التي اشتهرت من خلال قضية التجسس الأكثر إثارة في الحرب العالمية الأولى. لقد بنت هذه الراقصة، المغرمة بالكذب، (كما يقال) بنفسها أسطورتها التي سارع بعض الكتّاب إلى إغنائها، وذلك بسبب النهاية المفجعة التي آلت إليها وعبق الحب والمغامرة الذي علق باسمها. ومما لا شك فيه أن دورها كجاسوسة كان مبالغ فيه جداً ـ كما يشاع ـ، ولكن ما مقدار الحقيقة فيه؟ وما الشيء الذي اقترفته «ماتا هاري» حقاً وكان مبرراً لقيام الفرنسيين بإعدامها في العام 1917؟

كان أبوها أميراً من «جاوا» يدعى «آسيفا باتام»، وأمها راقصة هندية

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ص128 ـ 135.
وجينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق. ص232 ـ 237.
وأحمد هاني «الجاسوسية..» ص47. ودايفيد كان «حرب الاستخبارات» ترجمة عبد اللطيف أفيوني. بيروت 1982. ص41.

شهيرة في معبد «كاندا سواني». وقد وُلدت «ماتا هاري» (عين النهار) في جنوب الهند، في مدينة «جافنا باتام» المقدسة، في كنف عائلة من الطائفة البراهمانية المقدسة. تلكم واحدة من الأساطير التي نسجها خيال الراقصة الخصب، هذه الراقصة التي بذلت جهدها في تمويه الحقيقة عن طريق اختلاق الحكايات حول ماضيها، إذ كانت تسوق ما لا يقل عن أربع أكاذيب في كلّ أربعة أسطر تكتبها عن حياتها.

وفي واقع الأمر أن اسمها الحقيقي كان «مارغريتا جيرترودا زيل». وقد وُلدت في السابع من آب (أغسطس) من العام 1876 في مدينة «ليواردين» في هولندا. أما والدها فلم يكن سوى آدم زيل، صانع القبعات الهولندي الغني الملقب بـ «البارون» والذي فقد ثروته فجأة وأعلن إفلاسه. وعندئذٍ أُرسلت «مارغريتا» إلى منزل أحد أعمامها في «لاهاي» التي كانت في نهاية القرن الماضي مركز استجمام لكثير من الضباط المجازين من الجيش الاستعماري لجزر الهند الشرقية الهولندية. وفي مدينة لاهاي، واستجابة لإعلان من أجل الزواج، اقترنت مارغريتا، في 11 تموز (يوليو) من العام 1895، بالنقيب «رودولف ماك لود»، وكان أرستقراطياً ذا أصل اسكتلندي يكبرها بعشرين سنة. وبعد ولادة ابنهما، استقلّ الزوجان السفينة «الأميرة أماليا» وسافرا إلى جزر الهند الهولندية حيث ولدت المرأة الشابة، بعد مضي عام، الطفلة «جان لويز» التي لُقّبت بـ «نون». إلاّ أن الخلافات الزوجية، التي كانت ظهرت في هولندا، تفاقمت حين توفي ابنهما نورمان، الذي كان عمره آنئذٍ سنتين ونصف السنة، بحادث تسمّم. وأخيراً، وبعد أن سئمت من المناخ المداري ومن فظاظة زوجها القاسي والمدمن على الكحول، طلبت «مارغريتا» الانفصال عنه وعادت إلى أوروبا. وقد حصلت على الطلاق بعد

مضي أربع سنوات وسُمح لها برعاية ابنتها، لكن ذلك لم يمنع «ماك لود» من أن ينتزعها من والدتها، ويرفض إعادتها لها.

بعد أن بحثت بلا جدوى عن عمل في أمستردام ولاهاي، توجهت إلى باريس في مطلع العام 1904. ومن البديهي أنها لم تكن عليمة قطّ بالرقص المقدس في المعابد البوذية، كما كانت تدّعي. ومع ذلك فقد بدأت حياتها العملية بأداء الرقصات الشرقية في الصالونات الباريسية في العام 1905 من العهد الجميل. وقد حالفها النجاح على الفور ولسبب معين، إذ تقول بعد بضع سنوات: «لم أكن قادرة أبداً على الرقص على نحوٍ صحيح، وكان الناس يأتون لرؤيتي لأنني كنت الوحيدة التي تجرَّأت على الظهور عارية أمام الجمهور». ومنذ ذلك الحين، اختفت عن الأنظار «مارغريتا زيل» ابنة صانع القبعات، وكذلك السيدة «ماك لود» زوجة النقيب المطلّقة لتحلّ محلهما «ماتا هاري»، هذا الاسم ذو الإيقاع الغامض، وبئس الأمر إن لم يكن هذا الاسم ـ الذي كان يُفترض أن يدل على راقصة هندية الأصل ـ مشتقاً من اللغة الهندوسية ولكن من الماليزية، ذلك أن الجمهور لم يكن يعير اهتماماً إلى هذا النوع من التفاصيل.

ومهما يكن من أمر، فقد غدت المجهولة القادمة من «ليواردين» الشغل الشاغل لباريس كافة. فكان باستطاعة المرء أن يقرأ مثلاً في مجلة «الحياة الباريسية» الأسبوعية الهزلية ما يلي: «من الواضح أنه لم يكن لدى الآنسة دوكان من شيء عارٍ سوى رجليها وذراعيها، في حين تظهر ماتا هاري عارية تماماً وثيابها الوحيدة عقدُها الذي يغطي جيدها وزنّار من الأحجار البراقة يحيط بخصرها وغلالة حريرية تلتف حول ساقيها». وقد قام مدير أعمالها «غابرييل أستروك» بتنظيم

استعراضات لها تقطع الأنفاس. وما أن فرغت «ماتا هاري» من سحر الفرنسيين في الصالونات الأكثر غنى وارتياداً من قبل الناس، حتى انطلقت لغزو أوروبا، فسافرت إلى مدريد ومونتي كارلو وميلانو حيث قامت باستعراضات راقصة في مسرح «سكالا» في العام 1911، ثم اتجهت إلى برلين حيث لم تبخل في عرض مفاتنها أمام أعين المعجبين بها، وأصبحت عشيقة الملازم ألفريد كيبرت. وقد أسكنها هذا الأخير، بالرغم من كونه متزوجاً، في شقة تقع في أغنى أحياء المدينة ـ وكان هذا فيما بعد أحد الأدلة على نشاطها التجسسي ـ وطلب منها مرافقته في مناورات الجيش في كيليكيا. وكانت «ماتا هاري» في برلين حين اندلعت الحرب في العام 1914. فهربت من ألمانيا التي ساد الذعر فيها والتجأت إلى أمستردام حيث هاج بها الحنين لرؤية ابنتها التي أصبح عمرها آنئذٍ ستة عشر عاماً. وقد وافق زوجها السابق، وبعد مراسلات لا نهاية لها، على أن تلتقي ابنتها في «روتردام»، إلاّ أنه أعلن أخيراً عن عدم قدرته على دفع تكاليف الرحلة إلى المدينة، ممّا حال دون رؤية «ماتا هاري» لابنتها، ولم تلتقِ بها أبداً.

وبعد أن أمضت الراقصة سنين طويلة بعيدةً عن فرنسا، وسئمت من البقاء في هولندا، قررت العودة إلى باريس. وعلى حسب ما جاء في وثائق الجيش البرّي الألماني، أنه تم تجنيد «ماتا هاري» في حزيران (يونيو) من العام 1915، وليس قبل الحرب، من قبل الاستخبارات الألمانية في هولندا، بوساطة «كارل كرامر» قنصل ألمانيا. وإذ أصبحت العميل «هـ 21»، حصلت على تأشيرة إقامة في فرنسا ـ حيث كان كرامر يأمل برؤيتها وهي تستخدم سحرها للحصول على المعلومات ـ كما حصلت على تأشيرة مرور عبر إنكلترا (إذ كان

من المستحيل التوجه من هولندا إلى باريس عبر خطوط جبهة بلجيكا وشمال فرنسا) حيث أجرت شرطة سكوتلنديارد معها تحقيقاً روتينياً بسيطاً. وبعد بضعة أيام على وصول الراقصة إلى باريس، نشرت الشرطة البريطانية تعميماً واضحاً جاء فيه: «ظهر أن ماتا هاري شخصية مشبوهة جداً وينبغي عدم إعطائها إذناً بالعودة إلى المملكة المتحدة». وقد أرسلت هذه المعلومة، التي تجعلنا نفترض بأن الإنكليز، وقبل الفرنسيين بوقت كبير، قد اشتبهوا بها، إلى السلطات في باريس حيث لم تؤخذ على محمل الجد، إذ أن «ماتا هاري» لم تكن موضع مراقبة خاصة في خلال إقامتها في العاصمة الفرنسية في العام 1915. بيد أنه كان من بين عشاق هذه الراقصة التي لم تفقد شيئاً من محاسنها، بالرغم من أنها كانت قاربت الأربعين من عمرها، عدد كبير من الألمان، معظمهم من الضباط، إذ كانت البزة العسكرية تسحرها دوماً. وقد قالت ذات يوم: «أفضل أن أكون عشيقة ضابط فقير من أن أكون عشيقة صاحب مصرف غني». وبعد عودتها إلى هولندا في مطلع شباط (فبراير) من العام 1916، طلبت «ماتا هاري» من جديد الحصول على تأشيرة للعودة إلى فرنسا (بناءً على أوامر من الاستخبارات الألمانية دون شك). ولكن في هذه المرة، لم تُمنح «ماتا هاري» تأشيرة المرور عبر بريطانيا وأصبحت منذئذٍ «مكشوفة».

غير أن ذلك لم يدفعها إلى التخلّي عن مشاريعها، فاكتفت بتغيير خط الرحلة والمرور عبر إسبانيا. وفي هذا الوقت تم تجنيدها من قبل الرائد «لادو»، وبدأت مرحلة من حياتها تضاربت الروايات بشأنها. ولكن ماذا كانت الحقيقة حول كلّ ذلك؟ بالرغم من رواية شائعة، لم تكن «ماتا هاري» السبّاقة إلى عرض خدماتها على فرنسا، لكنّ «لادو»، الذي اشتبه بأن تكون جاسوسة ألمانية، على أثر التحذيرات

المتكررة من الإنكليز، استدعاها إلى مكتبه. ويبدو أن الراقصة ترددت لفترة طويلة قبل أن تقبل بعرض للعمل لصالح مكتب مكافحة الجاسوسية الفرنسي مقابل الحصول على إذن بالذهاب إلى بلدة «فيتيل» من أجل العلاج، لا من أجل مقابلة النقيب الروسي «فاديم ماسلوف» الذي كانت مغرمة به. ولم يلتقِ بها «ماسلوف» في فندق «فيتيل» الكبير، إلاّ فيما بعد، وبقي معها طوال أربعة أيام، المدة التي سمحت له بها إجازته.

بعد عودتها إلى باريس، استأنفت «ماتا هاري» اتصالاتها بالرائد «لادو» الذي يُقال إنه كلّفها بمهمة معينة، بالرغم من أن القاضي «بوشاردون» الذي عُهد إليه فيما بعد بالنظر في ملفها، أصرّ على إثبات العكس. ومهما يكن من أمر، فقد قررت الجاسوسة السفر إلى بلجيكا المحتلة مروراً بإسبانيا حيث استقلّت السفينة إلى هناك. ولكن ماذا كانت التعليمات التي زوّدها بها «لادو»؟ لا أحد يعرف ذلك. إلاّ أن الأمر الثابت هو توجهها بعد بضعة أسابيع إلى مدريد، ومن ثم ركوبها السفينة «هولانديا» المتجهة إلى «روتردام». وقد أخذت الأمور تسوء حين توقفت السفينة في مرفأ «فالاموث» البريطاني: إذ قامت الاستخبارات السرية البريطانية، التي كانت على قناعة بأن الراقصة تقوم بمهمة لصالح ألمانيا، باستجوابها واعتقالها. بيد أن البريطانيين، وبالرغم من شكوكهم، كانوا يفتقرون إلى الأدلة الملموسة التي تمكنهم من إبقائها في السجن، فأطلقوا سراحها وأعادوها إلى إسبانيا. (وكان لادو، في هذه الأثناء، قد أدان ماتا هاري بيد أنه ادَّعى العكس في مذكراته).

من المؤكّد أن هذه الإقامة في إسبانيا تظل أحد الفصول الأكثر

غموضاً ومثاراً للجدل في حياة «ماتا هاري». يُقال إنها أغوت، منذ وصولها، الملحق العسكري في السفارة الألمانية الرائد «كال»، وكذلك نظيره الفرنسي العقيد «دانفين». إذ أنها زودت هذا الأخير آنئذٍ بمعلومات تتعلق بنزول القوات الألمانية في المغرب كانت استقتها من الرائد «كال»، لكنها ضللت الفرنسيين أيضاً. فقد أرسل الرائد الألماني، الذي لم يكن يجهل البتّة اللعبة المزدوجة التي كانت تؤدِّيها الجاسوسة، سلسلة من البرقيات إلى برلين أوضح فيها بأن الجاسوسة الألمانية ماتا هاري قد تمّ تجنيدها من قبل الاستخبارات الفرنسية. وقد استُخدمت هذه البرقيات كإثباتات على جرمها. ففي الثالث عشر من شباط (فبراير) من العام 1917 اعتقلت «ماتا هاري» سراً (إذ أن الصحف لم تتحدث عن ذلك إلاّ في نهاية شهر حزيران (يونيو) 1917) في فندقها الباريسي في الشانزيليزيه. وبعد أن اقتيدت إلى سجن «سان لازار»، جرى استجوابها طوال أشهر من قبل قاضي التحقيق العسكري النقيب بوشاردون. فأنكرت انتماءها للاستخبارات الألمانية وحاولت بشكل يائس أن تثبت بأن المال الذي يصلها يأتيها من عشاقها العديدين. لكن القاضي بوشاردون كان يواجهها دوماً وبلا هوادة باسمها الحركي «هـ21»، فاستنتج في آخر التحقيق بأن الجاسوسة كانت تتلقى أموالاً من العدو لقاء خدماتها له.

في 24 تموز (يوليو) من العام 1917، بدأت في قصر العدل بباريس محاكمة الراقصة الجاسوسة في جلسة مغلقة. وكانت المحاكمة غير ضرورية لأن ماتا هاري كان محكوماً عليها مسبقاً بنتيجة الملف الذي كان أعدّه بوشاردون. وقد صوّر الكاتب «بول آلارد» بإيجاز شعور الفرنسيين العام حيال هذه المحاكمة، فكتب يقول: «لم يكن أحد يعرف ماذا فعلت ماتا هاري. اطرحوا السؤال بوضوح على أي

مواطن فرنسي عادي أو مطَّلع فيجيب بأنه لا يعرف شيئاً. إنه مقتنع بأنها مذنبة، ولكنه لا يعرف السبب».

كان الخوف من الجاسوسية، في فرنسا، قد بلغ أوجه في ذلك الحين، بيد أنه كان من المغري جداً لهيئة الأركان أن تلقي بمسؤولية الخسائر الفادحة التي كان يتكبّدها الجيش على أي شخص أجنبي، إن كان ذلك ممكناً. وكانت ترى أن من الأفضل لها أن يقوم رجل الشارع بإنزال لعناته على خونة حقيقيين أو افتراضيين بدلاً من التساؤل حول ضعف هيئة الأركان. وهكذا وقفت «ماتا هاري»، في قاعة المحكمة، بثوبها الأزرق وقبعتها الصغيرة، وعرّفت على هويّتها بهدوء.

كانت تواجه تهمة المجيء إلى فرنسا من أجل التجسس وإفشاء أسرار إلى عملاء ألمان في إسبانيا وهولندا منذ العام 1915. ولم يقدِّم الشهود العديدون الذين ذكرهم الدفاع أي عون لها، إذ أن معظمهم لم يحضر إلى المحكمة لدى استدعائهم. ولم يكن حضورهم ليفيدها في أي شيء في كل الأحوال. إذ أعلن رئيس المجلس الحربي، بعد مشاورات قصيرة وبالرغم من جهود محامي الدفاع إدوار كلوني: «تقرر بالإجماع أن المتهمة مذنبة وسينفذ فيها الحكم بالموت».

ومن الغرابة بمكان أن محاكمة «جاسوسة القرن» قد دامت يوماً ونصف اليوم، وقد رفض رئيس الجمهورية طلبها بالعفو عنها بعد مرور شهرين.

في صباح 15 تشرين الأول (أكتوبر) 1917، كانت «ماتا هاري» التي تلقّت في عشية ذلك اليوم جرعة مهدئة قوية، تنام بعمق حين جاؤوا ليخرجوها من زنزانتها. وإذ أعلموها أنه ينبغي لها الاستعداد

للموت، صرخت قائلة: «هذا غير ممكن!» وقد حاول المحامي «كلوني» أن ينقذها حين سألها ما إذا كانت تنتظر مولوداً. إذ كان القانون ينص، في الواقع، على تأجيل تنفيذ الحكم في حال كون المحكومة حامل. وقد أثار هذا السؤال الغريب دهشة «ماتا هاري» الموجودة في السجن منذ ثمانية أشهر ولم تمسك بالعصا التي مدّها إليها محاميها من أجل إنقاذها. وعندئذٍ طلبت أن تتكلم مع القس «أربو»، ثم كتبت ثلاث رسائل قصيرة (واحدة منها لابنتها التي لم ترها منذ أكثر من عشر سنوات)، وبعدها جلست في السيارة التي أقلّتها إلى حقل الرمي التابع لقصر فانسين. وهناك وقفت بثوبها الرمادي وقبعتها المصنوعة من القش أمام سرية الإعدام، لكنّها رفضت أن تُعصب لها عيناها أو أن يُشَدّ وثاقها إلى العمود. ثم نظرت نظرة أخيرة إلى الجمهور الغفير الذي جاء لرؤية هذا المشهد الرهيب قبل أن تتهاوى تحت طلقات الرصاص. وكآخر مشهد لها، لم تخيّب «ماتا هاري» أمل جمهورها، فقد تمّ نقل جسدها، الذي طالما أثار الرغبة وجلب لها النجاح وكان السبب في ضياعها، إلى كلية الطب ليجري تشريحه قبل أن يُدفن في مقبرة «فانسين» الجديدة. وقد حاول زوجها النذل «ماك لود» دون جدوى استرجاع ممتلكاتها، لكن هذه الممتلكات بيعت بالمزاد العلني لتغطية نفقات المحاكمة وأشياء أخرى. أما ابنتها «نون» التي يبدو أنها لم تتسلم رسالة وداع أمها، فقد توفّيت بعد وقت قريب، في العاشر من آب (أغسطس) من العام 1919، على أثر إصابتها بنزيف في الدماغ.

ومنذ ذلك الحين وقضية «ماتا هاري» لا تفتأ تثير اهتمام الكتّاب والمؤرّخين. ماذا كانت الإثباتات التي استند إليها القضاة في إصدار حكمهم، باستثناء البرقيات التي تم اعتراضها في إسبانيا وولع المرأة

الشابة بالبزّة العسكرية؟ وهل كانت ماتا هاري جاسوسة؟ نعم من الناحية التقنية: فقد تلقَّت أموالاً (بضع عشرات الآلاف من الفرنكات) لإنجاز مهام في فرنسا، إلاّ أن غباءها كان أكبر من ضررها بالتأكيد. وقد تحدث «ليون شيرمان»، المتخصص في دراسة التزويرات الشرطية والقضائية في ألمانيا، في كتابه الموثق جداً «قضية ماتا هاري»، عن «مؤامرة عسكرية قضائية» وعن «تحقيق مزوّر» وطالب بإعادة النظر في قضية الراقصة.

ماتيلد كاري(*)

(Matild Kari)

(-   )

هي جاسوسة فرنسية أولاً ثم عملت للمخابرات الألمانية بعد اعتقالها وحكم عليها بالسجن المؤبد في فرنسا ثم أخلي سبيلها.

هذا، وحين سألها الصحفي «غوردون يونغ» في العام 1955 عن السبب الذي دعاها إلى الوشاية بأعضاء شبكتها كافة، أجابت «ماتيلد كاري» بهدوء: «ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ لقد خُيِّرت بين البقاء طليقة حرّة والإعدام رمياً بالرصاص. ماذا كان يسعُك أن تفعل أنت؟» لقد ضللت شخصية «ماتيلد كاري» الغامضة أكثر من اختصاصي في علم النفس، ولهذا السبب بالتأكيد لم يجرِ تنفيذ حكم الإعدام. ولكن بالرغم من كلّ الغموض الذي أحاط بالجاسوسة، يبقى أمر واحد مؤكّد: وهو أن خياناتها العديدة، ذات النتائج المفجعة للمقاومة والقوات الحليفة، جاءت كلها دون وازع من ضمير.

أحسَّت «ماتيلد كاري» بما يشبه الارتياح حين نشبت الحرب في

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص238 ـ 242.

العام 1939. فقد انتهزت الفتاة الجوارسية، التي كانت مقيمة بالقرب من وهران، هذه الفرصة للهروب من حياتها الرتيبة التي كانت تعيشها بالقرب من زوجها المدرّس المتواضع الذي كانت اقترنت به قبل ست سنوات، والانطلاق نحو المغامرة. ولم تلبث أن عادت إلى فرنسا حيث تطوّعت كممرضة في «الصليب الأحمر». وبعد أن اتبعت دورة في مستشفى باريسي، جرى نقلها على وجه السرعة إلى الجبهة الشرقية حيث كرّست جهودها، كما يقول شهود عيان، لرعاية الجرحى بإخلاص تام ونشاط لا ينضب. وفي العام 1940، وجدت نفسها تهرب مع جموع اللاجئين باتجاه الجنوب لينتهي بها المطاف في مدينة «تولوز». وفي هذه المدينة، التقت ماتيلد الرجل الذي قلب حياتها رأساً على عقب.

سرعان ما انبهر الضابط اللامع في الجيش البولوني «رومان زارنياسكي» بالمرأة الشابة، لا بسبب جمالها، لأنها لم تكن حقاً كذلك، بل لذكائها ونعومتها التي كانت سبباً في تسميتها بـ «القطة». وقد عرض عليها البولوني أن تساعده في إقامة شبكة للتجسس لصالح الحلفاء في فرنسا. ولم يكن هناك من مشروع آخر يمكن أن يثير أكثر إعجاب «ماتيلد كاري» التي سارعت إلى ارتداء معطف الفراء والقبعة الحمراء وشرعت تجول في أنحاء فرنسا لتجنيد العملاء وإقامة الاتصالات. وفي غضون بضعة أشهر، أصبحت «المجموعة الحليفة» إحدى أكبر وأنشط شبكات الاستخبارات في المقاومة الفرنسية. وفي مطلع العام 1941، وبفضل أجهزة الإرسال الموضوعة في عدة شقق باريسية، أخذت هذه المجموعة تبثّ للبريطانيين تفاصيل دقيقة حول تحركات القوات الألمانية أو تنقلات السفن الحربية على طول الشواطىء. وكان كلُّ نداء لاسلكي يبدأ دوماً بالعبارة التالية: «الرقم

55 إي، وزارة الحربية، لندن، القطة تتحدث إليكم...». وبذلك وُلدت أسطورة جديدة.

وفي هذا الوقت اقترف «زارنياسكي» خطيئة كانت لها ذيول خطيرة. فبالرغم من علاقته الغرامية بـ «ماتيلد كاري»، اقترح الضابط البولوني على عشيقته السابقة «رونيه بورني» الانضمام إلى مجموعته ومشاركته حياته. إلاّ أن القطة لم توافق البتة على هذا القرار وأعربت لـ «أرمان» عن قلقها فيما يتعلّق بصدق رفيقته التي سرعان ما أصبحت عميلة اتصالات رئيسية في المجموعة. غير أن البولوني لم يصغ لنصائحها لاقتناعه بأن «ماتيلد كاري» كانت تتصرف بدافع من الغيرة. وفي الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1941، تمّ اعتقال «أرمان» و «رونيه بورني»، في دارة «لياندر» حيث كانا يقيمان، من قبل شرطة الأمن الألمانية. ثم جرى اعتقال «ماتيلد كاري» بعد بضع ساعات من ذلك. وفي لحظة ركوبها عربة الشرطة، شاهدت ماتيلد «رونيه بورني» وهي تتحدث مع شرطي ألماني وسمعتها وهي تقول له: «نعم، إنها هي، القطة».

بعد جلسة تحقيق أولي في فندق «إدوارد السابع»، مقر هيئة أركان استخبارات الجيش الألماني في باريس، أودعت الجاسوسة في سجن «لاسانتيه» حيث فقدت شجاعتها الأسطورية. ومن المرجّح أن فكرة التعاون من أجل الإفلات من المصير الذي ينتظرها راودتها منذ الليلة الأولى التي قضتها في زانزانتها. ففي اليوم التالي، وافقت دون أي تردّد أو وازع من ضمير على عرض الرقيب «هوغو بليشر» الذي قال لها: «اعملي معي بإخلاص وسيُطلق سراحك، وإلاّ فسوف أعدمك». ومنذ ذلك الحين، أخذت الأمور تتسارع. فاقتيدت «القطة» إلى «ميزون لافيت»، إلى دارة الممثل «هاري بور» بطلب من

استخبارات الجيش الألماني. وكرّر «بليشر» على مسامعها بأنها حرة قطعاً، لكن من الآمن لها أن تسكن مع سجّانيها السابقين. أما البقية، فقد روتها بنفسها في مذكراتها: «أتذكَّر فقط أن بليشر قادني إلى «غرفتي»، لكنه شرع هو نفسه يقيم فيها ويخلع ثيابه. وهكذا أصبحت عشيقة بليشر». ثم أضافت قائلة: «كنت أشعر بالدوار والغثيان». هل كانت تعبّر عن ندمها بأقوالها هذه؟ إن من الصعب تصديقها حتى إنه لم يكن لديها الوقت للشعور بالندم. ففي صباح اليوم التالي، رافقت «القطة» الرقيب الألماني إلى منزل «روكيني» وكان عضواً مهمّاً في الشبكة الحليفة. «لا تقلق، إنه واحد من رفاقنا» قالت له ذلك وهي تشير إلى «بليشر». وبعد مضي ثلاث دقائق، سُمعت طرقات على باب المنزل، ودخل الألمان وهم يشهرون مسدساتهم. وقد تكرر المشهد هذا عدة مرات خلال ذلك اليوم نفسه.

بعد أربعة عشر شهراً من الشجاعة والإخلاص، لم يستلزم «ماتيلد كاري» سوى ثماني ساعات للانتقال إلى الخيانة وتسليم خمسة وثلاثين عضواً من أهمّ أعضاء شبكتها إلى الرقيب بليشر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن «ماتيلد» حضرت شخصياً معظم عمليات الاعتقال. وإذ لم يجد هؤلاء الضحايا الوقت لتحذير رفاقهم، فقد واصلت «القطة» نشاطها داخل المجموعة التي عكفت بعد ذلك على إعادة تنظيمها دون أن يشك أحد بها. كانت تعود في المساء إلى شخصية «فيكتوار» بعد أن ترجع سراً إلى دارة «هاري بور» لتكشف الخطط والمشاريع التي كانت وضعتها في خلال النهار. وقد أسرّت في أحد تقاريرها للرقيب «بليشر»، بعد اعتقال عملاء الارتباط كافة، أن الهمّ الأول للمقاومة هو إعادة الاتصال مع لندن. وعندئذٍ أقنعها الألماني بالاتصال مع الرجل المثالي لهذه المهمة «بيير دو فوميكور»، عميل

جهاز العمليات الخاصة الملقب بـ «لوكاس». وفي أول لقاء لها معه في حانة «جورج الخامس»، شرحت «ماتيلد كاري» للوكاس بأنها تملك الوسيلة التي تساعده على الذهاب إلى إنكلترا شريطة أن ترافقه. وقد وافق أعضاء الشبكة الآخرون على هذا القرار، إذ من هو أفضل من بطلتهم ليمثلهم في لندن؟ وهكذا حرص «بليشر» على أن تتمكن عميلته و «لوكاس» من الخروج من فرنسا والوصول إلى بريطانيا.

ولكن سرعان ما أخذت الشكوك الأولى تراود «لوكاس» الذي كانت له، كما كتبت «القطة» تقول، «مزايا الجاسوس الجيّد». وحين أخذ «لوكاس» يحاصرها بالأسئلة، فقدت «ماتيلد كاري» أعصابها وبدأت تعترف، لكنها حرصت على عدم توضيح الدور الذي قامت به في اعتقال رفاقه، وصوّرت نفسها بمظهر المرأة التي أرهبتها تهديدات «بليشر». كانت كلّ ما تريده، كما اعترفت، هو إيجاد الفرصة لإنقاذ نفسها. ولذا اقترح عليها «لوكاس» أن ترافقه إلى لندن، لا كعميلة لاستخبارات الجيش الألماني، ولكن من أجل خيانة الألمان. غير أن البريطانيين، وبالرغم من علمهم مسبقاً بنشاطات «القطة» لم يعمدوا إلى اعتقالها مباشرة، بل وضعوا أجهزة «ميكرو» في شقتها بلندن، بأمل أن تتصل عاجلاً أم آجلاً بعملاء «بليشر». لكنّ جهودهم ذهبت أدراج الرياح، إذ أن الجاسوسة لم ترسل أية معلومة إلى باريس، بل وافقت على التعاون مع الإنكليز بتسليمهم شيفرة الرسائل الألمانية. وبالرغم من ذلك، بقيت «القطة» تشكل تهديداً للبريطانيين والحلفاء. فما العمل معها؟ في مطلع ربيع العام 1942، عُقد مؤتمر في وزارة الدفاع البريطانية من أجل تقرير مصيرها. ووافق المؤتمرون على تحييدها بأي ثمن. وإذ أودعت «ماتيلد كاري» في سجن «هولواي»، أخذت تمضي سنوات الحرب الأخيرة في كتابة مذكراتها، قبل أن يتم

تسليمها إلى القضاء الفرنسي ليصار إلى محاكمتها في كانون الثاني (يناير) من العام 1949. لم يكن في يد محامي الدفاع سوى شاهد واحد. هو النقيب (الذي أصبح جنرالاً في العام 1963) «جيمس آشار»، ضابط الاستخبارات، الذي صرّح أمام المحكمة قائلاً: «كانت تعرف مكان وجودي، لكنها لم تشِ بي». كان هذا الضابط بالفعل، ولأسباب مجهولة، العضو الهام الوحيد من الشبكة «الحليفة» الذي نجا من الخيانة الكبرى التي ارتكبتها «القطة». غير أن هذه الشهادة، التي ضاعت بين آلاف الاتهامات الموجهة لـ «ماتيلد كاري»، لم تكن كافية لإقناع أعضاء المحكمة. وقد طالب مدعي عام الجمهورية بإنزال عقوبة الموت بهذه المرأة «الخائنة والشريرة التي لا قلب لها». وبعد بضعة أشهر من ذلك، وبالرغم من احتجاجات منظمات المقاومة، خُفّف حكم الموت إلى الاعتقال المؤبّد.

في خلال العام 1954، وبعد اثني عشر عاماً قضتها في السجن، أطلق سرح ماتيلد كاري، فغيّرت اسمها والتجأت إلى شقة أهلها الباريسية. ومنذ ذلك الحين لم يرها أحدٌ من معاونيها القدامى. «تكرّموا واطلبوا من العالم أن ينسى «القطة» قالتها ذات يوم للصحفي الوحيد الذي جاء لمقابلتها، «غوردون يونغ». وقد ذهب نداؤها سدىً. ففي العام 1955، جاء «بليشر» إلى باريس ليزور أولئك الذين طاردهم في خلال الحرب. غير أن أهل «ماتيلد كاري» منعوه من رؤيتها ثانية.

مارت ريشار(*)
(Mart Richard)
(-)

هي إحدى جاسوسات فرنسا في الحرب العالمية الأولى.

و «أن تكون المرأة جاسوسة في خلال الحرب، لا يعني البتّة، كما نتصوّر في بعض الأحيان، أن نعيش مغامرة رومانسية يثير فيها الخطر متعتنا، أو أن نقوم بدور المرأة التي لا يُقاوم سحرها. أن تكون المرأة جاسوسة يعني أن تخدم وطنها أولاً»، هذا ما كتبت تقوله «مارت ريشار» (ونسبتها الحقيقية «ريشير») في مقدمة كتابها «حياتي كجاسوسة في خدمة فرنسا». فعلى أثر وفاة زوجها، وكان تاجراً غنياً لقي مصرعه في الجبهة في العام 1916، عرضت هذه الطيارة (والمومس السابقة) الفرنسية خدماتها على النقيب «لادو». فأُرسلت إلى إسبانيا حيث أصبحت عشيقة «هانز فون كرون»، رئيس قسم التجسس البحري الألماني في هذا البلد (وأحد عشاق ماتا هاري)، وزوّدت فرنسا بكثير من المعلومات حول حرب الغواصات. وأصبحت عميلة مزدوجة، إذ اعترفت فيما بعد أنها اضطرت إلى تقديم معلومات

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ص239 - 240.

إلى عشيقها الألماني. وعلى العكس من «ماتا هاري» التي أُعدمت رمياً بالرصاص من أجل التجسس، تمّ تقليد «مارت ريشار» وسام جوقة الشرف في كانون الثاني (يناير) من العام 1933 وأصبحت أسطورة وطنية حقيقية. ولكن هل كان ذلك من أجل الخدمات التي قدمتها لبلادها في خلال الحرب العالمية الأولى؟ على حسب ما قاله «آلان بوجول» في «معجم الجاسوس»، رأت الحكومة الفرنسية التي كانت تستدين الأموال من المرحوم «توماس كرومبتون» (المدير المالي لمؤسسة روكفلر والزوج الثاني لمارت ريشار) الذي موَّل مشروع ترميم قصر «تريانون الصغير»، أن من اللائق تقليد أرملة هذا الثري ذلك الوسام الرفيع. غير أنه من المؤكّد أن «مارت ريشار» (التي ارتبط اسمها بإغلاق المواخير في العام 1946) قد برهنت في مذكراتها على خيال جامح حين عزت إلى نفسها مغامرات غير معقولة.

مارتا(*)
(Marta)
(-   )

هي إحدى عميلات الجستابو حيث تقرّر استخدام الألمان للجنس زمن الحرب، ونجحت في مهمتها مع رجلين كنديين وآخر بريطاني.

هذا، واستخدم الألمان الجنس في الحرب العالمية الثانية داخل معسكرات أسرى الحرب مستغلين الظروف القاسية التي يعيشها الأسرى، والحرمان الجنسي الذي يعانونه للسيطرة عليهم وتحويلهم إلى عملاء.

كان هناك كوخ صغير خارج معسكر أسرى الحرب في «لامدروف» بسيليزيا حيث كان يعيش فيه بين أناس كثيرين رجلان كنديان أحدهما يسمى «أدوين مارتن» والثاني يدعى «جون جالاهر»، وكان هذان الشخصان من أسرى الحرب، كما ضمّ الكوخ إنكليزياً يدعى «جون هوايت» كان قد تم أسره في دنكرك.

وتصادف أن أرسل هوايت خارج المعسكر للعمل في نشر

(*) المرجع: صلاح نصر «الحرب الخفية...». ص175 ـ 177.

الأخشاب في منطقة ريفية، ولم يكن في هذا العمل أي مثار للدهشة، إذ إنه طبقاً لاتفاقيات جنيف يسمح باستخدام أسرى الحرب عدا الضباط في أية أعمال يدوية، بشرط ألا يكون العمل في مصانع الذخيرة أو صناعات الحرب.

وفي أحد الأيام جاءت لهوايت فتاة ألمانية اسمها «مارتا» وهي ابنة عامل في المنطقة، وبدأت تستثيره ثم عرضت عليه نفسها. وبعد مقاومة رضخ هوايت.

ولم تمض ساعات قليلة حتى كان هوايت يقف أمام ضابط المخابرات الألماني، الذي أخبره بأنه طبقاً للقانون الذي أصدره هتلر في بداية الحرب، فمن الممكن إعدامه رمياً بالرصاص للجريمة التي ارتكبها مع فتاة ألمانية، ولكن من الممكن إعفاءه من هذه الجريمة لو وافق على أن يكون عميلاً للألمان وذلك عن طريق القيام بسؤال الأسرى الوافدين عن حقيقة الأحوال في بريطانيا، وكذا معرفة معلومات معينة عن الوحدات التي تقاتل، ثم عليه أن ينقل هذه المعلومات بعد ذلك للألمان.

ولا شك أن هوايت لم يكن تواقاً للموت، ومن ثم فقد وافق على خدمة الألمان، فنقل بعد ذلك إلى منزل في قرية مجاورة حيث عاش مع «ستشابر» ضابط المخابرات الألماني في غرفة واحدة، وعندما أمسى الليل ودلف كل منهما إلى فراشه، جاءت مارتا وأرادت أن ترقد مع هوايت في فراشه، ولكنه كان قد تعلم درساً مما حدث له، ولما رفض رقدت الفتاة مع ستشابر في فراش واحد على مرأى منه، واستمر المصباح مضاءاً طوال الليل.

وفي الصباح التالي جاءت مارتا ومعها فتاة أخرى، ومع أن

هوايت أفلح في إبعاد مارتا عنه، إلا أنه أرغم على البقاء ليشهد ما يدور بين ضابط المخابرات والفتاة الأخرى على مرأى منه.

وأعيد هوايت إلى الكوخ الذي كان يقيم فيه مارتن وجالاهر، وقص هوايت على زميليه كل ما حدث ولاماه لتمنعه حينما سنحت له الفرصة، ثم راحا بتشجيع ضابط المخابرات يسخران من هوايت، وكان الألمان قد درسا الرجلين وأدركا مدى حاجة جالاهر إلى النساء.

ولم يتردد مارتن عندما عرض عليه الأمر أن يوافق بدوره وهكذا تورط الرجال الثلاثة في خيانة وطنهم من أجل العلاقات الجنسية، ولكنهم أدركوا فيما بعد أنه من الضروري أن يخوضوا هذه العلاقات التي تقودهم من سيّء إلى أسوأ.

وبالرغم من أن هوايت قد انزلقت به قدمه أثر ارتكابه للجريمة مرة واحدة، إلا أنه دفع ثمن ذلك عشر سنوات في السجن، ثم أطلق سراحه فيما بعد وأعفي من باقي مدة السجن، أما جالاهر فقد حكمت عليه محكمة كندية بالسجن مدى الحياة، أما مارتن فكان نصيبه السجن لخمسة وعشرين عاماً.

مارتا بريك(*)
(Marta Brick)
(-)

هي إحدى عميلات الـ (كي. جي. بي).

وقد جندت المخابرات السوفياتية السيدة الألمانية (مارتا بريك) أثناء قضائها عطلتها السنوية في موسكو، وتبنّت هذه المخابرات (تمويل) تجديد المؤسسة التي تديرها مارتا في بون/ ألمانيا الغربية وتحويلها إلى (مؤسسة فخمة). وذلك لقاء تغاضيها عن عمليات التنصت والتصوير السرّي الذي قامت به الـ (كي. جي. بي) داخل جدران هذه المؤسسة بعد تجديدها وزرع الكاميرات وآلات التنصُّت والميكروفونات الحسّاسة فيها.

بقيت مؤسسة مارتا للتدليك تقوم بمهامها خير قيام حيث صادف مقرها بجانب مركز قسم الشرطة في مدينة (بادغوسبرغ) تحديداً.

استقطبت مارتا وفاتناتها العديد من الشخصيات الهامة، عسكرية ومدنية، الذين لم يبخلوا عليهنّ بكل ما طلبوه من المعلومات والأسرار الهامة التي كانت تنقل إلى مقر المخابرات السوفياتية رأساً.

(*) المرجع: نزار عمار. الاستخبارات الإسرائيلية. ص187 ـ 188.

اعتقلت مارتا أخيراً من قبل المخابرات الألمانية نتيجة خيانة أحد العملاء المزدوجين، وتم الحكم عليها 15 سنة. وقد صُعقَت المخابرات الأميركية ـ فرع برلين لضخامة المعلومات التي سرّبت والأسرار الدقيقة التي لاقت طريقها إلى الـ (كي.جي.بي).

مارتا هيلتش(*)
(Marta Hilitch)
(-   )

جاسوسة ألمانية من كبار أعوان نيكولاي وفون بابن.

كانت مارتا هيلتش تشتغل في الولايات المتحدة، مذ بلغت الثامنة عشرة، سكرتيرة ضاربة على الآلة الكاتبة عند هيرمان ريدر صاحب جريدة «نيويورك ستيتز زايتونغ» الألمانية ـ الأميركية. وارتفعت مكانتها بسبب تعصبها لجرمانيتها، فعيّنتها دائرة الاستعلامات الألمانية «علبة بريد» أي مستودعاً للرسائل التي كان الجواسيس يتبادلونها والدائرة.

وقد كان أعوان دائرة التجسس الألمانية في إنكلترا يلقون صعوبة عظيمة في نقل أخبارهم. وكانت دوائر البريد في هولندا في العامين 1914 و 1915 خاضعة لرقابة شديدة فاستحال استخدامها في نقل الأخبار.

أمّا البريد إلى الولايات المتحدة فقد كان هو أيضاً مراقباً، ولكن وجد في دائرة المراقبة الإنكليزية المختصة بالبريد الذاهب إلى

(*) المرجع: سعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». ص68.

الولايات المتحدة، جاسوس ألماني يدعى ج - س سيلبر. وتعهد هذا بقسم من الوثائق السرية التي كان الجواسيس الألمان يعدونها، فكان يرسلها إلى مارتا هيلتش فتحوّلها هذه إلى فون بابن.

ولمّا اشتركت الولايات المتحدة بالحرب أصبحت الصبية جاسوسة عاملة، وأظهرت مقدرة مدهشة إذ حصلت على أخبار عظيمة الأهمية، ودبرت طائفة كبيرة من المؤامرات لنسف السفن ومصانع السلاح في أميركا.

عادت مارتا، بعد هزيمة الألمان في العام 1918، إلى ألمانيا. واشتغلت مع فون بابن واهتمت بالقضايا السياسية التي كان سيدها يعالجها وفي مقدمتها المشكلة الروسية. ولئن تكن ألمانيا قد أيدت البلشفية حتى هدنة «زيتوند»، فقد حدث بعد ذلك ما قلب الأوضاع.

كانت روسيا البلاد الوحيدة التي يستطيع الرايش أن يخبىء فيها الأسلحة والأعتدة والأغذية، وأصبح من حسن السياسة التحالف مع الروس ضد الحلفاء. ولكن حكومة لينين لم تكن توحي الثقة لحكومة برلين كما صار شأن حكومة ستالين بعدئذ.

وعلى هذا سعى فرانتز فون بابن لإيجاد رجل يستطيع نسف حكومة السوفيات بدون أن يقيم مكانها حكومة بورجوازية وسطى. كان يريد أن يبدل السياسة السوفياتية بدون أن يلفت أنظار إنكلترا والولايات المتحدة وفرنسا والدول الأخرى إلى أهمية هذا التبديل الذي لا يفيد منه سوى الرايش.

تمكن فون بابن بواسطة مارتا هيلتش من إقناع فيرا س. . . وعشيقها غولدنشتاين بأن يكونا رسوليه إلى تروتسكي ويحاولا اجتذابه إلى الرايش. ونجح مسعاه وأخذ تروتسكي ينقاد شيئاً فشيئاً إلى جانب

الألمان. ولمّا ماتت فيرا كانت العلاقات بين تروتسكي وفون بابن وثيقة.

أمّا ما حدث بعدئذ فمشهور، من عزل تروتسكي في العام 1925، إلى محاكمات 24 آب (أغسطس) 1936 و 23 و 24 و 25 و 26 و 27 و 28 و 29 كانون الثاني (يناير) 1937 أمام محكمة الاتحاد السوفياتي العليا، فأدانته بالفعال الآتية المذكورة في ورقة الاتهام:

أولاً ـ الوقوف من الحكومة الألمانية موقفاً ودياً والتعاون معها في أهم القضايا الدولية.

ثانياً ـ قبول التنازل عن أراض روسية.

ثالثاً ـ السماح لصناعيين من الألمان باستغلال خيرات الاتحاد السوفياتي باسم امتيازات أو بمشروعات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الألماني. (استثمار ينابيع الحديد والمنغنيز والنفط والذهب والخشب وغيرها).

رابعاً ـ إضعاف صناعة الحرب الروسية وقوة روسيا في حالة نشوب حرب، بناء على أوامر تروتسكي وبالاتفاق مع القيادة الألمانية العليا.

كانت هذه الخطة التروتسكية التي رسمت في برلين قد أوحيت إلى تروتسكي بواسطة فيرا س. . . ومارتا هيلتش الجاسوستين الموظفتين في الدائرة السرية الألمانية.

مارسيا وليامز(*)

(Marcia Williams)

(-   )

هي السكرتيرة الشخصية لرئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون من حزب العمال. وقد اتهمها جهاز الاستخبارات البريطاني (MI5) أن ولديها غير الشرعيين هما من هارولد ويلسون نفسه. هذا في الوقت الذي اتهمت فيه ويلسون وسكرتيرته مارسيا بأنهما يرأسان شبكة تجسس لمصلحة السوفيات (وتحديداً لمصلحة الاستخبارات السوفياتية K.G.B)، ضمن مخطط لتشويه سمعة رئيس الوزراء البريطاني وحزبه العمالي، وإلصاق شتى التهم الأخلاقية والسياسية والفساد به لإبعاده عن المسرح السياسي.. وقد ساهمت كل هذه الإشاعات في تحقيق بعض أهدافها على هذا الصعيد... وصولاً إلى تربّع المرأة الحديدية مارغريت تاتشر في رئاسة الوزارة. كيف كانت هذه الخطة؟ وكيف تمت فصولها؟

لقد توجهت وكالة الـ (MI5) ـ بادىء الأمر ـ إلى السكرتيرة الشخصية لـ «ويلسون»، «مارسيا ويليامز»، التي كان لديها طفلان غير

(*) المرجع: فابريسيو كالڤي وأوليڤر شميدت «التاريخ الأسود للاستخبارات السرّية» ترجمة ريمة الفوّال. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1998. ص315 ـ 321.

شرعيين، أثارت شبكة مقاومة التجسس شائعات تفيد أن والد هذين الطفلين لم يكن إلا «هارولد ويلسون» نفسه. لذا قامت مباشرة بنشر نسخ من شهادات الميلاد المزورة الخاصة بالطفلين، في جميع أنحاء لندن. وها هو «أندرو روث» يساهم ـ من خلال كتابه «يوركشاير وولتر ميتي» في إيصال هذه الشائعات إلى أعداء مارسيا وليامز بين مجموعة البرلمانيين الممثلين لحزب العمال. اعتقد كل من «دوريل» و «راسي» أن «الأعداء» المقصودين هنا، لم يكونوا إلا شخصاً واحداً هو «جورج ويكز». لقد كانت «مارسيا وليامز» قد اتخذت مكانها كمستشارة أولى لويلسون. في حين لم يخف «ويكز»، الذي يقال إنه مقرب من الـ (MI5) ـ حقده وكرهه لمن جاء بعده.

يبدو أنه أصبح لدى «مارسيا وليامز»، التي أصبحت فيما بعد «الليدي فاولكيندر»، طفلان توأمان، وذلك خلال فترة عملها مع «ويلسون». لم تكن «مارسيا» ـ خلال تلك الفترة ـ قد تزوجت بعد. أضف إلى أن والد الطفلين، وهو صحافي يعمل في صحيفة الـ «ديلي مايل»، لم يكن قد حصل بعد على الطلاق من زوجته الأولى. مما جعل الأمر عليها صعباً جداً في المطالبة بشكل علني وواضح بصفة «الابنة ـ المرأة». لذا كانت «مارسيا وليامز» تبذل ما بوسعها لإخفاء وجود هذين الطفلين وبمساعدة المحيطين برئيس الوزراء، مما أتاح المجال أمام الـ MI5 إلى إشاعة نسب هذين الطفلين السرّيين لـ «هارولد ويلسون».

هذا وأشاعت الـ (MI5) ـ بعد ذلك ـ الاعتقاد باحتمال إجراء «هارولد ويلسون» تحقيقاً أمنياً حول ماضي سكرتيرته باعتبار أنها كانت عميلة شيوعية. كما وتابعت مخابرات شبكة مقاومة التجسس البريطانية نشر شائعاتها وتوجيه اتهاماتها، وذلك من خلال إشاعة قصة تروي أن

منازل رئيس الوزراء تضم خلية خاصة بالمخابرات السوفياتية الـ «كي. جي. بي. » (K.G.B)، تلك القصة التي لم تنشر أبداً على صفحات الصحف البريطانية، ولكنها انتشرت ـ حسب ما ورد في روايات «دوريل ورامساي» ـ بصورة سريعة ضمن جميع أوساط الصحافة وحزب المحافظين، وخاصة بين المقربين من الـ (MI5). وها هي هذه الحكاية تروى ـ على سبيل المثال ـ من خلال الصحفي «شامبان بينشر»، أثناء جلوسه في إحدى الأمسيات مع الكاتب القاص «مارتين جيلبرت»، الذي توجه مباشرة لإخبار «هارولد ويلسون» بهذه الحكاية. ثم ها هي مصادر مقربة من الـ (MI5) والـ (MI6) تعلم ـ بعد مرور عدة أشهر ـ بأن المخابرات السرية «تمتلك أدلة وبراهين دامغة» تفيد بوجود خلية شيوعية في داوننغ ستريت أنشأها كل من رئيس الوزراء و «مارسيا وليامز» بالتعاون مع وزراء آخرين من حزب العمال. والعنوان المعطى هو مكان إقامة رئيس الوزراء الرسمية.

كما وصرح الجنرال «سير وولتر وولكر» من جهته قائلاً بمنتهى الجدية: «إن لدي أفلاماً للقاءات جرت مع «هارولد ويلسون»، لدى عودته من زيارات رسمية قام بها إلى الاتحاد السوفياتي وكان «ويلسون» يرتجف بشكل ظاهر جداً. ويفسر «سير وولتر» ما يراه في ارتعاشات «ويلسون» التعيس تلك، بأنها دليل واضح على أنه كان «متهماً بطريقة أو بأخرى» من قبل المخابرات السوفياتية الـ «كي. جي. بي» (KGB).

وذهبت وكالة الـ (MI5) ـ في سبيل إثبات ودعم فكرتها ـ إلى حدّ ذكر اسم مراقب «ويلسون» من قبل السوفيات ـ آنذاك ـ وهو ديك فايكسكاس» القنصل السوفياتي العام في لندن، والكولونيل في المخابرات السوفياتية الـ «كي.ج.ب» (KGB). كما وذكرت الـ (MI5)،

لدعم اتهامها وإثباته شهادات جاسوس سوفياتي، هو «أوليغ ليالين»، الجاسوس البريطاني المتخفي المتواجد داخل السفارة السوفياتية، منذ سنوات عديدة، الذي تباهى القنصل العام «ديك فايكسكاس» بإقامة علاقة مباشرة مع الـ (10) داوتنغ ستريت، من خلال صناعي صاحب معمل نسيج يدعى «جوزيف كاكان». في حين كانت الحقيقة أبسط من ذلك بكثير. إذ تم التعارف بين اليهودي الليتواني «جوزيف كاكان» و «ديك فايكسكاس»، الذي اعتاد اللعب معه بالشطرنج والتحدث عن وطنه الأم. أما بالنسبة لـ «كاكان» فقد كان مقرباً أيضاً من «ويلسون»، وقامت الـ (MI5) بالتحقيق طويلاً في أمره، ولكن بلا جدوى. وبالتالي فلم تستطع محكمة صاحبة الجلالة التقرب من «كاكان»، إلا من خلال تهريب رؤوس أموال.

وأخيراً اتهمت الـ (MI5) «ويلسون» والمحيطين به بتورطهم في قضايا الفساد، لإظهار الحكاية على أكمل صورة. حيث تم إتهام وزراء حزب العمال ـ ظلماً ـ بالتزوير، في حين اتهم رئيس حزب العمال نفسه «إدوار شورت» باقتراضه حساباً من بنك وهمي موجود في سويسرا.

عمليات سطو وتنصّت هاتفي

لقد كانت عملية «كلوك وورك أورانج» تتطلب بالضرورة إحاطة مؤكدة من قبل الأخصائيين في الـ (MI5) وذلك في حال التعامل معها على أساس أنها واحدة من عمليات الحرب النفسية، أي على غرار العمليات السابقة التابعة لشبكة مقاومة التجسس في شمال إيرلندا. لذا فمن غير المستغرب أبداً العلم بأن أماكن إقامة «ويلسون» والمحيطين به تخضع لعدد لا يحصى من الزيارات السرية مع حدوث عمليات سرقات وكسر وسطو. ترى هل هناك حاجة للإشارة إلى أنه كان على

«هارولد ويلسون» الذي كان يشغل ـ آنذاك ـ منصب رئيس الوزراء البريطاني، أن يخضع ـ بشكل رئيسي ـ لحماية نفس الـ (MI5) التي شنت عليه هجومها في الأقاويل والإشاعات؟ ها هو «ويلسون» يحصي بنفسه ـ حسب ما ورد على لسان شهادة نشرتها اللجنة الملكية الخاصة بالصحافة ـ (هناك ثماني عمليات سطو في أماكن عمل محاسبي ومحامي الخاص وسكرتيرتي). . .

في حين تم أيضاً إحصاء وجود سبع عمليات سطو حدثت بين أعضاء مجلس وزرائه، اثنتان منهما حدثتا في منزل «مارسيا وليامز»، واثنتان أخريان في منزل «ويلسون» القروي الخاص، في «بوكينغهامشاير»، ومكتب عقود شبكة تلفزيون «يوركشاير» المسماة (YTV)، حدثت جميع هذه العمليات بعد مرور أسبوع واحد فقط من إعلان برنامج لقاءات «ويلسون» الذي أجراه «ديفيد فروست».

هذا وقامت الـ (MI5) أيضاً بوضع ميكروفونات داخل جميع أماكن اجتماعات المقربين من «ويلسون»، إضافة إلى مراقبة بريده ومحادثاته الهاتفية. يمكننا التساؤل إلى أين ستذهب غيرة مخابرات شبكة مقاومة التجسس، وفيما إذا كانوا قد تعرضوا لخطر وضع رئيس الوزراء البريطاني تحت المراقبة والتنصت. قد لا يكون الأمر مستحيلاً. إذ أن المخابرات السرية التي تحاول تشويش سمعة وزير من خلال توريطه في قضية أخلاقية، كما فعلت الـ (MI5) مع «توني بين»، قادرة تماماً على القيام بأشياء مماثلة.

فضائل البرتقالة

لقد أدت عملية «كلوك وورك أورانج»، منذ عام (1974) إلى تشكيل مجموعات شبه عسكرية، عرفت بالتسمية العسكرية باسم

«وطنيات» خاصة كانت هناك اثنتان منها تتمتعان بحق إعطاء العناوين إلى كبرى الصحف وهي الـ (GB72) التي أسسها «ديفيد ستيرلينغ»، مؤسس مجموعات فصيلة الكوماندوس المسلحة ذائعة الصيت (SAS)، خلال الحرب، والمساعد المدني للجنرال «سير وولتر وولكر» أما مهمة هذه المجموعات فهو: «إجراء عمل ما في حال تواجدها بحالة معينة لا يكون فيها هناك أي وجود للحكومة البرلمانية لاتخاذ اجراءات الحيوية اللازمة». وهكذا فقد ذكرت صحيفة «التايمز» في لندن، ضمن العدد الصادر بتاريخ 31 آب (أغسطس) من عام (1974)، وجود أربعين مجموعة مسلحة من هذا الطراز. ترى هل تتواجد هذه المجموعات تواجداً فقط؟ يمكننا التحدث هنا ـ حسب ما ورد على لسان كل من «دوريل ورامساي» ـ عن تواجد عملية أخرى خاصة بالحرب النفسية وتقوم على أساس جعل الناس تعتقد بانهيار الحالتين الاقتصادية والاجتماعية للبلاد وذلك بهدف تأييد وجود الميليشيات السرية. والسبب هو ترك الـ (MI5) تصغي ـ خلال تلك الفترة ـ إلى حكومة «ويلسون» في تواجد حقيقي لمثل هذه القوى التي تهدد بالتدخل ضده في أي وقت. . .

ومع ذلك، لم تكن هذه الفصائل المسلحة المتخفية تمثل أي خطر حقيقي. وهكذا فقد كانت الـ (GB75)، التي أسسها «ستيرلينغ»، تعمل لصالح عضو واحد فقط هو بائع أسلحة «جيرسي»، المدعو «جيوفري إدوارد»، الذي قام بكتابة كتابين اثنين من مذكراته يتحدث خلالهما عن «مغادرة» أعضاء سريين للمنظمة لإدارة الـ (GB75)، بانتظار موعد الانتخابات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام (1974). هذا ولم نعد نسمع أي شيء حول هذه الميليشيا منذ تلك الفترة.

في حين ظهرت المجموعة شبه العسكرية الثانية ـ لأول مرة ـ في الثامن والعشرين من شهر آب (أغسطس)، لعام (1974). وتم تأسيسها بتحريض من الـ (MI5). وترأس هذه المجموعة «سير وولتر وولكر» ومساعدة الكولونيل «روبير بوتلر». كان «السير وولتر» من المعتادين على موضوع الأسلحة الخاصة وذلك باعتبار أنه قام ـ قبل فترة بسيطة ـ بتأسيس مجموعة «يونيسون». كما واعترف بتسلمه أنواعاً مختلفة من الدعم ومن قبل العديد من الشخصيات منها «اللورد ماونتباتين» و «فيلد ماريشال سر كلود أوشينليك» و «الأميراك فاريل بيك»، في حين لم يتردد آخرون في وضع أيديهم على هذه المجموعة وتسيير خطواتها أمثال ماريشال قوى الطيران الملكي البريطاني «سير جون سليسور»، أو «سير ألكسندر ابيل ـ سميث»، بينما كان المتوفى «روس ميغفيرتر»، ـ قد منح المجموعة مبلغ 15 ألف جنيه استرليني كمساعدة مالية منه. يعتبر «اللورد كايزر» ـ حسب الـ P-DG من «بريتيش كومونويلث شيبينغ» واحداً من أهم الممولين لحزب المحافظين خلال الثمانينات. إذ ها هو يقوم خلال عام (1983) فقط بتحويل ما يزيد عن الـ 90 ألف جنيه استيرليني لحزب المرأة الحديدية. أما بالنسبة للأعضاء الآخرين للمساعدة المدنية فكانوا مجهولين تماماً. كان «سير جون سليسور» واحداً من مجموعة سرية يطلق عليها اسم «لجنة المقاومة والعمليات النفسية التي تعتبر ـ في الأصل ـ حركة سرية مسلحة ضد الشيوعية. ولا ننسى أن نشير هنا أيضاً إلى قيام العميل «غوردون وينتر» من جنوب أفريقيا باتهام اثنين من أعضاء المساعد المدني هما «روس ميغفيرتير» و «جورج كينيدي يونغ» بأنهما من «كبار المسؤولين في الاستخبارات البريطانية». لم يكن لدى «وولكر» ومساعده المدني أية فرصة في التدخل للدفاع عن

بلدهما ضد العدو الداخلي. حيث جاء انتخاب «مارغريت تاتشر» ليزيل محاولات الانقلاب والعصيان. وكان السير وولكر هو أول من اعترف بذلك من خلال رسالة وداع كتبها وأعلن فيها عن انتهاء المساعد المدني قائلاً: «إن مارغريت تاتشر هي السلام بالنسبة لهذا البلد».

هذا ويمكننا التأكيد ـ في حال أننا ما زلنا نجهل الحيل المرافقة لعملية «كلوك وورك أورانج»، أنه تم إيجاد هذه الشبكة من خلال الـ (MI5) وأن اليمين الأكثر تطرفاً لم يختف مع انتهاء حكومة «ويلسون».

والجدير بالذكر أن وصول «مارغريت تاتشر» إلى السلطة، محاطة بمجموعة «حساسة حقاً» لأي تهديد داخلي، يعتبر ـ من خلال بعض المراقبين ـ وكأنه استمرار لهذه العملية رغم أن وصولها جاء بعد استبعاد كل من «إدوار هيث»، والمحافظين المعتدلين.

مارسيل نينيو(*)
(Marcell Ninio)
(-)

هي إحدى الغانيات التي كانت تعمل في أحد مقاهي مصر عندما اتصل بها جوهين دارلينغ أو الكولونيل إبراهيم دار أحد كبار موظفي الاستخبارات الإسرائيلية، أثناء لقائه مع الدكتور فيكتور سعدي، الطبيب اليهودي المعروف في القاهرة، من أجل توظيفها في العمل معهم لمصلحة المخابرات الإسرائيلية. وقع أول اتصال بين دارلينغ أحد رؤساء الاستخبارات الإسرائيلية وفيكتورين نينو في مقهى كبير، بالقرب من سينما نصر، المتوهج نوراً بأضواء النيون. وكان الوقت صيفاً. واتفق الاثنان على العمل في الوقت الذي رأى دارلينغ أنها الفتاة المؤهلة لذلك. وتحددت مهمة فيكتورين على أساس أن تلعب دور «علبة البريد» تحت اسم «مارسيل» لكل شبكات الجاسوسية الإسرائيلية في مصر.

اعتقلت بعد أن ألقى البوليس المصري القبض على رفيقها

(*) المرجع: عمر أبو النصر «إيلي كوهين جاسوس إسرائيل في دمشق». بيروت 1968. ص 41 ـ 48. و«الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السّري». ص 53. ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس». الجزء الثاني عشر. المركز الثقافي اللبناني. بيروت الطبعة الأولى 2003. ص 104 ـ 105.

الجاسوس الإسرائيلي فيليب «ناتنسون». وقد أعطاها دارلينغ ألف جنيه مصري، وغادر مصر في سنة 1952 بعد أن وضع الأساس لشبكة من الجواسيس تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية. وقد اعتقل معظم أفرادها بعد الخطأ الذي ارتكبه «فيليب ناتنسون» في 23 تموز (يوليو)، ذكرى احتفالات الثورة بعد أن احترق المسحوق السريع الاشتعال الذي كان يحمله في جيبه فأدى إلى اعتقال البوليس له. وكانت فيكتورين نينو روح الشبكة وحركتها المندفعة. وقد حاولت الانتحار بعد القبض عليها حتى لا تتكلم، فلم توفق.

مارغريت د. أندريان(*)
(Margaret Andrian)
(1948 - 1895)

هي أخطر دماغ إجرامي في النصف الثاني من القرن العشرين، في عالم المخابرات والجاسوسية، حيث كانت تعمل لصالح الاستخبارات الألمانية النازية (الغستابو)، انطلاقاً من الشاطىء الأبيض في طنجة. وفي ليلة مظلمة من ليالي صيف عام 1947، إذ كانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريباً عندما كان اثنان من السائحين البريطانيين يسيران بخطوات مترنحة على طوال الشاطىء الرملي، يتنزهان لملء رئتيهما من هواء البحر المالح، ويتحادثان فيما بينهما بلهجة ملؤها الانفعالات. وكان من ينظر إليهما يحكم مباشرة بأنهما قد تناولا كثيراً من المشروبات الروحية المتنوعة، ذلك لأنهما كانا يتأرجحان ويصطدمان، بينما كان ضوء المصابيح اليدوية الصغيرة التي كانا يحملانها بهدف إضاءة الطريق أمامهما يذهب بعيداً لينير أمواج البحر المتكسرة على مسافة ليست بالبعيدة عن موقع أقدامهما.

وكان تقدمهما المتعب يثير فيهما الضحك بين آونة وأخرى،

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص259 - 277. وصلاح نصر «الحرب الخفية...». ص181 - 184.

وبقي شأنهما كذلك إلى أن وقعت أبصارهما فجأة على تلك الجثة التي قذف بها البحر إلى الشاطىء، والتي كان زبد الأمواج الأبيض يحيط بها وكأنه ستارة لتغطيتها. وعندئذ توقف كل من الصديقين، وانحنيا إلى الأمام وهما يتأرجحان قليلاً ليتأملا الجثة، إنها امرأة ترتدي الملابس الأوروبية، وكان هدير الموج يعبث بشعرها القصير فيجعله شبيهاً بنباتات البحر الذهبية. وانقضت لحظة وهما يجهلان أنهما أمام الجثة القتيل، إلى أن اقتربا بوجهيهما من وجه الجثة وحدقا بأبصارهما التي وقعت على فتحة تشوه الرأس، وعندئذ صرخ أحدهما بصوت مرتجف:

- يا إلهي!

بينما أدار الآخر ظهره ليتقيأ مفرغاً ما احتوته معدته.

بعد ذلك بساعات قليلة، كان اثنان من الأطباء يعكفان على تفحص الجثة الممددة فوق المشرحة، وكانت تقديراتهما تشير إلى أنه مرّ ثلاثة أيام على وجود الجثة في البحر. وكان الوجه مشوهاً، فالأنف مصاب بكسر، بالإضافة إلى جروح أخرى، ولكن الضربة القاتلة حدثت بواسطة أداة ثقيلة، كمطرقة مثلاً تم تسديدها على الرأس من الخلف، مما أحدث فجوة في مؤخرة الجمجمة. ولم تكن القتيلة فتاة شابة، ولكن يبدو أنها كانت على جانب كبير من الجمال على الرغم من الجراح المريعة.

بينما كان الأطباء مستمرين في تشريح الجثة، كان رجال الشرطة في طنجة يقومون بتحرياتهم لمعرفة هوية صاحبة الجثة. ولقد ابتدأت العملية ببعض الصعوبات، ولكن تفحص الآثار وكذلك الصور التي كانت تتضمنها ملفات الشرطة كشفت النقاب عن صاحبة الجثة التي لم

تكن سوى **الكونتيسة مارغريت د. آندريان، وهي امرأة معروفة في كثير من البلدان كجاسوسة، وكعميلة مزدوجة ذكية جداً.**

وقد زاولت عملها في الجاسوسية خلال ثلاثين عاماً تخللتهما حربان عالميتان ـ وكان عملها لصالح عدد من الرؤساء ـ هذه المرأة القاسية القلب التي ولدت لتكون متآمرة ووصفتها السلطات المسؤولة بأخطر امرأة تجد لنفسها مكاناً في أرقى الأوساط الاجتماعية أينما حلت.

ومن تقارير الشرطة الدولية، أمكن استخراج تقرير عن نشاط هذه المرأة التي سببت في وفاة أو إخفاء خمسة وعشرين شخصاً في ظروف غامضة. ولكنه في هذه الأثناء، وفي كل هذه الظروف، كان من الصعب توجيه أي اتهام بسبب فقدان الأدلة. **فلقد كانت الشرطة الفرنسية تعتبر مارغريت د. آندريان كأخطر دماغ إجرامي في عصرنا الحاضر**، وقد أمكن جمع إضبارة متممة عنها، وكانت هذه الإضبارة تتضمن أربعة حوادث اغتيال سياسي فقط.

ويندر أن يرى مصنف أكثر سواداً لجواسيس القرن العشرين من ذلك المصنف الذي يتضمن سيرة هذه الكونتيسة، امرأة لا تخاف شيئاً، تتمتع بخيال خصب، محرومة من الضمير، كما أن الحنان لم يعرف الطريق إلى قلبها، وإذا ما صادف وأحبت إنساناً فلن يكون ذلك إلا حباً لذاتها، وبالإضافة إلى ذلك فهي ذات مهارة لا تقل عن مهارة **لوكريس بورجيا** في مجال استخدام السموم.

ومما يروى عن مارغريت أنها صرحت أمام أحد عشاقها بالتالي:

«إنني ذات مزاج خاص، كما أنني متقلبة العواطف مضطربة،

ولذا فليس باستطاعتي أن أكون أكثر من مجرمة كبيرة. ولا شيء يضايقني قدر تلك العواطف الأبوية التي يلهو بها الآخرون، كما أن الشيء الوحيد الذي تثور له شخصيتي هو الاستمتاع بجثة رجل ميت، وتنحصر تسليتي الوحيدة في تجاوز الآخرين والتقدم عليهم».

ولدت مارغريت في بايون في عام 1895، وأصبحت تتكلم اللغتين الفرنسية والإسبانية بطلاقة وهي لا تزال طفلة صغيرة. وكان أبوها يعمل كاتب عدل، وكان يبذل جهده لتأمين احتياجات العائلة، وكان ملكياً متحمساً، وكان يكرس كل فراغه وإمكانياته للانتصار لأعمال الإصلاح التي تقوم بها الدولة الفرنسية.

ولم تكن المواضيع السياسية لتثير مطلقاً اهتمام الفتاة الصغيرة الممتلئة نشاطاً وحيوية، بل كانت تجد لذتها في التصرف على هواها وتعمل على الإيقاع بين رفاقها ورفيقاتها ناصبة شراك المكائد فيما بينهم، وبذلك تتمكن من مزاولة كل أنواع قسوتها عليهم. وفي ذات يوم ضايقها أحد غلمان القرية عندما سخر منها، وعندئذ ألحت عليه ليرافقها إلى الشاطىء كي يسبحا معاً. وهناك جذبته إلى الأسفل لتغرقه. وكاد الغلام يغرق لولا أن رآهما صياد كان يمر من هناك فألقى بنفسه في الماء لينقذ الضحية التي كانت قد غابت عن وعيها. أما بالنسبة لأمومة الفتاة مارغريت وتربيتها، فإن العائلة لم تقدم لها العون الكافي أثناء سني تكونها وإدراكها إذ كانت الأم فتاة شابة وجميلة ومغرية جداً تهجر زوجها وابنتها للبحث عن سعادتها بين أحضان العديد من عشاقها الذين كانوا يقدمون إليها العواطف الحارة والمجوهرات، ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك السبب هو الذي ترك تلك الهوة السحيقة في حياة الفتاة الصغيرة التي كان حظها من أمها الإهمال وعدم الاهتمام. وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن هذه

الفتاة الصغيرة مارغريت لم تحاول مطلقاً أن تتعرف على السبب الذي كان يباعد بينها وبين والدتها في الوقت الذي كانت تحتاج إلى حب أمها وحمايتها لها، ذلك لأنها كانت تتقدم نحو النضج بسرعة كبيرة من الناحيتين الجسمية والعقلية. ففي ذلك العمر وفي الوقت الذي تعتاد فيه الفتيات الصغيرات على الذهاب إلى الأسرة تحيط بهم رعاية الأبوين واهتمامهم، كانت الفتاة مارغريت تتبادل الأشربة الروحية وتدخن لفافات التبغ وتقضي لياليها راقصة مع رفاقها في المقاهي المتراصة على طول الرصيف. وكانت تلك التصرفات تثير غضب الأب المتكاسل الذي كان عاجزاً عن كبح جماح ابنته. وكان الجوار والأصدقاء يسلقون هذه العائلة بألسنتهم، ولذا فلم يكن حدثاً مفاجئاً لهم عندما علموا أن مارغريت التي لا يزيد عمرها عن الخمسة عشر عاماً فرت مع ملازم شاب ينتسب إلى سلاح الفرسان.

وعثر الأب ورجال الشرطة على العاشقين في باريس أخيراً بعد أن كان الملازم الشاب ومارغريت قد تقدما بطلب لإعلان زواجهما، ولكن ذلك لم ينفعهما في شيء لأن الفتاة كانت لا تزال قاصراً، كما أن والدها كان حزم أمره على تجنب أية فضيحة في العائلة. وكان عليها أن تطيعه، هذا ما صرحت به، ثم عادت مع أبيها إلى بايون.

ثم أصبحت الفتاة ملزمة بإطاعة أوامر أبيها، ومجبرة على البقاء في المنزل، ولكن ذلك لم يمنعها من اتخاذ قرار حاسم في ركوب أول مغامرة تسمح بها الظروف، ولن تنتظر بعد ذلك طويلاً قدوم تلك المناسبة.

بعد ذلك بعدة أشهر، وأثناء فصل الخريف من عام 1911، ذهبت مارغريت للإسهام بحفل راقص تقيمه البحرية، وهناك تقابلت

مع **الكونت بيير د. آندريان**. وعلى الرغم من فارق العمر إذ كان يكبرها بعدد من السنين، فلقد رغب بها كثيراً وأغراه جمالها كثيراً وما تتمتع به من الحيوية والخيال. وفرح والد مارغريت بهذا التعارف طالما أن الكونت كان غنياً، فقد كان هذا الرجل هو الملائم لكبح جماح تلك الفتاة.

وتقدم بيير بشكل رسمي طالباً يد الفتاة، واستلمت الفتاة من أبيها هدية رمزية كـ «دوطة» مشفوعة ببركاته وتمنياته. وشهدت كنيسة بايون حفلة الزفاف الكبرى.

كان الكونت محباً للأسفار بفطرته ولذا فرح فرحاً شديداً وهو يرافق زوجته الشابة ليطلعها على أسرار العالم. فقاما بزيارة للعديد من المدن والعواصم الأوروبية ثم اتجها بحراً إلى أميركا إلى أن ذهبا بعد ذلك إلى الأرجنتين. ومن هناك إلى البرازيل. وفتنت مارغريت بجمال هذين البلدين الأخيرين. وكان الزوج رجلاً أنيقاً وصاحب تقاليد نبيلة رفيعة. ولذا فسرعان ما أصبحت الفتاة امرأة فاتنة جميلة جداً وأنيقة جداً.

وفي عام 1914 عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، كان الكونت والكونتيسة آندريان يقيمان في مصر. وانقضى عام على إقامتهما هناك قبل أن يتعرف بيير وزوجته مارغريت أثناء حفل استقبال ديلوماسي في القاهرة على **ملازم إنكليزي خجول ذي تربية رفيعة. وكان الملازم يعرف بسم ت. أو. لورانس الذي اشتهر فيما بعد باسم لورانس العربي**. وقد كان يعمل في تلك الفترة على تنظيم منظماته السرية ومنظمات التخريب للوقوف في وجه المصاعب التي يلاقيها الإنكليز في مصر. فلقد كانت العصابات العربية تقوم بشن الغارات

التي كانت تهدد باستمرار أمن القوات البريطانية في هذه البلاد، كما أصبحت الاغتيالات تزداد يوماً بعد يوم، وقد تعرض الأمير حسين كامل ذاته لاثنتين من هذه المحاولات بعد أن تم تنصيبه. وكان السلطان ذا ميول واضحة نحو ألمانيا، ولم يكن مخطط لورانس يقتصر على شل وإيقاف نشاط موجهي وقادة الحركات الوطنية في مصر فحسب، بل كان يهدف إلى اكتشاف المصادر التي كانت تستخدمها كل من ألمانيا وتركيا للحصول على المعلومات التي كانت تستخدم في سبيل خلق الصعوبات التي كانت تضيق سيطرة الإنكليز التامة على مصر. وكان الفشل يصيب كافة المخططات التي وضعت حتى ذلك التاريخ لتحقيق هذه الغاية. إن معرفة نوع البحث والتنقيب الذي قام به لورانس لدراسة أوضاع الكونت والكونتيسة د. آندريان أمر يصعب إدراكه. ولكن من المحتمل جداً أن يكون لورانس قد اعتبرهما كحليفين طبيعيين له بصفتهما من رعايا الدولة الفرنسية. **وفي المرة الثالثة التي تقابل بها مع مارغريت قام باصطحابها إلى زاوية منفردة في شرفة من شرف فندق شيبرد حيث طلب إليها العمل معه وأبدى رغبته في معرفة درجة استعدادها من أجل ذلك كما ذكر لها الأخطار التي قد يتعرض إليها من يعمل في الجاسوسية، وأنبأها بأنها قد تضطر للانفصال عن زوجها في الكثير من المناسبات والظروف القهرية.** ومما قاله لها:

وأما المكافأة الوحيدة التي ستنالينها فهو أن تعرفي بأنك تعملين لمصلحة بلدك وحليفتها إنكلترا. وعندئذ أجابته مارغريت أن ذلك يبدو لي مثيراً. ولقد أحببت دائماً حياة المغامرات. وأنني بدأت أشعر منذ فترة بالضيق والملل من الحياة الرتيبة، ولعلي واجدة في عرضك هذا ما كان ينقصني. فماذا تريد مني أن أفعل؟ عندئذ هتف لورانس وهو

يبتسم: رائع! لقد كنت على يقين بأنك ستهتمين بهذا النوع من العمل. إنك جميلة وذكية، وسنعمل على مساعدتك للتعرف إلى أولئك المصريين الذين يلعبون دوراً هاماً في الأوساط الوطنية. وما عليك إلا أن تكتسبي صداقتهم وثقتهم، وبذلك ستتمكنين من الحصول على أسرارهم التي نحن بحاجة إليها، وذلك بالإضافة لنشاطهم المعادي لبريطانيا والذي ستتمكنين من الحصول عليه لمصلحتنا.

تلقت مارغريت بعد ذلك تعليمات الجنرال جيل بيرت كلايتون رئيس منظمة الاستخبارات البريطانية للأمور السياسية والعسكرية. وكانت تجيب على أسئلته بصراحة ووضوح كما تصغي إليه بانتباه وهو يشرح لها دقائق مغامراتها الأولى في ميدان الجاسوسية. ويبدو أن كلايتون قد هنأ لورانس على حسن اختياره، كما صرح أمامه بأن الكونتيسة كانت صبية جميلة رائعة ذكية.

وكما يقال، أصبحت السيدة مارغريت د. آندريان **بعد ذلك بثلاثة أشهر خليلة سعد زغلول باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر،** وقد شوهدت برفقة عشيقها في كل مكان في حفلات الاستقبال وفي المسارح وفي حفلات السبق. ولقد انتشر خبر هذه العلاقة التي لم تحاول إخفاءها، كما ذاع صيتها في جميع الأوساط، وعلى الرغم من ذلك كله فقد بقي الكونت صامتاً. فلقد أثمرت فعاليات واتصالات مارغريت ثمارها كما كان يتوقع، وكان لها أفضل النتائج.

ذلك منذ البداية، يحسن العودة إلى عام 1916 عندما داهم رجال المباحث البريطانية مع الشرطة المصرية أحد المنازل التي تقع في ضاحية من ضواحي بورسعيد، حيث تم اكتشاف مستودع ضخم للأسلحة، كما أمكن العثور على الوثائق التي وضعتها المنظمات

المصرية السرية، وفيها مخطط تعطيل القناة في عدد من المناطق الاستراتيجية. وكانت هذه العملية بمثابة ضربة قوية لآمال الوطنيين نتج عنها إبعاد سعد زغلول باشا واثنين من مساعديه الرئيسيين إلى مالطا.

ولقد أمكن للصحف المصرية بسرعة من أن تربط العلاقة التي تصل بين هذه العملية وعلاقة زغلول باشا العاطفية بمارغريت، ولكن المراقبة أصدرت أمراً عاجلاً إلى الصحف بعدم التعرض لاسم الكونتيسة وذلك بهدف المحافظة على مصلحة الأمن القومي.

وفي شهر أيلول (سبتمر) من السنة ذاتها، قام رجال الشرطة باعتقال ثلاثة رجال من الأتراك واثنين من الألمان وهم يزاولون أعمال الجاسوسية. وكان في حوزة أحد الأتراك الثلاثة صورة مع الكونتيسة مارغريت أمام أهرامات الجيزة. وقد اعترف بحسرة ومرارة أنه كان يعرف الكونتيسة الجميلة الشقراء. ومما قاله: نعم كنا صديقين حميمين، وكانت تبدو لي وفية، ولذا فلم يكن يخطر في مخيلتي إطلاقاً أنها ستعمل على خيانتي. وعملت المراقبة من جديد على منع الصحف من إثارة اسم الكونتيسة.

وخلال السنتين التاليتين ظهرت مارغريت في عدد من الأماكن الاستراتيجية من قلب شبه الجزيرة العربية، ذلك أن لورانس كان قد أرسل بها في عام 1917 إلى الرياض، المدينة التي كانت مقراً لابن سعود الذي كان لا يزال نشيطاً في حربه الرهيبة والمشهورة ضد الملك حسين ملك الحجاز. وكان من نتائج تلك المبارزة الدموية تعريض تلك المخططات التي وضعها الإنكليز من أجل كسب معركة الصحراء والقيام بالهجوم الذي كانت تجري الاستعدادات له ضد الأتراك للخطر.

وقامت مارغريت بدورها فحذرت الملك ابن سعود من أعدائه في العالم العربي وقدمت له الكثير من المعلومات الهامة، ووعدته بذهب الإنكليز فيما إذا تخلى عن حربه الصغيرة الخاصة تلك لينضم إلى جانب الحلفاء ويحارب معهم. وكانت بذلك أول امرأة أوروبية تم قبولها للقيام بمثل هذه الأعمال الرفيعة.

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها انتقلت الكونتيسة وزوجها إلى دمشق، وبعد ذلك بأقل من سنة قدمت له مولوده الأول. ولقد تساءل الأشخاص الذين يعرفونها جيداً عما إذا قررت التخلي نهائياً عن حياة المغامرات أم لا. ومهما كان من أمر فقد أصابهم الذهول لتلك المفاجأة التي تركها الزوج وزوجته عندما قررا **مغادرة دمشق مع ابنهما الصغير لشراء فندق في تدمر من سوريا.**

تدمر مدينة ورد ذكرها في التوراة ويعود تاريخها إلى 1200 سنة قبل ميلاد السيد المسيح، أما شهرتها الوحيدة في القرن العشرين فتعود إلى موقعها الهام على مفترق الطرق الرئيسية لمرور القوافل التي تصل بين الشرق والغرب. ومنذ 1700 سنة، كانت تدمر نتيجة لموقعها الجغرافي هذا عاصمة لامبراطورية قوية تسيطر على المراكز الحيوية للشرق الأوسط بأكمله. ولكنها في ذلك الوقت من عام 1923 لم تكن سوى واحة صغيرة قذرة ضائعة في قلب الصحراء، ويندر أن تجد لها ذكراً على الخرائط الحديثة. كما كانت تلك المنازل المنتشرة ليست إلا أكواخاً صغيرة مبنية من الطين يلجأ إليها الأعراب. ولقد كان انتقال عائلة الكونت إلى تدمر موضوعاً تناقلته أحاديث الأوساط الدمشقية، كما أثار العديد من الأسئلة التي ترددت في أذهان ضباط الاستخبارات السرية البريطانية. وكانت هذه الأسئلة هي لماذا تم اختيار هذا المكان؟ ولماذا ذهبت تلك الكونتيسة لتختبىء في تلك

الزاوية المفقودة؟ . . . ولقد عملت عائلة د. آندريان على إدارة ذلك الفندق الذي كان يعرف باسم فندق الملكة زنوبيا خلال تسعة أعوام طويلة. ولقد كان أثاث شقة مارغريت الخاصة في هذا الفندق من المفروشات الضخمة، وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من الغرف الخاصة.

أما مفروشات ما تبقى من غرف نوم في الفندق فكانت بسيطة للغاية حتى يمكن القول أن الغرف كانت خالية، ونتيجة لذلك فقد كانت الغرف الخاصة معدة لنزول الأثرياء من الباحثين عن ينابيع البترول وكذلك مشايخ قبائل البدو وضباط الجيش الفرنسي المحتل، ومجموعة ممثلي الأعمال التجارية والذين كانوا يعملون لإخفاء مهماتهم التي كانت تكلفهم بها القيادة العامة في موسكو. وكانت المعلومات هي البضاعة التي تقوم الكونتيسة ببيعها كما كانت تعلن أمام زبائنها قائلة: إنني أقدم المعلومات بصورة شفهية دون تقديم أي نص كتابي، وبذلك فإننا نحتفظ لأنفسنا بحق رفض تأدية خدماتنا عندما نشاء.

وبذا فقد كانت تقوم ببيع المعلومات عن الوقائع والإحصاءات والحوادث لكل من كان على استعداد لدفع الثمن نقداً وإلى من يدفع الثمن الأكثر. ولم تكن تهتم بالأمور السياسية لأنها لم تكن تحمل الشعور الوطني الصحيح. ولذا فقد كانت منصفة في أداء الخدمات التي قدمتها إلى المنظمات السرية بعدد من البلدان وذلك بقدر ما كان يسمح لها ضمير الوفاء لمهنتها التي احترفتها.

وفي هذه الفترة، وقع الأمير فواز الشعلان في حب صاحبة الفندق الجميلة، فقام باصطحاب خليلته إلى جوار تدمر لكي يظهر قوته ويجلب انتباه الكونتيسة إليه. وبعد ذلك انتحر ضابط شاب برتبة

كابتن لأنها صدته عنها، ولكن... وبعد ذلك بأيام انتشرت شائعة مفادها أن ذلك الضابط قد مات قتلاً، وأنه قد تكون هناك علاقة بين مؤامرات الجاسوسة وقتله.

مارغريت تغتال زعماء الثورة السورية الكبرى عام 1925

ومما لا شك فيه أن مارغريت عملت في عام 1925 بنشاط لمصلحة المكتب الثاني، فلقد كان الفرنسيون بحاجة لخدماتها أثناء الثورة السورية، كما كان الشيوعيون السوفيات يأملون بأن تعمل لمصلحتهم. وقام كل طرف من الأطراف بتقديم العقود لها، كما قامت هي بدورها في تقديم خدماتها لكلا الطرفين معاً، عاملة على خيانة الفرنسيين لصالح الروس وخيانة الروس لمصلحة الفرنسيين. **وفي أثناء الثورة السورية، عقد ستة من زعماء العرب اجتماعاً في فندقها للقيام بمباحثات سرية ثم اختفى هؤلاء الزعماء فيما بعد فلم يعثر لهم على أثر، ولا يزال السوريون حتى يومنا هذا يذكرون بأن الكونتيسة قد نصبت ذلك الفخ الذي أوقعت فيه بزعمائهم، ثم عملت على قتلهم. ولقد اهتمت منظمات الاستخبارات الأميركية والبريطانية فيما بعد بأعمال ونشاط السيدة مارغريت المقيمة في قلب الصحراء المقفرة والمحرقة من بلاد العرب.** وبعثوا بعملائهم للبحث في أثرها. ولم تنتشر تلك التقارير التي بعث بها هؤلاء المباحثيون ولكن هناك شيء ثابت أمكن معرفته.

هذا الشيء هو أن الكونتيسة هذه بعد أن أقامت خلال تسعة أعوام في هذه القرية المقفرة المجهولة تقريباً أصبحت تمتلك على رصيد ضخم جعلها على جانب كبير من الثراء.

بدأت الأوضاع السياسية في سوريا تستقر منذ عام 1932، ولذا

فإن منظمات الاستخبارات لم تعد بحاجة إلى معلومات صاحبة الفندق التي بدأت تؤكد قائلة: لقد اكتفيت بذلك الدور الذي لعبته في فندق ملكة الصحراء. ثم بدأت تتعجل لنفض غبار تدمر الذي كان قد علق في أكعاب أحذيتها العالية منذ وقت طويل.

كما كانت مارغريت قد تعبت أيضاً من ابنها فعملت على إرساله إلى أحد معاهد فرنسا. أما بالنسبة إلى زوجها الكونت فلقد قضت إلى جانبه وقتاً كافياً مما جعلها غير راغبة بوجوده إلى جانبها لأكثر من ذلك، فتظاهرت بإعلان إسلامها، وبذا أمكنها أن تحصل على المبرر الذي لم يكن له في الواقع أية صلة بالدين وتمكنت بذلك من الافتراق عن زوجها.

عندما بلغت السابعة والثلاثين من عمرها تزوجت من شاب عربي، ابن سليمان الذي كان يصغرها مقدار عشر سنوات تقريباً، ولقد كتبت إلى ابنها عن ذلك: **إن والدك الجديد هو شخصية هامة جداً، أنه شيخ إحدى القبائل الكبيرة.**

ولكن تحريات رجال المباحث ألقت الضوء بعد ذلك على الواقع، فظهرت الحقيقة مخالفة لأقوالها. ذلك أن سليمان هذا لم يكن أكثر من رئيس لإحدى قبائل البدو الرحل، وكان أمياً تزوج بها مقابل مبلغ ثلاثين ألف فرنك نقدته إياها. وكان هدفها من زواجها هذا مرافقة الحجيج والدخول إلى مكة، فلقد كانت مارغريت بحاجة إلى مغامرة جديدة.

وركب الزوجان المتنافران شكلاً وموضوعاً على متن باخرة أوصلتهما إلى جدة، ومن هناك استمرت الرحلة على ظهور الجمال. وأدركت مارغريت تماماً تلك الأخطار التي تتعرض لها إذا ما اكتشف

أمرها وهي تدخل المدينة المقدسة. فلقد كان الموت عقوبة كل غريب «دنس» يدخل مكة. وكانت الرحلة قد أشرفت على نهايتها عندما تعرض لهم رجال لاحظوا التماع عيون مارغريت الزرقاء من فوق خمارها، فعملوا على إيقافها وطلبوا إليها الكشف عن وجهها. كان شعرها أشقراً، وعيناها زرقاوان، وبشرتها صافية. فتمّ اعتقالها ووضعت في السجن في قلب أحد الجبال لمدة أسبوع واحد، كان المسؤولون العرب خلالها يتناقشون في أمر هذه السجينة.

أصيب ابن سليمان بمرض شديد أثناء سجن زوجته، فأخذ يتلوى ألماً خلال عدة ساعات، ثم اضطجع لتوه وهو يحتضر وفارق الحياة. **وكان الموت نتيجة لدس السم له.** وعقد مجلس المحكمة المؤلف من أعضاء إحدى القبائل جلسته التي استمع فيها بهدوء إلى مارغريت وهي تصرح بأنها دخلت في دين الإسلام عن إخلاص وإيمان، **ولكن أعضاء المحكمة لم يقتنعوا إطلاقاً بأقوال النجسة التي قامت بدس السم لزوجها، مقترفة بذلك جريمة بشعة** وأصدرت المحكمة حكمها على مارغريت رجماً حتى الموت، وذلك حسب العادات المتبعة في الصحراء منذ القديم.

وعندئذ استخدمت مارغريت السلاحين الوحيدين اللذين تمتلكهما، سحرها ونقودها. فقامت بدفع مبلغ إلى أحد الحراس العرب لكي يقوم بإعلام القنصل الفرنسي بجدة عن وضع تلك السجينة البائسة. وقام هذا الأخير بدوره فأعلم الملك ابن سعود الذي كان يذكر بحنين تلك اللحظات الحلوة التي كانا قد قضياها معاً، وعندئذ صدر الأمر بإطلاق سراح السجينة فوراً، فلقد انقضت لحظات طويلة وساعات ثقيلة من الانتظار قبل أن تتمكن هذه المغامرة من مغادرة سجنها في الجبال.

وبعد سنتين من هذا الحادث الذي طوته زوايا النسيان، كانت مارغريت تقيم من جديد في تدمر، حيث عادت فتزوجت مرة أخرى من الكونت الذي كانت إمارات الشيخوخة قد بدأت تظهر عليه. **وكان النازيون في هذه المرة هم رؤساء الكونتيسة الجدد**، ذلك أن السلطات النازية كانت قد قررت إيجاد موضع قدم لها في سوريا، بهدف الانقضاض على البريطانيين. وللوصول إلى هذه الغاية، فلقد بذلوا كافة جهودهم الممكنة لجمع زعماء القبائل من أجل العمل معهم من أجل إنشاء شبكات للجاسوسية.

لم يطل أمد زواج مارغريت من الكونت لفترة طويلة، ففي صباح يوم من أيام عام 1935 فوجيء عدد من عمال الفندق عندما شاهدوا جثة رئيسهم الكونت ممدة في المدخل الرئيسي للفندق، بعد أن أثخن جسده بطعنات مدية يبلغ عددها التسعة عشرة طعنة. واتهمت مارغريت مرة جديدة بأنها هي القاتلة، ولكنها نفت ذلك الجرم بحزم، وقد صرحت أمام رجال الشرطة بقولها:

ـ ليست لدي أية فكرة عما حدث، ويمكن اعتبار ذلك اليوم من الأيام الحافلة بالمتاعب بالنسبة لي، ولذا فإنني صعدت إلى شقتي في وقت مبكر جداً.

ولقد أدلى ضابطان كانا مقيمين في الفندق باعترافات مختلفة، وكان مما قالاه:

ـ إن السيدة الكونتيسة كاذبة في أقوالها، فقد كنا جلوساً أمام البار، ورأيناها وهي تغادر الفندق بعد العشاء بقليل، كما شهدناها وهي تعود بعد منتصف الليل، وسمعناها وهي تتناقش مع الكونت. وفي اليوم التالي تم اكتشاف جثة زوجها، وبينما كنا نسير في الشارع على أقدامنا حاولت الكونتيسة أن تدهسنا بعربتها.

أما أقوال خدم الفندق من المواطنين السوريين، فكانت تتلخص بأنهم لم يلاحظوا أي شيء ولعل أقوالهم على هذه الصورة كانت نتيجة خشيتهم من الفصل عن عملهم، كما أنه من المحتمل أن تكون الكونتيسة قد تمكنت من شراء صمتهم بالمال، وعلى ذلك فقد كانت الأدلة متضاربة، وكان كل منها يدحض الآخر، ونظراً لفقدان الأدلة الدامغة، فلقد تم إخلاء سبيل الكونتيسة.

وبذا أصبحت حرة طليقة من جديد للقيام بمغامرات جديدة، ولقد عملت بعد ذلك على بيع الفندق، ثم انتقلت إلى فرنسا وأقامت في فيلا جديدة وجميلة جداً في هنداي. وتقع هذه المدينة على الحدود الفرنسية ـ الإسبانية، وقد أثبت انتقاؤها هذا بأنها ولا شك تتمتع بكفاءة نادرة لا مثيل لها في اختيار الأقاليم المضطربة، وكانت تتمتع بأوضاع جيدة عندما اندلعت نيران الحرب الأهلية الإسبانية. وفي عام 1939 حاولت بعض الصحف الباريسية التعرض إلى نشاط مارغريت المشبوه ونشره على الجمهور. وكانت عرضة للاتهامات التي نشرت ضدها بأنها تعمل لمصلحة النازية والفاشية الإسبانية والشيوعية. وقد كانت في ذلك الوقت تعمل على توجيه القوافل المستمرة التي تحمل الأسلحة والذخائر والمعدات الطبية والأموال وحتى الرجال أيضاً ممن كانوا يذهبون ويعودون باستمرار عبر جبال البيرينه، وراقب رجال الاستعلامات الفرنسية بكثير من الدهشة تلك السيارات الفخمة التي كانت تحمل اللوحات الأجنبية وهي تتوقف أمام فيلا الكونتيسة الأنيقة، وترددت الأسئلة والاستفهامات عن هذه الزيارات المشبوهة، كما تواترت التساؤلات عن أسباب توقف بعض قادة الحزب الجمهوري من الكوت باسك عند فيلا الكونتيسة أثناء مرورهم عبر الحدود الإسبانية في زيارات مشبوهة، ونشرت بعض

الصحف صراحة بأن هذه المرأة تعمل على تهريب الأسلحة إلى إسبانيا لتتلقى مقابل ذلك الذهب والمجوهرات. وقد طلب إليها ذات مرة الرد على هذا الاتهام والعمل على مهاجمة الصحف المفترية، فما كان من الكونتيسة الشقراء الجميلة إلا أن أجابت وهي تضحك: **إن الرد على الكلاب التي تنبح في السواقي دليل على الضعف وعلى قلة في الجدارة**. واحتلت القوات النازية هنداي ولم يبق هناك أي شك في تعاون الكونتيسة مع السلطات النازية حيث أصبحت الفيلا التي تمتلكها مركزاً للقيادة العامة الترفيهية للضباط الألمان الذين كانوا يتيهون بألبستهم العسكرية الملطخة بالدماء.

وكثيراً ما كان يطرق سمع الجوار صوت ضحكاتهم وصرخات البهيمة الممتزجة بالأغنيات التي كانت تنشدها الفتيات المتعاونات مع الكونتيسة والتي كانت تعمل على دعوتهن للتمتع برفقة ضباط الاحتلال.

ولكن... ومرة أخرى.. إستبقت الكونتيسة الزمن ومجريات التاريخ، فقد شعرت بأن أيام هتلر المتبقية له قد أصبحت معدودة فأوصدت أبواب الفيلا الفرنسية واجتازت البحر الأبيض المتوسط لتقيم في الجزائر. وكالمعتاد، ونظراً لعدم وجود الضمير بين جنبيها، فقد عملت على وضع ذاتها تحت تصرف منظمات الاستخبارات البريطانية والفرنسية ونجحت كالمعتاد أيضاً بتقديم المعونة الأكيدة للقوات الحليفة، كما تمكنت من جلب عدد من أنصار حكومة فيشي للعمل إلى جانب الجنرال ديغول. وعندما بدأ الإنزال في أفريقيا الشمالية تمكنت مارغريت من وضع الكثير من المعلومات السرية الهامة تحت تصرف قيادة قوات الحلفاء.

وفي عام 1945 عند نهاية الحرب العالمية الثانية عادت مارغريت د. آندريان إلى باريس حيث اختارت منزلاً لإقامتها فيها، وكانت قد بدأت تظهر على قسماتها آثار الخمسين عاماً من عمرها الحافل. واعترفت الكونتيسة ذات يوم رغماً عن إرادتها أمام عدد من أصدقائها بأن ابنها جاك الذي أصبح الآن رجلاً يعمل كمحرر في إحدى صحف نيس وقد طلب إليها أن تعمل على نشر مذكراتها لدى إحدى دور النشر الباريسية وكانت إجابتها له بقولها: يا إلهي؟ إنني لا أزال في بداية مرحلة شبابي، لذا فإن العمل على نشر مذكراتي من الآن أمر مبكر جداً، إن حياتي لا تزال في بدايتها، وعليَّ أن أعيش الآن أفضل الفصول التي سأضيفها إلى مذكراتي. عد إلى رؤيتي بعد أربعين عاماً.

كانت الأشهر التي تلت قدوم الكونتيسة إلى باريس بمثابة عطلة ابتدأتها بإعادة تجديد شباب وجهها في إحدى مؤسسات التجميل، ثم اتبعت ذلك بدورة تربية رياضية، وكانت تتردد على أفضل محلات الأزياء لتشتري أغلى الملبوسات وتقضي أوقات فراغها على طول نهر السين وهي تصرف ببذخ وسخاوة. لقد انبعثت امرأة جديدة أكثر جمالاً من السابق وأكثر أناقة، وأكثر صفاء منها في أي وقت مضى، وكان شعرها الأشقر الجميل الذي جعل منه الحلاق نموذجاً رائعاً للأناقة ليخفي تحته التجارب العريضة والمعارك الأخيرة من الحياة وكان الرجال يعاودون المرور أمامها ليزدادوا تأملاً لجمالها. أما النساء فكن ينظرن برغبة إلى أثوابها الأنيقة الفاخرة، وأما رجال الصحافة فكانوا ينتظرون بصبر في سبيل أخذ موعد مع الكونتيسة للحصول على أنباء جديدة. وأما رجال الشرطة فكانوا ينظرون إليها أيضاً بأعين ملؤها الحذر وبانتظار مرير موعد وقوع السيدة رقم واحد في مأزق جديد.

ولـم يطل أمر انتظار رجال الشرطة طويلاً إذ تـم العثور على محام لامع اسمه **بيرس د. آلينكورت** وهو ميت في شقته نتيجة لتناول السـم. وكان ذلك في يوم من أيام شهر تموز (يوليو) عام 1945، وكان كل من في المجتمع الباريسي يعرف بأنه كان من عشاق مارغريت. كما كان رجال الشرطة على اطلاع تام بانحرافات تلك المرأة الخطرة في بعض الأحيان. وعلى الرغم من القيام بتحريات دقيقة فإنهم كانوا عاجزين عن إيجاد الدليل الذي يثبت شكوكهم. فلقد كان إثبات القتل أسهل بكثير من إثبات هذه الحالة. بعد هذا الحادث بأربعة أشهر أصيب ابن أخت مارغريت واسمه **ريموند كليريس** وله من العمر ستة وعشرين عاماً، بأزمة تشنجية حادة وذلك على أثر زيارته لعمته. تمكن من بذل آخر قوة له قبل أن يموت، وكتب على بطاقة القطار التي كان يحملها عدة كلمات: إن السكاكر التي قدمتها لي ـ م ـ ذات تأثير غريب. ففي هذه المرة كان رجال شرطة باريس قد قرروا الوصول إلى نهاية الشوط في تتبع أعمال هذه السيدة فمكثوا أياماً طويلة في استجواب الكونتيسة استجواباً دقيقاً وقاسياً.

ولكن. . وفي النهاية. . كان لا بد لهم من الاعتراف بالمنطق السليم الذي كانت ترد فيه على الأسئلة التي طرحت عليها: «ولماذا أعمل على قتل هذا الغلام المسكين الذي لم يكن في حوزته شيء من النقود وموته لا يمكن أن يفيدني في شيء؟». ونتيجة لذلك فقد اضطر المحقق رغماً عن إرادته لإخلاء سبيلها من جديد، وأحنى لها رأسه عندما كان ينظر إليها وهي تغادر مبنى الشرطة رافعة الرأس متزنة الخطوات. وبعد ذلك بعام واحد عمل رجال الشرطة الباريسية بعد أن قرروا مجدداً على إعادة التحقيق في مقتل ابن أخيها ريموند كليريس. وتم اعتقالها من جديد بينما كانت تصب قدحاً من الكونياك في شقتها

الأنيقة جداً التي تقع على الشاطىء اللازوردي. وقالت لابنها جاك الذي كان برفقتها وهي تستدير للسير في أثر ضباط الشرطة المتجهين إلى الباب الخارجي: يجب ألا يزعجك هذا يا عزيزي جاك، فإنني أخشى أن يسبب لك الإزعاج آلاماً في المعدة عندئذ سيتهمني رجال الشرطة أيضاً بأنني قد وضعت لك السم. وقبعت الكونتيسة في قفص الاتهام وهي تبتسم ابتسامة عريضة لم تبتسم مثلها في أي يوم مضى، وكانت تجيب بهدوء على الأسئلة التي تطرح عليها، وتدفع بكافة الاتهامات التي قذفت بوجهها وهي تهز كتفيها ضاحكة من تلك الاتهامات، ومرة أخرى غادرت المحكمة وهي تتمتع بحريتها، ذلك لأن الأدلة التي أمكن جمعها لم تكن كافية لإثبات إدانتها.

وتعبت الكونتيسة من لعبة القطة والفأر مع الشرطة الفرنسية، **فاشترت يختاً اسمه ماجلان** وابتدأت تتمختر فيه عبر البحر الأبيض المتوسط جيئة وذهاباً، وكان هدفها الرئيسي الوصول إلى البحر الأسود للقيام بالتماس الروس الذين أعلموها أنهم بحاجة إليها، بينما استمرت الصحف على ترديد اسمها مرافقاً لتلك العمليات التي يقوم بها رجال العصابات بالإضافة لعمليات التهريب الأخرى والممنوعة، كتهريب الذهب والأحجار الثمينة.

وألقى اليخت ماجلان مراسيه ذات يوم في ميناء طنجة الهادىء، وذلك بعد ظهر يوم الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1948، وغادر الركاب اليخت إلى اليابسة بعد أن تركوا على ظهره الكونتيسة برفقتها اثنين من المدعوين كانا يحملان جوازات سفر بلجيكية، وعندما عاد القبطان والبحارة إلى اليخت كانت الكونتيسة وريناتو بونسيني وزوجته قد اختفوا إلى أن عثر على الجسد بعد ثلاثة أيام فوق رمال الشاطىء. وبذلك قدمت مارغريت د. آندريان إلى

رجال الصحافة مرة أخرى أحداث قصة مثيرة. واستناداً إلى ماضي الكونتيسة الحافل بالمغامرات فلقد حاول كل صحفي تصوير المشهد الأخير من حياتها على هواه.

ولقد قام جاك د. آندريان ابن الكونتيسة والذي لم يكن يحمل كبير عاطفة لأمه التي كان حظه منها الإهمال فكتب عدداً من القصص الطريفة إلى حد ما عن حياة والدته، ولم يتردد مطلقاً في كشف اللثام عن الأعمال التي مكنتها من ارتكاب اثنتين وعشرين جريمة قتل، دون أن تتمكن تحريات رجال الشرطة من الإمساك بها. **وكان ذلك اللقب الذي أطلق عليها أكبر دماغ إجرامي في العصر الحاضر هو من وضع ابن السيدة مارغريت.**

بعد مقتل الكونتيسة بعدد من الأيام أمكن اعتقال كل من بونسيني وزوجته في الكازابلانكا حيث نقلا بعد ذلك إلى طنجة للتحقيق معهما بتهمة قتل مضيفتهما الكونتيسة. وعندئذ أمكن اكتشاف سر جديد ذلك بأن هذين الاثنين لم يكونا زوجين، كما أنهما غير بلجيكيين، وكان اسم **الرجل هانز آبيل وهو نازي متطرف وعميل قديم من عملاء الغستابو**، وقد عمل هو وخليلته **جيرما ايلين كيلز** وبمساعدة الكونتيسة على تهريب فلذات الذهب إلى داخل فرنسا. واعترفا أخيراً بأنهما دخلا في نقاش حاد مع الكونتيسة حول نصيبهما من الأرباح، ثم أخذته حمية الغضب فجأة فقام هانز وصرع الكونتيسة بواسطة زجاجة الكونياك ثم ألقى بالجسد من فوق اليخت إلى البحر. وجرت المرحلة الأخيرة في مذكرات الكونتيسة في 17 نيسان (أبريل) عام 1949 عندما أصدرت المحكمة الفرنسية حكماً على هانز آبيل بالسجن لمدة عشرين عاماً، وعلى جيرما بالسجن لمدة عام واحد، وتنفيذاً للتقاليد المتبعة باحترام القانون الفرنسي فقد صدر الحكم أيضاً على

كل من المتهمين بدفع الغرامة للتعويض على ورثة المتوفاة، ولكن بما أنه قد تم وقوع الحادث عرضاً أي بدون تصميم سابق فقد طلب إلى كل من هانز وجيرما بدفع مبلغ فرنك فرنسي واحد عن كل منهما، وكانت هذه هي الفضيحة الأخيرة في حياة الكونتيسة.

مارغريت بولي(*)
(Margaret Poly)
(-   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات السوفياتية في سويسرا، ومن شبكة «رادو». (معروفة باسم روزا أو روزي). تعرّف عليها «رادو» في برن في 20 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1941 من خلال نشاطها في جمعيات الشبيبة في الحزب الشيوعي، مع العلم أن والدها كان معروفاً بآرائه المتقدمة ضد الفاشية والنازية. وقد قبلت مارغريت أن تناضل أيضاً من أجل القضية التي اعتبرتها مقدّسة. لذلك تركت وظيفتها كأمينة صندوق في مطعم ستيفان في برن لتتفرّغ للعمل في شبكة «رادو» التي عرفته تحت اسم «ألبير». كما تولى «جيم» تدريبها وتعليمها على بعض الدروس التي يتطلبها العمل الجديد. وقد أثبتت أنها ذكية ونشيطة في إتقان دورها والقيام بالمهمة على أكمل وجه خلال الأعوام ما بين 1941 و 1943، كما في تعلّم اللغة الفرنسية أيضاً. لكنها رغم ذلك وقعت في الفخ «الجوستابي»، وذلك من خلال صحبتها للحلاق الذي كان يعتني بشعرها في «صالون بوليت»، وكان

(*) «Les grands espions de la seconde guerre mondiale». op. p.153 - 175.

«الجواسيس الكبار في الحرب العالمية الثانية». مرجع سابق. ص153 ـ 157.

شاباً في مقتبل العمر اسمه «هانس بيترز»، من أصل ألماني، ويعيش في سويسرا منذ عام 1929، وله سبع سنوات في «صالون بوليت». ومن خلال الدعوات المتبادلة بينهما، أعلم «هانس بيترز» بالأمر صديقاً له في القنصلية الألمانية في جنيف يدعى «هيرمان هنسلر» وكلاهما كان على علاقة بجهاز الاستخبارات النازي «الجستابو». وصودف أن «رادو» زوّد روزي بكتاب شيفرة وطبع بعض صفحاته على الآلة الكاتبة، ففعلت؛ لكنها تركته مع الصفحات المطبوعة تحت مكتبها حيث اكتشفها بيترز ونقل الخبر إلى هيرمان هنسلر، ومن خلاله علمت برلين وجهاز الاستخبارات بذلك، فقررت وضع حدّ للمسألة، وأصبحت روزي (مارغريت بولي) تحت المراقبة. (وكان ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) 1943) وكذلك رادو. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1943 ألقي القبض على أعضاء الشبكة من قبل البوليس السويسري وعملاء الجستابو. كما دوهم منزل مارغريت بولي ـ بعد مداهمة منزل هانس بيترز حيث كانت معه هناك ـ فوجد البوليس كتاب الشيفرة، واعتقلت روزي بالجرم المشهود وتحولت مع زملائها إلى المحاكمة، وسجنت مع ادمون هامل وزوجته وجيم في سجن «بوامرميه» في لوزان، حيث اعترفت بسهولة عن نشاطها التجسسي لصالح المخابرات السوفياتية. ثم أطلق سراحها وعادت إلى بال في سويسرا لتعيش بقية حياتها.

مارغريت فرانسييز(*)

(Margaret Fransiaz)

(1917 -)

كانت مارغريت فرانسياز جاسوسة فرنسية. فقد عشقت ملازماً من دائرة التجسس الألمانية يتابع دروسه في جامعة غرينوبل حيث كانت هي تشتغل خائطة ثياب. ولمّا نشبت الحرب انتقل الضابط إلى جنيف، وأخذت مارغريت توافيه بأخبار عن حركات الجيوش المتحالفة وغير ذلك ممّا يهم الدائرة السرية الألمانية.

ولكن دائرة مكافحة الجاسوسية فضحت أمرها بسرعة فطاردها رجال المكتب الفرنسي الثاني. وأحس الألمان بهذه المطاردة فراقبوا نتيجتها بانتباه. واختفت الفتاة ذات يوم فجأة. وظلت دوائر الشرطة الفرنسية تفتش عنها أسابيع عديدة، فأخفقت في الاهتداء إلى مقرها... إلى أن اكتشفتها شرطة المباحث في باريس حيث كانت مستودعاً للرسائل المتبادلة بين الدائرة السرية الألمانية المركزية وأعوانها المنتشرين في غربي أوروبا. فشددت عليها الرقابة مما أدى إلى القبض على عدد كبير من الجواسيس الألمان وأعوانهم. وجاء أخيراً دورها فاعتقلت وزجت في سجن سان لازار في الغرفة المرقومة

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسيات ألمانيات». ص125 - 126.

13 التي قضت فيها ماتا هاري ومدام شتاينهيل آخر أيامهما.

تجملت الفتاة الشقية بالصبر على مصيرها. وكان سلوكها في السجن مثالياً. وحين مثلت أمام مجلس الحرب في باريس أعلنت أنها لم تكن تقدِّر خطر ما تفعل ولا أدركت حقيقة عملها إلاّ لمّا غادرت غرينوبل. أمّا بعد ذلك فقد ثبت أنها تعرف ما تفعل واعترفت بأنها نقلت رسائل إلى الألمان ولكنها رسائل تافهة على ما ظنت.

حكم عليها بالموت. وأيقظها حرس السجن في الساعة الرابعة من صباح العاشر من كانون الثاني (يناير) 1917 فذهلت وهي ترى في محبسها الضيق رجالاً صارمي النظرات متأثرين كل التأثر من المهمة الشاقة التي كلفوا أداءها. وطلبت أن تسمع القداس فأجيب طلبها. وابتهلت وصلت. وكانت من حين إلى آخر ترفع رأسها وتنظر حولها والدهشة والذهول يكادان يذهبان برشادها.

وتحدث إليها الأب غيلسبتيز بعد القداس مدة طويلة، وسألها إذا كانت تريد أن تكتب إلى أحد. وعيل صبرها في تلك اللحظة وثارت وهتفت: «كان لي شخص واحد يهتم بي هو ذلك الضابط الذي أحببته في غرينوبل، ولكنه أوصلني إلى هنا...».

هدّأ القس من روع المرأة بالنصح والإرشاد، ودعاها إلى الاستغفار والصلاة والغفران لمن أساء إليها، والتفكير في وطنها قبل أن تموت، والهتاف بحبه للمرة الأخيرة.

وكان موكبها كأمثاله من مواكب الموت. وفي ساحة الإعدام هتفت مارغريت بحياة بلادها واستغفرت ربها، ثم سقطت وقد اخترقت رأسها ست رصاصات، ولكنها ظلت متمسكة بالعمود بذراع واحدة كأنها تأبى أن تموت. وأسدل الستار على مغامرة مارغريت فرانسياز.

ماري تمبلون(*)
(Mary Temblon)
(-)

إحدى عميلات المخابرات البريطانية في أنقرة ضد الألمان في صراعها مع العميلة الألمانية فراولين دنتر المعروفة بـ «فيوليت ديبون».

كيف كان ذلك؟

كانت أنقرة ـ يوم تقرر إيفاد ماري تمبلون إليها، ميداناً من أخطر ميادين الحرب، رغم حياد تركيا.. فقد اتخذها الألمان مركزاً لشبكة الجاسوسية التي بسطوها على الشرق الأوسط، وحوض البحر الأحمر، وأسلموها إلى الداهية فون بابن يشرف على توجيهها وإحكامها..

وكانت بريطانيا تقود الحلفاء في ذلك الحين.. ولذا كانت كل من السفارتين الألمانية والبريطانية تقف للأخرى بالمرصاد، تحصي حركاتها وسكناتها في تربص ووعي..

هذا هو الميدان الذي اختيرت له ماري تمبلون.. وكان لا بد

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت 1992. ص20 ـ 26.

قبل إيفادها إليه من إعداد لإخفاء شخصيتها، فاستغلت شخصية كونتيس من الروس البيض.. وتقرر زيادة في اتقان الخدعة، أن توفد إلى البرازيل وأن تهيأ لها أسباب التجنس بالجنسية البرازيلية، لتمكينها من أن تتقمص دور أرملة رجل برازيلي واسع الثراء، رأت أن تتعزى عن نكبتها في زوجها، بالطواف حول العام..

هكذا ابتدعت شخصية الكونتيسة راجفسكي.. وهكذا تقمصتها ماري تمبلون أو S.3 كما كانت تعرف في سجلات المخابرات البريطانية.

وكان على ماري أن تطوف بعد ذلك بعدد من الدول الأوروبية، قبل أن تصل إلى أنقرة ميدان نشاطها... فما أن غادرت البرازيل حتى حطت في إسبانيا، فقضت خمسة أسابيع تنتقل بين أرجائها كأي سائحة غنية.. حتى انتهى بها الطواف إلى مدريد.

وكانت ماري تستشعر السأم، في غمرة اللهفة إلى العمل، لولا أن ساقت إليها المصادفات زميلة تسلّيها، في شخص فتاة فرنسية من نزيلات الفندق، قدمت إليها نفسها باسم «فيوليت ديبون» وروت لها أنها ابنة صاحب معمل للنبيذ في بوردو، وقد أصيبت بتضخم في الكبد، وجاءت إسبانيا للاستشفاء.

وطابت للكونتيسة صحبة الفرنسية.. ولكنها ما لبثت أن لاحظت أن الفتاة تغيب عن الفندق طول نهارها، فلا تبدو إلا في المساء، حين تشاطرها العشاء، ثم تتسامران ساعة أو بعض الساعة قبل أن تأويا إلى فراشهما..

واستبد الفضول بالكونتيسة، حتى دفعها يوماً إلى سؤال الفتاة عن سرّ تغيبها طول النهار.. فقالت الفتاة:

ـ أتعاهدينني على أن تكتمي السر؟ . .

وعاهدتها الكونتيسة وقد ازداد فضولها، فقالت الفتاة:

ـ إنني أهوى مصارع ثيران إسبانيا، ولذا أقضي النهار في رفقته . .

على أن الكونتيسة لم تنعم طويلاً بمشاطرة الفتاة سرّها . . ففي اليوم التالي، ودعتها فيوليت عائدة إلى بوردو بدعوة من أبيها . .

وتريثت الكونتيسة يومين، ثم غادرت مدريد بدورها، مستقلة الطائرة إلى أنقرة . .

وسرّها أنها بلغت أخيراً مسرح نشاطها، ولكنها لم تبدأ النشاط إلا بعد أسبوعين من وصولها، نزلت خلالها في جناح خاص بفندق كبير، واستطاعت بمظهرها المهيب، وبذخها المسرف، أن تجمع حولها حاشية من المعجبين . .

وفي اليوم الأول من الأسبوع الثالث مرت الكونتيسة بصيدلية على مقربة من الفندق، فخطر لها أن تبتاع بعض الأدوية، ولذلك بادرت إلى ولوجها . . وفتحت حقيبتها بحركة رشيقة، فتناولت منها «روشتة» دفعت بها إلى الصيدلي، فبادرها بدوره إلى إعداد حزمة صغيرة، حملتها الكونتيسة إلى الفندق . .

وفي مخدعها، فضت الحزمة فإذا بها تحتوي على زجاجتين وعلبة صغيرة . . وكانت إحدى الزجاجتين مليئة بملح ملين، فعمدت الكونتيسة إلى إفراغ ما بها على منضدة، فلم تلبث أن سقطت خلال الملح وريقة تناولتها المرأة في لهفة وفضول . .

وكانت تلك الوريقة تشتمل على التعليمات التي يجب أن تعمل

وفقاً لها.. وهي أن تعد في صباح يوم الاثنين من كل أسبوع، تقريراً لرؤسائها، تكتبه على ورق على هيئة الروشتات مستخدمة «شيفرة» من أسماء الأدوية.. ثم تدفعه إلى الصيدلي ـ وكان من أعوان المخابرات البريطانية ـ فيقدم إليها في مقابله بعض أدوية، دست فيها التعليمات اللازمة.

ومرّ يومان.. وفيما كانت الكونتيسة تهبط إلى قاعة الطعام في الفندق ذات مساء، إذا بها تفاجأ برؤية فيوليت ديبون... الفرنسية التي تعرفت بها في مدريد.. وأجفلت الفتاة، وقد فوجئت هي الأخرى بلقائها..

وسألت ماري صاحبتها عما جاء بها إلى أنقرة فأجابتها:

ـ الإستسشفاء أيضاً يا عزيزتي.. كأني بالأطباء عملاء لمكاتب السياحة، فهم لا يفتأون ينصحونني بأن أزور هذا البلد، أو ذاك..

وسارت المرأتان سيرتهما في مدريد.. فكانت فيوليت تختفي عن الأنظار طول النهار، حتى إذا هبط المساء، عادت إلى الفندق فتتناول العشاء مع صديقتها، وتتسامران معاً فترة قبل أن تأويا إلى مضجعيهما..

وعاود الفضول الكونتيسة بصدد غياب صاحبتها، فسألتها مداعبة:

ـ ما الذي يحرمنا منك طول النهار؟.. أهو مصارع الثيران.. هنا أيضاً؟

وضحكت فيوليت وأجابت في بساطة:

ـ إنني أضيق بجو الفندق، فأنطلق في أرجاء المدينة..

ـ أو لا تصحبينني مرة؟ . .

ـ أخشى ألا تروقك صحبتي، فأنا غريبة الأطوار والتصرفات. .

وبادرت تحوّل دفة الحديث بمهارة، فعاونتها الكونتيسة وقد بدأت الشكوك تساورها في أمرها.

ووجدت في التعليمات التي تلقتها في يوم الاثنين التالي، ما عزز شكوكها، وأجلى السر الذي كان يحيرها. . فقد جاء فيها: «ليست فيوليت ديبون سوى الجاسوسة الألمانية فراولين دنتر. . راقبيها في حذر ودقة. . واجعلي اتصالك بنا عن طريق عامل المصعد رقم (1) بالفندق، مستعملة الشيفرة 35». .

وكان مفاجأة للكونتيسة، إذ كانت قد عرفت وسمعت الكثير عن براعة فراولين دنتر، وخطورة أدوارها. . وسرّها أن وجدت نداً قوياً تنازله. .

وفي ذات ليلة، فاجأت الكونتيسة صاحبتها تجلس في بهو الفندق مع رجلين غريبين ليسا من النزلاء. . وما كان الأمر ليهمها كثيراً، لولا أن فراولين بادرت إلى توديع الرجلين، ثم سارعت تبحث عن الكونتيسة حتى إذا وجدتها، تأبطت ذراعها، وسارت بها إلى ركن قصيّ من البهو وهي تقول:

ـ إنهما رجلان من عملاء أبي كلفهما بأن يقدما لي بعض المال.

ولم تبد الكونتيسة اهتماماً طويلاً في تلك الليلة، إذ لم تلبث أن لمحت عامل المصعد رقم (1) يشير إليها إشارة خاصة فاعتذرت بصداع طارىء.

وفيما كانت تغادر المصعد دسّ العامل في يدها وريقة لم تفضها إلا بعد أن استوثقت من خلوتها في مخدعها، فإذا فيها: «فتّشي غرفة دنتر وأمتعتها. . وارفقي تقاريرك بالصور دائماً». .

وهبطت الكونتيسة إلى بهو الفندق في الصباح التالي، ففوجئت بوجود الغريبين ـ عميلي والد فيوليت المزعومين ـ في عين المكان الذي كانا يجلسان فيه بالأمس مع الفتاة. . ولكن هذه لم تكن معهما.

وتعمدت الكونتيسة وهي تمر بهما، أن تقف هنيهة لتضبط ساعتها تبعاً للساعة القائمة في البهو. وكانت هذه الهنيهة كافية لأن تلتقط صورة الرجلين إذ كانت الساعة تنطوي على عدسة صغيرة.

وعادت إلى مخدعها في الضحى. . وفيما هي تغادر المصعد، دسّ العامل في يدها رسالة، وهو يقول إنه سيتعمد التظاهر بإصلاح المصعد، تجاه الطابق الذي تقيم فيه، ريثما تعد له تقريرها. .

وما أن آوت الفتاة إلى مخدعها، حتى فضت الرسالة، فإذا فيها:

«ألفتي نظر السفير البريطاني ـ عن طريق الصيدلي ـ إلى أن الألمان على اتصال بساعي البريد الهندي بالسفارة، لاستمالته. . خذي حذرك، فهم قد بدأوا يرتابون في عامل المصعد. . عودي إلى الاتصال بالصيدلي».

وتذكرت الكونتيسة إذ ذاك نبأ قرأته في صحيفة صباحية، عن مصرع ساعي البريد بالسفارة البريطانية في حادث سيارة. . وكم كانت دهشة الكونتيسة ـ إذ عادت إلى ما نشرته الصحف ـ فتبينت أن أوصاف السائق صاحب السيارة الجانية، كما أدلى بها الشهود، تكاد تطابق أوصاف أحد الغريبين اللذين التقطت صورتهما في ذلك الصباح. .

وفيما هي تعد تقريرها، والفيلم الذي يحتوي على الصورة التي التقطتها، فوجئت بصرخة حادة تنبعث من الردهة.. ودسّت التقرير والفيلم في صدرها وهرعت إلى خارج الغرفة، فلمحت شخصاً يبادر بالتواري، عند نهاية الممر الطويل.. وفي لحظة خاطفة، تبينت أنه الغريب الثاني.. وأسرعت تبحث عن عامل المصعد، ولكنه كان قد استقر قتيلاً في قاع الفراغ الذي يجري فيه مصعده.

واستطاعت الكونتيسة أن تربط بين الحوادث.. وأن تدرك أن الغريبين ليسا سوى اثنين من أعوان فراولين دنتر وقد أخفق أحدهما في استمالة ساعي البريد الهندي فتخلص منه.. بينما دفع الثاني مقعد عامل المصعد فأرسله إلى حتفه، بعد أن ارتاب في أمره.

وأدركت أن الألمان قد بدأوا يرتابون في أمرها.. هي الأخرى..

وقدمت تقريرها والفيلم - في ذلك اليوم - إلى الصيدلي، الذي نصحها بدوره ألا تتصل به حتى يوفد إليها إحدى الممرضات.

وأحست الكونتيسة بأن الحلقة تضيق، فعزمت على تفتيش غرفة فراولين في الصباح التالي..

وفي الصباح التالي، طرقت الكونتيسة باب الغرفة المجاورة لغرفة فراولين، فلما استجاب ساكنها للطرقات، قالت له في رجاء:

- هل لك في أداء خدمة لي.. إنني أعاني نوبة قاسية، فهلا حملت هذه «الروشتة» إلى الصيدلي المجاور للفندق، فأحضرت لي الدواء؟.. كنت أرجو أن أذهب بنفسي، ولكني أخشى أن تصرعني النوبة في الطريق.. كما أنني لا آتمن الخدم.

وما كان لرجل مهذب، أن يتردد في تلبية رجاء سيدة مريضة. . ولاسيما وأن هذه السيدة هي الكونتيسة.

وكانت «الروشتة» تتضمن رسالة إلى الصيدلي، تسأله فيها أن يستبقي الرجل أطول أمد ممكن، وأن يوفد الممرضة إلى غرفتها فتبقى بها ريثما تفرغ من تفتيش غرفة فراولين.

وما أن انصرف الرجل، حتى تسللت الكونتيسة إلى غرفته، ونفذت منها إلى غرفة فراولين، فقد كانت تربطهما شرفة واحدة.

وأسرعت الكونتيسة، تفتش الغرفة في عجلة، تجمع كل ما تقع عليه يداها من أوراق. ثم هرعت إلى غرفتها، فألفت الممرضة التي أرسلها إليها الصيدلي في ارتقابها. . وسرعان ما دست الأوراق في حقيبة دفعت بها إليها، وأمرتها أن تعجل بتسليمها إلى الصيدلي.

وإذ انصرفت الممرضة، عادت الكونتيسة إلى غرفة فراولين تبحث عن مزيد. . وفيما هي مستغرقة في مهمتها، فتح الباب فجأة.

وجمدت الكونتيسة في مكانها. . وأحست بقلبها يكاد يكف عن الوجيب. . وفي بطء إلتفتت إلى الباب، فإذا فراولين وصاحباها الغريبان. .

ولم تظهر الكونتيسة آنا راجفسكي ـ أو ماري تمبلون، أو S.3 بعد ذلك. . فقد حملت إلى برلين، حيث دفعت حياتها ثمناً للواجب، ولكن. . بعد أن زودت الحلفاء بأهم أدلة الاتهام التي استندوا إليها في محاكمة مجرمي الحرب النازيين. . إذ كانت الأوراق التي أرسلتها إلى الصيدلي، تتألف من مذكرات ووثائق كانت فراولين دنتر قد ضمنتها أخطر جرائم النازي.

ماري كلود ماجال(*)
(Marie Claude Majal)
(1980 - 1948)

هي جاسوسة الموساد التي حاولت إغراء العالم النووي المصري الدكتور يحيى المشدّ في باريس، في فندق الميريديان قبل دقائق من مقتله في غرفته في الفندق. كيف تمّ ذلك؟ وكيف قضي على هذه الجاسوسة كشاهد عيان على عملية اغتيال العالم المشدّ؟

إن باريس... عاصمة النور والذوق والعطر والقهوة والريجيم واللوفر وسارتر وساجان والموند وديجول والباري ماتش وبيير كاردان والسوربون وبرج إيفل وبريجيت باردو وقوس النصر وكلود ليلوش وطائرة الكونكورد وإيف مونتان... هي نفسها باريس التي اغتيل فيها عالم الذرة المصري النابغة الدكتور يحيى أمين المشد..

بالتحديد...

بين الساعة السادسة والنصف والساعة السابعة والربع من مساء يوم الخميس 13 حزيران/ يونيو 1980. كانت السماء تمطر.. والناس تهرع إلى بيوتها وإلى المتاجر والمطاعم والحانات بعد يوم

(*) المرجع: عادل حموده «الموساد واغتيال المشدّ». دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الرابعة 1994. ص21 ـ 61.

عمل شاق.. جاد.. وإطارات السيارات تطرقع على أرضية الشوارع المبللة.. ورائحة بخار الماء تملأ الخياشيم وتوسعها، وتذكرها بعطر الندى الطازج... ومن خلف ستائر هذا الطقس المعتاد صيفاً، بدت الأضواء صفراء، شاحبة.. مثل أسنان ذهبية عتيقة في فك امرأة عجوز.. وراحت المدينة التي لا تهدأ تستحم.. تتطهر.. تغسل نفسها من الذنوب، حتى تتجدد رغبتها في ارتكاب المزيد منها، إذا ما أشرقت ـ بعد ساعات ـ شمس اليوم التالي.

مشاهد توحي بالعشق لا بالقتل.. بالنبيذ لا بالدم.. بالدفء لا بالغدر.

في تلك اللحظات... كنت هناك ـ يقول الكاتب عادل حمودة ـ قابعاً في حجرة فندقي الذي يطل على الحي اللاتيني... حيث نهر السين، ومتحف اللوفر، وجامعة السوربون، وكنيسة نوتردام، وسور الكتب واللوحات القديمة... وحيث الهيبز الذين استوطنوا الميدان وافترشوا الأرض، وحولوا الرصيف إلى لوكاندة، وباعوا أجسادهم مقابل سيجارة «جولواز» وأطلقوا موسيقاهم ورائحة عرقهم علينا... مجاناً.

كانت الصحف العربية المهملة على الفراش تتحدث عن إعلان حالة الطوارىء على حدود مصر الغربية.. ونسبت لمتحدث رسمي أميركي أن ذلك لا يشكل تهديداً مباشراً ضد ليبيا.. وأبرزت خبر تمويل العقيد **القذافي** للقنبلة النووية الباكستانية بمبلغ 2500 مليون دولار، بعد اتصالات سرية مع **ذو الفقار علي بوتو.**

ولم تشر الصحف إلى زيارة نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد والتخطيط المصري (الأسبق) د. **عبد الرزاق عبد المجيد** لفرنسا لتوقيع

عقد مترو الأنفاق مع نظيره الفرنسي مسيو **رينيه مونوريه**.

ولم تشر أيضاً إلى وجود د. **المشد** في باريس.

ولو كانت قد أشارت، ما كان ذلك لفت نظري... فحتى تلك الليلة لم أكن أعرفه.. ولا سمعت عنه.. ولا رأيت ـ من قبل ـ صورته.

وهذا قدر العلماء.. لا نعرفهم إلا إذا ماتوا.. ونعرفهم أكثر إذا انتحروا أو قتلوا.. ثم.. إننا نفضل العوالم لا العلماء.. هزّ «الوسط».. لا «هرش» المخ.. **بديعة مصابني**.. لا أول عالمة ذرة في مصر.. د. **سميرة موسى**.. فتاريخنا يكتب على «واحدة ونص».

أما التليفزيون فكان يعرض فيلماً فرنسياً قديماً.. تدور أحداثه في السيرك.. ويلعب دوراً بارزاً فيه جميل راتب.

وقبل أن ينتهي الفيلم كانت حياة الدكتور **المشد** قد انتهت.

جرت المشاهد الأخيرة في الغرفة رقم 9041 في فندق الميريديان.. ببوليفار جوفيون ـ سان كير.

الفندق تملكه شركة الخطوط الجوية الفرنسية **(إير فرانس)**.. مبني على طريقة الفنادق الأميركية.. حوائط جاهزة.. حادة.. ارتفاع واضح.. تصميم صارم.. مصاعد سريعة.. خاطفة.. مدخل كبير.. واسع يمتلىء بعدد يصعب حصره من مقاعد جلدية وثيرة.. لا تهدأ فيه الحركة.. لا يخفت فيه الصخب.. ولا فرق بين الليل والنهار.. بين الكافتيريا والبار.. بين النزلاء والغرباء.. بين الوجهاء والأشرار.

والفندق على هذا النحو، يختلف تماماً عن الفنادق ذات الطابع الفرنسي عند المستوى نفسه... حيث يخضع كل شيء للذوق

والأصول والهدوء.. طرز المباني.. نفوش الجدران.. ثياب العاملين.. وأسلوبهم.. وحركتهم.. والمدخل.. والمصعد.. وترتيب الأثاث في الغرف.

ويفضل الشرقيون فندق **الميريديان**.. وقد نقلوا إلى إدارته الكثير من العيوب.. مثل.. البقشيش الذي يصل إلى حد الرشوة.. والخطأ المتعمد في فواتير الحساب.. والإهمال الذي لا يختلف كثيراً عن المؤامرة.

والنزلاء هناك خليط من الأثرياء والدبلوماسيين والتجار والصحفيين ورجال الأعمال ونجوم السينما.

وكل شيء فيه مباح.. متاح.. حتى اللغة العربية.. فعندما تبرز النقود، يتنازل الفرنسيون عن غطرستهم الشهيرة.. ويتحدثون لغة الشيطان..

ويعمل بعض العرب في أماكن الفندق الحساسة.. الحجز.. خدمة الغرف.. البار.. والملهى الليلي الذي لا يخلو برنامجه من الرقص والغناء الشرقي، والاستعراض والاستبربتيز الغربي.

ويمكن طلب أطباق «حلال».. مذبوحة على الشريعة.

وفي الوقت نفسه تتساهل إدارة الفندق مع فتيات المتعة «الحرام».. وتسمح لهن بالتواجد في الممرات والكافتيريا والبار والغرف دون خوف إذا كن يعملن تحت إشرافها.. كما أن عاملة التليفون لا تتردد في خدمة النزلاء.. بإحضار عاهرات بالتليفون من شركات الرقيق الأبيض والأسود، المتخصصة في التوصيل «من الباب إلى الباب».

ولمزيد من السرية فإن الغرف مبطنة بعازل وكاتم للصوت.. أي أنها غرف مناسبة للخطيئة وللجريمة معاً.

وقد دخلت هذا الفندق أكثر من مرة.. احتسيت فيه القهوة والثرثرة مع مهاجرين عرب من كافة أرجاء الوطن الأكبر.. تحدثنا في السياسة.. والخيانة.. والنساء.. والعملة.. والعمالة.. وأسعار صرف الكلمة والرأي في بورصة الصحافة المهاجرة.

لكنني... ـ يضيف عادل حمودة ـ:

لم أهتم بجمع هذه المعلومات عن «الميريديان» إلا بعد حادث الدكتور **المشد**.

فمسرح الجريمة جزء منها.

لا يمكن فصله عنها.

ولا يمكن فهمها بدونه.

لا نعرف ما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي ينزل فيها الدكتور **المشد** في فندق الميريديان أم أنه في زيارته السابقة لباريس في كانون الأول (ديسمبر ـ 1979) أقام فيه؟.

زوجته السيدة **زنوبة (زيزي) علي الخشخاش** قالت لي: إنها **«غير متأكدة»**.. فهي لا تهتم «بمثل هذه الأمور».. ثم.. **«إن زوجي عاد من رحلته الرسمية الأولى في باريس سالماً فلم أسأله أين كان يبيت؟»**.

إدارة الفندق قالت في البداية: **إن د. المشد «زبون معتاد».. وإن كان غير «شهير»**.. أي أنه يأتي في صمت.. ويذهب في صمت.. فلم يثر وجوده الانتباه.

لكن. . . الكمبيوتر أنكر ذلك.

فقالت الإدارة:

ـ الكمبيوتر أصدق!

وحسب ذاكرة الكمبيوتر التي غذاها جواز السفر فإن المعلومات المؤكدة هي:

الاسم: **يحيى أمين المشد.**

المهنة: دكتور!.

محل الميلاد: بنها.

تاريخ الميلاد: 11/ 1/ 1932.

محل الإقامة: الإسكندرية.

الطول: 170 سنتيمتراً.

العينان: عسليتان.

الشعر: أسود.

الأقرباء المقيمون بمصر للرجوع إليهم عند الاقتضاء: **أحمد المشد** (شقيقه) ـ شركة العبوات الدوائية ـ القاهرة.

تاريخ الوصول: 7 حزيران (يونيو) 1980.

نهاية الإقامة: 13 حزيران (يونيو) 1980.. منتصف النهار.

أي قبل 6 ساعات من اغتياله تقريباً.. لكن.. طلب مدّ فترة الإقامة في الفندق 3 أيام أخرى.. حتى 16 حزيران (يونيو).

وقال مدير الاستقبال:

ـ إن لقب «**المشد**» هو الذي لفت نظره.. فقد عجز عن نطقه! كان ينطقه «**مسد**».. وأحياناً «**مصد**».

وأضاف أنه اعتقد أن **المشد** طبيب لا عالم ذرة.. فاسمه مسبوق بكلمة «دكتور».. لا «بروفيسور»!.

وبالرجوع إلى جواز السفر نجد أنه قد كتب في خانة المهنة: أستاذ بقسم الهندسة النووية بكلية الهندسة ـ جامعة الإسكندرية.

لكن.. ذلك.. كتب باللغة العربية.. ولم يترجم إلى اللغة الإنكليزية.. واكتفى موظف الجوازات بكتابة (Dr.) قبل ترجمة الاسم.

وهكذا...

التبس ـ على إدارة الفندق ـ الأمر.

لكن...

كان هناك من يعرف الكثير عن العالم المصري.. حياته.. أسرته.. أبحاثه.. مهمته في باريس.. برنامجه اليومي.. تحركاته.. وعاداته.. ومن ثم لم يكن من الصعب الإجهاز على حياته.

لم يختر د. **المشد** فندق الميريديان.. وإنما اختير له.

كان في الفندق بمفرده.. مع أنه جاء من بغداد إلى باريس برفقة مهندس عراقي شاب يعمل في مؤسسة الطاقة الذرية العراقية.. فقد نزل المهندس الشاب ـ طبقاً للوائح الوظيفية ـ في فندق أقل درجتين.. أي فندق ثلاث نجوم.

وفي تواضع.. لم يجد د. **المشد** ما يمنع الانتقال إلى فندق رفيق الرحلة.. لكن.. التعليمات هي التعليمات.. والروتين يجب احترامه مهما كان الثمن.

وهكذا . . . بقي د. **المشد** وحيداً في غابة «الميريديان».

وهكذا . . . أيضاً . . سهلت اللوائح البيروقراطية فرصة اغتياله . . وشاركت ـ بنية حسنة ـ في مؤامرة التخلص منه.

وفيما بعد . . . سئل المرافق العراقي الشاب:

س: **هل هناك سبب محدد لاختيار فندق الميريديان؟**

ج: كلا.

س: **هل كان د. المشد يفضل النزول فيه؟**

ج: لا أعتقد . . فهو رجل ليست له مطالب خاصة . . والفندق بالنسبة له مجرد مكان للنوم، وللراحة، وللطعام.

وبعد الحادث أيضاً . . .

وصفت صحيفة الموند . . ميرديان ـ باريس بأنه مثل المقاهي العربية . . أي أنه فوضى . . وملتقى لعينات مختلفة من البشر . . العالم والقواد . . المناضل والنصاب . . السفير والخفير . . البرنسات والمومسات.

وحسب ما نقلته الصحافة الفرنسية عن مصادر الشرطة . . . فإن الدكتور **المشد** كان صارماً مع نفسه . . شديد الاستقامة . . حريصاً في عمله . . يعطيه معظم وقته . . لا يعرف السهر . . لا يميل إلى المرح . . لا يدخن . . لا يشرب الخمر . . زوج مستقيم . . رب أسرة طيب . . يفضل النوم مبكراً . . متعته الكبرى . . الطعام . . وإن كان لا يتقبل المطبخ الفرنسي بسهولة . .

يوم اغتياله، عاد إلى الفندق في حوالى الساعة السادسة والثلث مساء . . كان يحمل في يده أكياساً من البلاستيك الملونة . . لو كان لنا

الحق في فتحها لوجدنا فيها فستاناً وجونلة وساعة يد ماركة جوفيال وجوارب نسائية مصنوعة من النايلون. . لا جدال أنها كانت لزوجته. . وابنته لمياء.

بدا واضحاً أن المطر سبب له بعض الإزعاج. . فقد كان يمسح رأسه ـ التي كشف الصلع أغلبها ـ بيده. . كما أنه لم ينتبه إلى ابتسامة فتاة الاستقبال عندما سلمته مفتاح الحجرة وصحيفة ورسالة من عاملة التليفون. . وهرول كعادته في اتجاه المصعد. .

لم ينتبه أيضاً. . . إلى أن هناك من سبقه إلى المصعد بمجرد أن رآه يدخل الفندق.

كان هذا الشخص امرأة. .

بدقة أكثر. . امرأة ليل.

اسمها **ماري كلود ماجال**. . عمرها 32 سنة. . ملامحها وثيابها تدل على حرفتها. . المكياج صارخ. . الوجه منهك. . الثوب محزق. . مشقوق حتى منتصف الفخذين. . الصدر مكشوف. . والصوت والحركات لامرأة علمتها مهنة اصطياد الرجال الكثير.

وهي معروفة بترددها على الفندق. . وعلى النوادي وعلب الليل المجاورة.

وتشتهر باسم «**ماري ـ اكسبريس**». . ولا نعرف سرّ التسمية. . وإن كان من السهل استنتاج التفسير. . فإما أنها اكسبريس في التقاط الزبائن. . أو في التخلص منهم.

أمام المصعد اقتربت كثيراً من الدكتور **المشد**. . وبصوت فاحت منه رائحة الإغراء. . حيّته:

ـ بنسوار. . . مسيو.

لم يرد.

كررت المحاولة.

هز رأسه بسرعة. . ثم أدارها في الاتجاه البعيد عنها. . وانشغل بمتابعة لوحات الإعلان التي تتحدث عن برنامج السهرة في النايت كلوب.

جاء المصعد. . أفسح لها الطريق. . دخل بعدها. . ركز بصره على صور فوتوغرافية ملونة. . معلقة على جدران المصعد. . أما هي فقد راحت تصلح ثيابها الداخلية في محاولة مكشوفة لاقتناصه. . وعندما فشلت. . لم يبق أمامها سوى أن تعرض نفسها عليه بصريح العبارة. .

«إنك جذاب يا سيدي».

هكذا. . . قالت.

ثم. . . أضافت:

«لا تتردد. . فلن تندم».

وأخيراً. . . وجدت نفسها تقول:

«لا تشعرني بالإهانة».

لم يفتح د. **المشد** فمه. . وإن كانت حبّات العرق قد انفجرت في رأسه، واستقر بعضها على وجهه. . . والمؤكد أنه شعر بأنه في ورطة. . أو في مصيدة. . لكنه. . بدا عاجزاً عن التصرف. . ولم ينقذه سوى وصول المصعد إلى الدور التاسع. . على أنه قبل أن

يفلت، كانت العاهرة قد سارعت بإغلاق الباب، وضغطت على زر الهبوط.

انفجر غاضباً.. خرج البخار المكتوم.. حاول إيقاف المصعد.. فشل.. هبط المصعد إلى «اللوبي».. ضغط على زر الدور التاسع.. كان حريصاً.. متحفزاً هذه المرة.. وصل المصعد.. فتح الباب.. خرج مسرعاً.. جرت خلفه.. أمسكت ثيابه.. نزع نفسه منها.. توقفت.. بدت عليها علامات الخوف والحزن معاً.

روت **ماري ـ اكسبريس** ذلك كله لرجال الشرطة، عندما حققوا معها فيما بعد.. في أول تموز (يوليو).. أي بعد أكثر من أسبوعين على الحادث!.

وفي صفحة 240 من الطبعة الإنكليزية لكتاب «القنبلة الإسلامية».. الذي نشر في الولايات المتحدة، بعد اغتيال د. **المشد** بأكثر من عام، يقول المؤلفان **ستيف وايزمن وهربرت كروسني**:

إن ماري كلود ماجال اعترفت بأنها ذهبت إلى عالم الذرة المصري في لوبي الفندق، وتبعته في المصعد، وفي طول الممر.. ولكنها ابتسمت عندما قالت للشرطة:

«إنني لم أذهب إلى غرفته».

س: لماذا؟

ج: **لأنه لم يستجب لي.**

س: ألم تكتمل المحاولة؟

ج: **كلا.. وقد دخل إلى غرفته وحده.**

س: ماذا فعلت بعد ذلك؟

ج: **انتظرت في الممر.**

س: لماذا.. وقد رفضك؟

ج: **قلت لنفسي لعله يغير رأيه.**

س: لكنه.. كانَ متشدداً في الرفض؟

ج: **مثلي.. لا يجب أن تستسلم لليأس.**

وفي التحقيقات الأولية روت **ماري كلود** قصة حياتها.. ولاحظت صحيفة «الموند» أنها أفرطت في الكلام عن نفسها دون أن يكون لذلك أي فائدة في التحقيق... فهل كان المقصود تسويد أكبر عدد ممكن من الصفحات للحفاظ على ما تبقى من ماء وجه الأمن الفرنسي؟... أم أن يد الجناة امتدت إلى رجال التحقيق؟... ثم... قبل ذلك لماذا تأخر استجوابها أكثر من 15 يوماً؟... مع أنها معروفة في الفندق.. وشوهدت فيه وهي تتحرك بحرية وثقة... ومع أن عادة الشرطة جرت على استجواب فتيات الليل وأصحاب السوابق أولاً؟.

س: هل أنت دائمة التردد على الفندق؟

ج: **نعم.**

س: هل أنت معروفة هناك؟

ج: **نعم.**

س: هل ترددت على الفندق بعد الحادث؟

ج: **نعم.**

ثم... بعد عدة صفحات:

س: كم من الوقت انتظرت في الممر بعد أن دخل الحجرة؟

ج: **لا أذكر بالضبط.. لكنها بضع دقائق.**

س: هل لفت نظرك أي شيء؟

ج: **كلا.. لكنني سمعت صوت المصعد.. فقررت النزول.**

س: هل تسرب إلى سمعك صوت مشاجرة أو جدل أو صراع، صادر من الحجرة.

ج: **كلا.**

س: هل أنت متأكدة من الإجابة؟

ج: **نعم.**

ثم... بعد عدة صفحات:

س: هل بقيت في الممر أم حاولت الاقتراب من باب الغرفة؟

ج: **اقتربت بالفعل من باب الغرفة.**

س: لماذا؟

ج: **سمعت ضجة في الغرفة.**

س: هل كان هناك شخص آخر في الغرفة؟

ج: **نعم.**

س: كيف عرفت؟

ج: **أعتقد ذلك!.**

وإزاء هذا التضارب... تقرر إعادة التحقيق معها.. من جديد.

لكن.. ذلك لم يحدث.. لأسباب سنعرفها فيما بعد.

وفي فصل بعنوان «الحرب السرية» يقول مؤلفا الكتاب السابق الإشارة إليه:

- إن رجال الشرطة لم يكونوا متأكدين تماماً مما قالته بنت الهوى، واعتقدوا بأن لديها المزيد.. وبعد أيام طلبوا منها العودة.. لكنها.. لم تتسلم أمر الاستدعاء.. ولم تعد إليهم.. فقد ذابت كفص ملح ناعم في مدينة شرسة، تخفي أظافرها في قفاز حرير صنعه ووضع توقيعه عليه.. بيير كاردان.

واستمرت التحقيقات لاسيما بعد تزايد الشكوك بشأن ماريا كلود ماجال. كما أن عبارة **NE PAS DERANGER** بالفرنسية، تعني باللغة العربية «الرجاء عدم الإزعاج».. والعبارة شهيرة، تطبع على ورق مقوّى، ويضعها زبائن الفنادق الكبرى، على أبواب الغرف عند الضرورة... أو عند الحاجة للراحة.

وقد لاحظت عاملة النظافة المختصة بالدور التاسع لفندق الميريديان أن لافتة «عدم الإزعاج» معلقة على مقبض باب غرفة الدكتور **يحيى المشد**، فلم تشأ أن تزعجه... وانصرفت وهي تدفع عربتها المستطيلة، المملوءة بالمناشف، وأكياس الشامبو، وقطع الصابون، وأدوات النظافة... على أن تعود في الوقت المناسب.

بعد ساعات عادت عاملة النظافة لتجد اللافتة مكانها.. لم تتزحزح.

كان عليها أن تفكر كثيراً فيما خطر على بالها.. لكنها.. لم تفعل.. وحسمت ترددها.. وأدارت مقبض الباب.. ودهشت عندما وجدت الباب يفتح بسهولة.. وصرخت بكل ما فيها من قوة وفزع عندما دخلت الغرفة ورأت ما رأت.. وبعد أن تمالكت نفسها،

سارعت بطلب المساعدة.. ثم.. كان من السهل أن تأتي الشرطة.. بعد ذلك.. في ثوان.. وكانت الساعة الثانية والنصف ظهراً.

كان المشهد الذي أثار فزع عاملة النظافة الشابة.. كالتالي...

جثمان الدكتور **يحيى المشد** ملقى على الفراش، وقد غُطِّي رأسه بغطاء سميك.. كان يرتدي ملابسه الكاملة.. وربطة عنق.. وحذاء.. وجورباً.. الثياب نفسها التي كان يرتديها عند دخوله الفندق.. على حد اعتراف آخر شهود العيان.. **ماري كلود ماجال**.. العاهرة.

الرأس مضروبة ضربتين بآلة حادة.. الدماء تغطي الشعر والوجه والثياب والفراش.. وبعضها كان على السجادة.. وعلى الحائط.

في الحجرة حقيبة كبيرة للثياب.. وأخرى صغيرة للأوراق، ماركة «سمسونايت» مفتوحة، وملقاة بإهمال على الأرض.. بجانب أكياس من البلاستيك، مطبوع عليها اسم متجر «لافايت» واضح أنها لم تمس.

في الحجرة أيضاً.. أوراق مبعثرة.. منها تذكرة طائرة.. صور فوتوغرافية.. قصاصات من صحف.. مذكرة باللغة الفرنسية مكتوبة على الآلة الكاتبة.. وبجانب الفراش عدد من الكتالوجات الملونة.. واضح أن أحداً لم يقترب منها.

وضعت الشرطة يدها على كل هذه الأشياء.. كأحراز.. بما في ذلك الثياب.. المخدة.. غطاء الفراش.



وفيما بعد...

بعد حوالي السنة، وضعت هذه الأحراز في حقيبة الثياب، وأرسلت إلى وزارة الخارجية المصرية، التي حولتها إلى إدارة التركات ببنك ناصر. . التي استدعت زوجته لتتسلمها. . لكن. . المدير العام للبنك **جمال الدين لبيب** استبعد كل الأشياء الملوثة بالدم، عندما وجد الزوجة على وشك الانهيار.

على أن الزوجة لاحظت أن سوار ساعة يد زوجها الذهبية، قد استبدل بآخر. . من الصلب. . فصرخت:

ـ هذه سرقة!

وكان من السهل إقناعها أن السرقة حدثت في فرنسا لا في بنك ناصر!

ولاحظ البوليس الفرنسي عند المعاينة أن النقود لم تسرق. . رغم أن من الواضح أن تفتيشاً ذاتياً قد جرى للدكتور **المشد** بعد أن قتل. . على حين. . تأكد أن مفكرته الشخصية قد سرقت.

وفي الكتب الأجنبية التي أشارت إلى الحادث أنه كان يحمل حوالى 2600 فرنك فرنسي، وجدت كما هي. . لكن. . فيما بعد. . اطلعت على الوثيقة ـ التالية التي تحدد بدقة ما كان معه من نقود:

بنك ناصر الاجتماعي

الإدارة العامة للتركات الشاغرة والعقارات

تحريراً في 13 ـ 6 ـ 1981م ـ رقم الصادر 3199 ـ 14 ـ 6

السيدة **زنوبة علي الخشخاني** ـ 11 ش. الجلاء. فيكتوريا الإسكندرية. .

بعد التحية. . .

نتشرف بالإحاطة أنه ورد حرز من وزارة الخارجية باسم المرحوم الدكتور **يحيى أمين المشد** عبارة عن:

1 ـ مبلغ 423 استرلينياً.

2 ـ مبلغ 763 دولاراً أميركياً.

3 ـ مبلغ 4100 فرنك فرنسي.

4 ـ مبلغ 7,5 دينار عراقي.

5 ـ مبلغ 2 ريال سعودي.

6 ـ مبلغ 50 شلناً نمساوياً.

7 ـ مبلغ 1,25 دينار كويتي.

8 ـ قطع عملة معدنية أجنبية.

9 ـ ساعة يد ماركة سيتيزن.

10 ـ ساعة يد ماركة جوفيال.

المدير العام

جمال الدين حامد لبيب

ويكشف لنا هذا الخطاب عن هواية كنا نجهلها للدكتور **المشد**، هي الاحتفاظ بعملات الدول التي زارها.. وهي هواية يمارسها كل من يهوى السفر.



سجل التقرير المبدئي للمعاينة.. أن القتيل عمره 48 سنة.. أسمر البشرة.. شرقي الملامح.. يزن حوالي 85 كيلوغراماً.. يميل

إلى البدانة.. متوسط الطول.. الصلع يزحف على أكثر من نصف رأسه.. ليس في جسده علامات مميزة.

وجاء في التقرير.. أن القاتل كان في الحجرة عندما دخلها القتيل.. الذي فوجىء به.. فقاومه بشدة.. وظهرت آثار المقاومة على رقبة وثياب القتيل.. الذي عولج بضربات شديدة على رأسه.. ثم كان أن كتمت أنفاسه بغطاء الفراش حتى فاضت روحه.

ولم يستبعد التقرير أن القتل كان بمعرفة أكثر من شخص.. لكن.. لا أحد جزم بذلك.

ولم يلحظ أحد أن الباب به آثار استعمال للعنف.. إلا أنه اتضح ـ فيما بعد ـ أنه فتح عنوة، بواسطة سيخ رفيع جداً من الصلب.

ولا شك في أن الجاني هو الذي وضع لافتة «عدم الإزعاج» بعد ارتكاب جريمته.. مما أخر اكتشافها.. وهذا يعني أنه قاتل محترف.. مدرب.. هادىء الأعصاب.. لا يعرف الارتباك.. يجيد التصرف عند المفاجأة.. يفكر بسرعة.. ويتصرف أسرع.

بل.. أكثر من ذلك.. ترك الجاني وراءه، متعمداً، منشفة حمام (بشكير)، لوثت بمساحيق نسائية، من باب إرباك الشرطة، وتحويل التحقيق إلى اتجاه بعيد.. وخاصة أن جرائم القتل لأسباب غرامية تأتي في المقدمة في فرنسا.. وقد التقط البوليس الفرنسي الطعم.. فكان أن بادر أحد رجاله معلقاً على ما وجد:

«علاقة رومانسية»!

ثم.. ابتسم في شماتة، مشيراً إلى أن هناك ـ على ما يبدو ـ علاقة بين منشفة الحمام والعاهرة التي طاردته حتى حجرته.. وراودته

عن نفسها بكافة وسائل الإغراء المفضوحة.. وهو بالطبع تفسير خاطىء وبعيد.

ولكن...

أين هي **ماري كلود ماجال** حتى نعرف الحقيقة؟

بعد حوالي الشهر.. بالتحديد في 12 تموز (يوليو).. ذهبت **ماري كلود ماجال** إلى بار «أولدناين» في «بوليفار سان جيرمان».. وعندما غادرت المكان، كانت ـ على حد ما جاء في كتاب «القنبلة الإسلامية» ـ إما «**في حالة سكر، أو أنها تناولت مخدراً.. لأنها كانت بالكاد قادرة على السير**».

كانت تترنح.. وتتمايل.. وتبدو غير قادرة على الرؤية بوضوح.. أو تقدير ما حولها.. ويقال إنها ارتطمت في طريقها بسيارة.. فغضب السائق.. وهو يعمل في محطة بنزين.. فدفعها بعيداً.. وألقى بها إلى عرض الطريق.

في تلك اللحظة.. جاءت سيارة (طراز رينو ـ 5) مسرعة.. فداستها.. وفي ثوان أصبحت جثة هامدة.. لا نفس فيها.

اختفت **ماري** إلى الأبد.

وانتهى شاهد العيان الوحيد.

المثير للريبة.. لا للدهشة فقط.. أن المتحدث بلسان الشرطة الفرنسية **م بيريه** استبعد أن يكون مصرع العاهرة متعمداً.. وأصرّ على أنه «**كان حادثاً عرضياً، مثل حوادث الطرق الكثيرة**».

أما أم القتيلة فأكدت على أن ابنتها ذهبت ضحية جريمة

مدبرة.. ليس مجرد حادث معتاد من حوادث السيارات.

وقالت:

1 ـ إن ابنتها لم تتعاطَ المخدرات من قبل.

2 ـ إنها لم تكن تميل إلى المشروبات الكحولية.

3 ـ إنها ـ بحكم مهنتها ـ لا توصل نفسها إلى مرحلة الثمالة.

4 ـ إنها ـ قبل مصرعها بأيام ـ تلقت مكالمات تهديد هاتفية من شخص غريب «مجهول الهوية».



استمع البوليس الفرنسي إلى 50 شاهداً في حادث الدكتور **المشد**:

العاملين في الفندق..

بعض النزلاء.

العاملين في لجنة الطاقة الذرية الفرنسية الذين التقوا به خلال فترة وجوده في باريس.

ولم يستبعد البوليس الفرنسي أن يكون القتل لأسباب سياسية، بعد أن استبعد تماماً الأسباب الجنائية.

ويدعم ذلك:

ـ أن الدكتور **المشد** كان على علم تام بتفاصيل التعاون الفرنسي ـ العراقي في مجال المفاعلات النووية التي سلمتها فرنسا للعراق.

ـ أنه كان على علاقة قوية بالمسؤولين في لجنة الذرة الفرنسية، وقد سبق أن استقبل ـ من قبل في بيته ببغداد ـ المسؤول الأول عنها.

ـ أيضاً.. كان دائم التردد ـ وهو في فرنسا ـ على المركز النووي في كادراخ وبيرلات.. وعلى المعاهد النووية في ساكلاي وفونتانا أوروز.

كذلك.. فإنه قبل اغتياله بساعات كان قد أنهى بنجاح مهمته في فحص الوقود النووي من اليورانيوم المثري بدرجة 93 بالمائة والذي يمكن استخدامه في صناعة القنبلة الذرية.. وحسب ما جاء في الكتاب السابق الإشارة إليه، فإنه كان راضياً.. «لقد جاء اليورانيوم المشبع وفقاً للمواصفات، وكانت لحظة رائعة للبرنامج النووي العراقي، فمن الممكن الآن شحن اليورانيوم المطلوب دون أي تأخير».

وقبل ذلك كله.. هناك سبب أهم ـ يأتي ذكره في كتاب عين داود **لإيريش فولات** ـ هو أن الدكتور **المشد** «من كبار علماء الذرة في العالم».. وسمعته «في هذا الميدان لا حدّ لها».

ومن ثم.. فإن وجوده في بغداد، جعل الخبراء «**يؤكدون أن بإمكان العراق أن يصنع القنبلة الذرية في عام 1984 كحدّ أقصى**».

أي أن قتله كان ضرورياً للتخلص منه كعالم يستطيع أن يصنع القنبلة.. وهذا يعني تأخير العراق وتراجع فرصة حصوله على هذا السلاح الرهيب.. الذي لا تملكه ـ في منطقة الشرق الأوسط ـ سوى إسرائيل.

وفي كتاب «الخيار النووي لإسرائيل» يقول المؤلف الصهيوني **شاي فيلدمان**:

«لقد تضرر البرنامج النووي العراقي مرة ثانية في 13 حزيران (يونيو) 1980 عندما قتل في باريس عالم ذرة مصري يدعى يحيى المشد».. و.. «نظراً لكون المشد شخصية رئيسية في البرنامج النووي العراقي وفي المفاوضات الفرنسية ـ العراقية، فقد شكل موته ضربة جدية للجهود العراقية».

ماري مادلين فوركاد(*)
(Marie Madlein Forkad)
(- 1911)

هي من أبرز جاسوسات فرنسا، حيث تسلمت أثناء الحرب العالمية الثانية، وتحديداً في عام 1941، وعمرها لم يبلغ بعد الثلاثين عاماً، قيادة «الأليانس» (الحلف)، أي شبكة الاستخبارات العسكرية الأكبر في فرنسا ضد المخابرات الألمانية النازية. فأحاطت فوركاد نفسها بثلاثة آلاف عميل ومائة مركز لبثّ المعلومات. ولقد جرى اعتقال هذه المرأة في العام 1944، لكنها سرعان ما نجحت في الفرار من زنزانتها بعد عدة ساعات من توقيفها. وبانتهاء هذه الحرب، كانت شبكة الأليانس قد فقدت 434 عميلاً، من بينهم 35 امرأة جرى توقيفهن وتعذيبهن، ثم توفّين في المنفى، لاسيما بعد أن بلغ عدد النساء العميلات حدّاً أجبر النازيين على إقامة معسكر اعتقال في رافينسبورك، بالإضافة إلى المقر الخاص بمعسكر بيركنو.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية..». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص221.

ماريا غراتسيا دونيني(*)
(Maria G. Donini)
(-)

هي ابنة الرئيس الفخري الماسوني الإيطالي ليشيو غيللي، الذي تمكن من الهرب إلى أميركا اللاتينية، وقد اعتقلها البوليس الإيطالي في مطار روما وهي تهربّ وثائق من والدها إلى أنصاره هناك بغية زعزعة الأمن والاستقرار. . .

ففي شهر كانون الثاني (يناير) عام 1981، صرح الرئيس (رونالد ريغان) إلى مجلة (الستيمانال) الإيطالية بأنه ينوي توجيه ضربة إلى تلك المراكز التي تقود الإرهاب الدولي. وهكذا ـ حتى قبل تسلمه لمنصبه كرئيس للولايات المتحدة ـ بدأ الرئيس الأميركي حملة قُرر لها أن تلعب الدور نفسه الذي لعبته حملة «حقوق الإنسان» التي قادها الرئيس (كارتر) كما يقول (ألكسندر هيغ). ومنذ الأيام الأولى التي بدأت خلالها الإدارة الأميركية الجديدة ـ إدارة ريغان ـ عملها، وجه (ألكسندر هيغ) وزير الخارجية الأميركية السابق اتهاماته ضد

(*) المرجع: «السجل الأسود». مجموعة من الكتّاب السوفيات. ترجمة هيثم علي حجازي. دار الجيل. بيروت. والأهلية للنشر والتوزيع. عمان. الطبعة الأولى 1989. ص245 ـ 255.

الاتحاد السوفياتي بالعمل على «تدريب وتمويل وتسليح الإرهابيين الدوليين».

وكانت حصة الأسد من حملة الافتراء هذه، والمعادية للاتحاد السوفياتي، موجهة إلى دول أوروبا الغربية التي كانت تعاني كثيراً من الإرهاب ولكي تشارك الولايات المتحدة في حملتها هذه. فقد زعمت الولايات المتحدة الأميركية لحلفائها بأن الاتحاد السوفياتي يلجأ إلى الإرهاب من أجل إضعاف استقرار أنظمة الحكم في دول حلف الناتو وزعزعتها. وقاد هذه الحملة الإعلامية ـ من بين مَن قادها ـ الصحافي البريطاني (روبرت موس) صاحب الخبرة الطويلة في عمليات الإعلام المضلِّل. ويكفي للمرء أن يتذكر أن هذا الصحافي كان ينتمي إلى مجموعة «دبابة التفكير» التي أنشأتها المخابرات المركزية الأميركية لزعزعة استقرار حكومة (الليندي) في (تشيلي). وانضمت الصحافية الأميركية (كلير سترلنغ) المقيمة في روما إلى زميلها البريطاني، وألّفت بسرعة مذهلة كتاباً أسمته (شبكة الإرهاب)، علّق عليه (ألكسندر هيغ) مبتهجاً وملوحاً به بين يديه: «كل شيء هنا في هذا الكتاب». لكن رجال الصحافة ـ مع ذلك ـ أصيبوا بخيبة حين وجدوا أن مقالات (موس) وكتاب (سترلنغ) لا أساس لهما من الصحة، وأن تحامل وافتراء هذين الصحافيين واضح ومكشوف، ولاسيما أن المبادىء الأساسية التي استندت عليها هذه الحملة، والتي وصفتها الولايات المتحدة بأنها هامة، كانت حقيقتها هزيلة بشكل مثير للتعجب.

ثمة شيء ما أكثر أهمية من ذلك كان واضحاً. وهو أنه جرت هناك محاولات لدعم افتراءات الكاذب المحترف (موس) وتلفيقات (سترلنغ). وتوقع الرأي العام أن تقوم المخابرات المركزية الأميركية ـ وهي مصدر المعلومات الرئيسي ـ بتقديم مساهمتها في هذه الحملة،

لكن الذي حدث فجأة هو أن هذه المخابرات رفضت ذلك. والمطالب التي تقدم بها البيت الأبيض حول أن تلك الدلائل والإثباتات الواردة من قبل (موس) و (وسترلنغ) يجب أن تضاف إلى الحملة المعادية للسوفيات قد أصابت عملاء المخابرات بالدهشة على حد قول صحيفة (نيويورك تايمز). واعترفت المخابرات الأميركية بأنه ليست هناك أية معلومات عن تورط سوفياتي في عمليات الإرهاب. وبناء على إلحاح الإدارة الأميركية، تقدمت المخابرات المركزية بثلاثة تقارير حول هذه القضية، وكانت نتيجتها دائماً «ليست هناك أدلة».

وأوردت وكالة الأسيوشيتدبرس في أواخر عام 1981 نقلاً عن لسان ناطق باسم المخابرات المركزية الأميركية، أن هذه المخابرات لن تنشر على المدى القريب أية معلومات ـ ولن تواصل كذلك البحث ـ حول قضية الإرهاب الدولي. وكان السبب الذي تذرّع به أولئك، هو أن مثل هذه المعلومات سوف تزيد من حدة النزاع، وتلفت الأنظار بشكل غير لائق إلى المخابرات المركزية الأميركية.

إن هذا التصريح يمكن اعتباره ـ على أقل تقدير ـ بمثابة اعتراف صريح: فإن إدارة المخابرات المركزية قررت اعتبار أن البحث في قضية (العقل) المخطط للإرهاب الدولي يمكن أن يقود إلى الحديث عنها، لأن الإرهاب أصبح الأداة الرئيسية للسياسة الخارجية الأميركية، بما فيها الحرب السرية التي تشنها الولايات المتحدة ضد حلفائها منذ سنين عديدة. والآن، دعونا ننظر في بعض فصول هذه الحرب.

حقيبة يد السنيورة دونيني

بعد ظهر يوم 3 تموز (يوليو) عام 1981، هبطت في مطار

(فيوميشينو ـ في روما) طائرة قادمة من مدينة (نيس) وعلى متنها عدد قليل من الركاب. وكان ضباط وموظفو الجمارك في المطار يستلقون باسترخاء تحت أشعة الشمس، حينما تقدمت منهم سيدة جميلة شقراء، وأبرزت لهم جواز سفرها الذي يحمل اسم (ماريا غراتسيا دونيني). وفجأة دبت الحياة بين ضباط المطار، فتم تفتيش أمتعة السيدة (دونيني) بدقة. وقام رجال الأمن بتمزيق أطراف حقيبة يد السيدة، ووجدوا ثمة أوراقاً مخبأة تحت ثنايا الحقيبة. تمت مصادرة الأوراق، واقتيدت السيدة (دونيني) إلى السجن.

كانت هذه الأوراق تحتوي على وثائق سرية حول البوليس الإيطالي، وأسماء عدة سياسيين معروفين متورطين بعمليات وصفقات تجارية غير مشروعة. كما وجدت هناك عدة رسائل إلى أعضاء في المحفل الماسوني الإيطالي P-2، وصورة عن إحدى الوثائق الأميركية السرية.

هكذا ألقى البوليس الإيطالي القبض على ابنة (ليشيو غيللي) الرئيس الفخري الماسوني الإيطالي P-2، والذي تمكن من الفرار إلى أميركا اللاتينية هرباً من تقديمه أمام المحكمة. وكانت مهمة (ماريا غراتسيا دونيني) في إيطاليا تقضي بأن تزود شركاء (غيللي) بالوثائق التي يمكن استخدامها لابتزاز المسؤولين الإيطاليين، وبعض المسؤولين في واشنطن، وفي مقر حلف الناتو.

لقد عمل (غيللي) طويلاً لصالح المخابرات المركزية الأميركية ولصالح الناتو، كما قام بتأسيس P-2، وهو محفل على درجة عالية من السرية في الحركة الماسونية الإيطالية، وكان يهيىء نفسه لاستلام السلطة في إيطاليا. ومن بين سلسلة المؤامرات التي أرهقت إيطاليا

وقضت مضجعها خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، كانت هذه المؤامرة التي وصلت إلى حدود التنفيذ، ولاسيما أن المتآمرين كانوا عديدين. ونورد هنا مقتطفات من المقابلة التي أجرتها مجلة (الاسبريسو) في عددها الصادر يوم 15 آذار (مارس) 1981 مع الجنرال (غيان ادليو ماليتي) رئيس الاستخبارات الإيطالية المضادة:

س: كم هو عدد الانقلابات التي دُبِّرَتْ خلال فترة عملك مع (سيد)؟ (أي المخابرات الإيطالية).

ج: على الأقل خمسة، ولكنها لم تكن جميعها على مستوى واحد من الخطورة.

س: إن أول انقلاب حاول الأمير (بورغس) القيام به كان في كانون الأول (ديسمبر) 1970. بصراحة: هل وجه هذا تهديداً خطيراً للديمقراطية في إيطاليا؟.

ج: لا. إن (بورغس) ما كان لينجح بالاستيلاء على روما. لكن سفك الدماء كان محتملاً.

س: وهل كانت مؤامرة (وردة الرياح) أكثر خطراً؟.

ج: إن المحاولة أخفقت في أن تصبح حقيقة. لكن المتآمرين استطاعوا إيجاد مشاكل خطيرة جداً.

س: كانت محاولة (إدغاردو سوغنو) هي الثالثة، فكيف تنظر إليها؟

ج: إنها أيضاً تسمى بـ (التمرد الأبيض) لأنها لم تكن تستهدف أن تتطور إلى انقلاب فعلي. إن (سوغنو) كان يحاول الحصول على تأييد لبرنامجه من أجل تغيير الدستور، وهو لم يكن ينوي استخدام القوة.

س: والمحاولتان الأخريان؟

ج: يمكن القول إنهما كانتا الأكثر خطورة. فقد وقعت الأولى عام 1974، حينما تآمر بعض ضباط الدبابات الصغار مع بعض العسكريين الكبار وكانوا على استعداد للسيطرة على روما. وكانت الخطة تقضي باعتقال الرئيس (ليوني) لإجباره على تأييد المتآمرين. وقد تم إحباطها في اللحظات الأخيرة. أما الثانية فقد حدثت بعد تلك الأولى بحوالي شهر، وكان أتباع (بورغس) متورطين فيها، وقد استطعنا تجنبها أيضاً».

خمس مؤامرات في غضون خمس سنوات... ويمكن للمرء أن يضيف إليها مؤامرات أخرى. فخلال سنوات الستين حاول الجنرال (دي لورنزو) الذي كان رئيساً لـ (سيفار ـ المخابرات الإيطالية) الاستيلاء على السلطة، وكان اسم هذه العملية (عملية سولو) وتقضي بفرض حظر على الأحزاب اليسارية، وعلى الاتحادات، واعتقال زعمائها. وبعد انكشاف هذه المؤامرة أعيد تنظيم (سيفار) وأصبحت تعرف اختصاراً باسم (سيد). لكن تغيير الاسم لم يكن يعني تغييراً في طبيعة هذه المنظمة: فقد قدمت مساعدتها إلى استخبارات الناتو من أجل التحضير لعملية (انتار كتيس) التي كانت موازية لتفاصيل عملية (بروميثيوس) التي نقلت السلطة في اليونان إلى أيدي (الكولونيلات السود). وحقيقة، فإن إيطاليا على امتداد سنوات ما بعد الحرب، كانت تعيش في ظل مؤامرة معادية لحكومة شاملة. لقد تغير المشاركون، وكذلك الجماعات التي كانت تنفذ المؤامرات، لكن الهدف الرئيسي بقي ولم يتغير، وهو ضرب القوى الديمقراطية، وجر الحركة العمالية إلى سفك الدماء، وإقامة ديكتاتورية رجعية.

إن الجنرال (ماليتي) حاول أن يقلل من الخطر الفعلي لهذه المؤامرات. وكما وجدت في حقيبة (السنيورة دونيني) أسرار، كذلك هناك شيء سري في المقابلة التي أجريت معه، ولم يكشف النقاب عنه. إن الأمير الفاشي (فالريو بورغس) قام بتسليح عصاباته بأسلحة من مستودع أسلحة وزارة الداخلية، وكان على وشك احتلال البنايات الحكومية ومحطة التلفزيون.

لقد رسم المتآمرون خطة تستهدف الإعلان أن (بورغس) هو (موسوليني) اليوم، وكذلك تحريك المتعاطفين معهم في الجيش: لواء الدبابات بقيادة الجنرال (هوغو ركسي) واللواء المدرع الثالث والموضوعات بالقرب من القواعد الأميركية. وبإشراف مباشر من الكولونيل (آموس سبيازي) تقوم الوحدات المتمردة بعزل روما عن الشمال الإيطالي.

وبعكس ما حاول (ماليتي) تأكيده خلال المقابلة، فإن «التمرد الأبيض» الذي حاول (سوغنو) القيام به ـ وهو عضو في المحفل P-2، و «مقاتل» في حركة المقاومة كما كان عميلاً للاستخبارات الأميركية ضمن حركة المقاومة ـ كان من المفروض أن يكون هذا الانقلاب سريعاً، ومفاجئاً وعنيفاً، وبلا رحمة، حسب تعبير الذين خططوا لهذه العملية. وكان هدف الانقلابيين الحقيقي تعيين الديكتاتور (راندولفو باكسياردي) وزير الدفاع السابق رئيساً للبلاد.

إن إخفاق (ماليتي) وعدم مقدرته على كشف هذه الأمور يعبر عن نفسه: فالاستخبارات الإيطالية كان لها الدور الرئيسي في قيادة كل هذه المؤامرات. و (ماليتي) والجنرال (ميسلي ـ رئيس سيد) كانا عضوين نشيطين في المحفل P-2 الذي عمل على تقديم المساعدات

لكل المؤامرات التي اكتشفت، واستبدال المتآمرين بأشخاص جدد بدلاً عنهم. وقد اطلع الرأي العام على هذه الأمور، بعد مرور أيام قليلة فقط على نشر المقابلة الصحافية مع (ماليتي) حيث اضطر إلى الهرب إلى جنوب إفريقيا تخوفاً من تقديمه إلى المحكمة ومحاكمته بتهمة الإجرام.

ومجمل هذه الأمور تفسِّر لماذا لم يستطع الجنرال (ماليتي) الإشارة إلى المخابرات المركزية الأميركية، المنظم الرئيسي لكل هذه المؤامرات. إن المخابرات المركزية الأميركية، واستخبارات الناتو ـ أدوات المجمع الصناعي الحربي الأميركي ـ تقف على رأس حرب التخريب السرية التي تشنها الولايات المتحدة الأميركية ضد حلفائها، وهي التي ترسم استراتيجية هذه الحرب.

وثيقة الجنرال وستمورلند

إن الوثيقة الأميركية السرية التي وجدت بين أوراق (ماريا غراتسيا دونيني) كانت تحمل عنوان (الدليل المبسط لعمل الاستخبارات ـ مهمات خاصة) وقد أعدت هذه الوثيقة عام 1970، وعهد بالإشراف على تنفيذها إلى الجنرال (وستمورلند) رئيس هيئة الأركان الأميركية المشتركة، وقائد القوات الأميركية السابق في فيتنام. وتمكنت الصحف الأميركية والفرنسية والإيطالية والإسبانية من نشر مقتطفات من هذه الوثيقة، لكن واشنطن كانت تسارع إلى نفي هذه الأخبار. وبكل تأكيد، فإن (غيللي) كان يعلم كل شيء عن هذه الوثيقة، وسارع هو نفسه بإرسال هذه الوثيقة إلى المجلة الأسبوعية الفاشية (بورغس) التي يشرف عليها زميله (ماريو تيديشي وهو عضو في محفل الدعاية الماسوني P-2 ورقم بطاقة العضوية 2127) بهدف

نشرها، وكان السبب في ذلك واضحاً: فإن (غيللي) وهو عميل للمخابرات المركزية الأميركية أراد أن يؤكد على أن خطط التحرك الموجودة في الوثيقة هي صحيحة، ومطابقة تماماً للدور والهدف الذي يسعى إليه المحفل الماسوني P-2.

في إحدى فقرات هذه الوثيقة نقرأ ما يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن العقيدة السياسية للإدارة الأميركية، حيث نجد أن الولايات المتحدة هي وحدها التي تقرر «أي نظام يستحق دعمها الكامل» وهذا الدعم سوف يتوقف «إذا أصبحت هذه الدولة التي تتمتع بدعم وبتأييد الولايات المتحدة ضعيفة وعاجزة في حربها ضد الشيوعية أو ضد أي «تمرد أو عصيان» تشتم منه رائحة الشيوعية سواء أكان ذلك بسبب نقص في القوة أم بسبب تقاعس إدارة هذا النظام عن التصدي لذلك. . . أو إذا تحول موقف هذا النظام ليصبح موقفاً قويماً متطرفاً يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة الأميركية أو يكون معادياً لها».

فإذا كانت الولايات المتحدة ـ باعتبارها الحكم الوحيد ـ هي التي تقرر فيما إذا خرق حلفاؤها القواعد والحدود المرسومة لهم، فإن ذلك يعني أنها سوف «تدافع» عن حقوقها لإجراء «تعديلات في طبيعة ذلك النظام» في الدول المتحالفة معها. وتتابع هذه الوثيقة الحديث فتقول: إن الاستخبارات العسكرية الأميركية «يجب أن تمتلك كافة الوسائل للقيام بعمليات خاصة من أجل إقناع الرأي العام وكذلك الدول الصديقة بحقيقة الخطر المحدق من قبل العصاة، وضرورة القيام بعمل حاسم. ومن أجل هذا الهدف، فإن على الاستخبارات العسكرية الأميركية أن تعمل على اختراق حركات العصيان والتمرد عن طريق زرع عملاء لها وفق مهمات خاصة مع العمل على تشكيل فرقة

عمليات خاصة من وسط الجماعات الأكثر راديكالية والتي تقوم بعمليات العصيان. وعندما يحين الوقت المناسب، فإن هذه المجموعات ـ التي تعمل تحت إمرة الاستخبارات العسكرية الأميركية ـ يجب أن يتم استخدامها للقيام بأعمال العنف أو غير ذلك. . . ويمكن أن يساعد ذلك في تحقيق الأهداف المشار إليها أعلاه للاستفادة من تلك الحركات اليسارية المتطرفة».

إن هذا الأسلوب الذي تتبعه الولايات المتحدة من أجل إثارة الاضطرابات والقلاقل إنما يعكس ما يمكن أن يسمى باستراتيجية التوتر والتي طالما ساعدت المتآمرين الأميركيين وشركاءهم الإيطاليين على تهيئة الأرضية من أجل إقامة نظام فاشستي. إن استراتيجيي حلف الناتو يقتدون اليوم بالنازيين. ولنتذكر عملية إحراق الرايخستاغ الاستفزازية التي قام بها الهتلريون أنفسهم لاتهام «الحمر» والتخلص من المعارضة، فيقومون بأعمال العنف والإرهاب والإعدام في حربهم التي يخوضونها ضد اليسار في أوروبا الغربية.

لقد ركزت المخابرات الأميركية اهتماماتها على إيطاليا منذ شهر نيسان (أبريل) 1967 وذلك حينما استلم الفاشيون العسكريون السلطة في اليونان. فلماذا تم اختيار إيطاليا من بين الدول الأخرى؟ مؤخراً، تم في الولايات المتحدة الإفراج عن وثيقتين لمجلس الأمن القومي الأميركي مؤرختين في 10 شباط (فبراير) و 8 آذار (مارس) 1948. وقد احتوت هاتان الوثيقتان على برنامج أساسه «استراتيجية التوتر»، وأورد منه ما يلي: «إن الهدف الرئيسي للولايات المتحدة الأميركية في إيطاليا هو تهيئة وتعزيز الظروف الملائمة لأمننا القومي. . . إن أمن شرقي البحر المتوسط والشرقين الأوسط والأدنى يمكن أن يكون عرضة للخطر فيما إذا نجح الاتحاد السوفياتي في جهوده التي يبذلها

من أجل تأمين «سيطرته» على أي واحد من البلدان التالية: إيطاليا، اليونان، تركيا، أو إيران» ودعونا نستذكر أن الرطانة البلاغية الامبريالية في كلمة «سيطرة» تعني حكومة يسارية تستلم السلطة بطريقة شرعية برلمانية.

لقد استطاعت الولايات المتحدة الأميركية عام 1947 أن تضمن استبعاد الوزراء الشيوعيين من الحكومة في كل من فرنسا وإيطاليا. لكن أولى انتخابات بعد الحرب كان مقرراً لها أن تجري في نيسان (أبريل) عام 1948 في إيطاليا، وكانت واشنطن تخشى كثيراً من فوز الشيوعيين وحلفائهم في تلك الانتخابات، فقامت بصرف ملايين الدولارات لاستمالة ورشوة السياسيين وجمهور الناخبين الإيطاليين. وكانت أسباب ذلك سياسية واستراتيجية في المفهوم العسكري حيث يقول التقرير المشار إليه أعلاه: «إن موقع إيطاليا في البحر المتوسط يتحكم بخطوط شبكة المواصلات مع الشرقين الأدنى والأوسط، ويحيط بدول البلقان. ومن القواعد الواقعة في إيطاليا يمكن للدول المسيطرة على هذه القواعد (الولايات المتحدة) أن تتحكم في حركة المرور بين جبل طارق وقناة السويس، وأن تستخدم قوة جوية ضخمة ضد أي نقطة في البلقان أو المنطقة المحيطة بها».

ومن أجل تحقيق أهدافها، فإن الولايات المتحدة الأميركية كما يقول التقرير: «على استعداد لاستخدام كل قوتها السياسية والاقتصادية والعسكرية إذا كان ذلك ضرورياً وهذا يعني أن الوعد بتقديم المساعدة الأميركية الفعالة يعني تشجيع العناصر غير الشيوعية في إيطاليا على بذل جهودهم الدائمة ـ وحتى المخاطرة بنشوب حرب أهلية ـ لتجنب الاندماج مع الشيوعيين في السلطة». وهنا يمكن للولايات المتحدة أن تقوم «بتعبئة عسكرية محدودة» إضافة إلى «تقديم المساعدة المادية

والعسكرية للإيطاليين المعارضين للشيوعية». فإذا أخفقت خطة الإطاحة بالحكومة الشرعية، تكون الولايات المتحدة الأميركية قد أعدت خطة لغزو جزيرتي (صقلية) و (سردينيا). وكانت هناك مجموعات من الخونة في هاتين الجزيرتين على استعداد لإعلان انفصالهم عن إيطاليا ورغبتهم في الانضمام إلى الولايات المتحدة. وكانت (المافيا) في (صقلية) تقود الحركة الانفصالية على أمل استخدام عملية الانفصال المقترحة من أجل الحصول على أرباح ومغانم لها من عمليات تهريب المخدرات وكافة الأعمال غير المشروعة.

وحتى اليوم، فإن المخابرات المركزية الأميركية لا زالت تشجع الاتجاهات الانفصالية ودعونا نقرأ ما كتبته مجلة (الاسبريسو) في معرض حديثها عن تقرير مجلس الأمن القومي: «بكلمات أخرى، فإن الولايات المتحدة كانت تحاول إثارة الحرب الأهلية وإقامة نظام يميني ديكتاتوري».

ماريا فون كريتشمان(*)
(Maria Von Kritchman)
(-)

إحدى أشهر مشاهير الجواسيس في التاريخ. كان البوليس السري البريطاني يجدّ في البحث عنها، وكانت قد وصلت أميركا قبل أن تدخل هذه الحرب العالمية الأولى، وذلك لتنظيم عصابة من العملاء لشلّ المصانع الأميركية وتدمير المنشآت الملاحية ونسف قناة بنما. اعتقلت مساء 16 ابريل (نيسان) من عام 1918، حيث كان رجال الأمن في الولايات المتحدة يقتفون أثر تلميذة في السادسة عشرة تحمل في يدها صحيفة في مدينة نيويورك. لم تكن الفتاة محل ريبة، ولكن لما كان أحد أبناء عمومتها يشتبه في أنه يعمل كجاسوس، فقد اتجهت النية إلى مراقبة كل أفراد الأسرة. وقبيل الغروب دخلت الفتاة إحدى الكنائس وركعت لتؤدي الصلاة. وانصرفت بعد ذلك تاركة وراءها الصحيفة التي كانت في يدها. ولاحظ رجال الأمن وجود شخص آخر يصلي وهو رجل كبير السن أنيق الملبس. لم تبد إشارة تدل على معرفة الفتاة بالرجل، ولكنه كان يحمل في يده صحيفة

(*) المرجع: صلاح نصر. الحرب الخفية. ص343 ـ 344. ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس»... الجزء الثاني عشر... ص257 ـ 258.

أيضاً، وعندما نهض وبدأ ينصرف شوهد وهو يحمل الصحيفة التي تركتها الفتاة.

واقتفى رجال الأمن أثر الرجل المسنّ الذي استقل سيارة تاكسي حتى وصل إلى بنسلفانيا، ثم استقل القطار حتى «لونج ايلاند» ودخل فندق ناسو الأنيق وجلس في البهو وأخذ يدخن في هدوء لمدة نصف ساعة. وعندما خرج العميل لاحظ رجال الأمن أنه لم يعد يحمل الصحيفة، وبعد دقائق معدودات دخلت البهو فتاة شقراء أنيقة تحمل في يدها بعض الصحف وبعض المجلات.

وبعد أن تصفحتها نهضت لتخرج والتقطت الصحيفة الغامضة. وتم القبض على الشقراء الحسناء، ووجد أن الصحيفة كانت تحوي على عشرين ألف دولار عبارة عن أجور الجواسيس والمخرّبين، أما السيدة نفسها ماريا فون كريتشمان فكانت إحدى مشاهير الجواسيس في التاريخ.

ماريا لبك(*)
(Maria Labak)
(-)

سويدية تجسست على مصر لحساب السويد وإسرائيل.

هي إحدى عميلات جهاز الاستخبارات السويدي. تحمل الجنسية السويدية، وهي من أصل هنغاري. كلفت بالتجسس على مصر لحساب الاستخبارات الإسرائيلية والسويدية نظراً للتنسيق الذي كان قائماً بين الجهازين. وحصل أن شاهدها صحافي سويدي في تموز (يوليو) 1970 في فندق كارلتون في القاهرة.

وقامت المرأة بتصوير مناطق عسكرية استراتيجية لم يكن يسمح للسائح بزيارتها، وبالطبع أرسلت المعلومات عن طريق مكتب أ. ب. السويدي إلى المخابرات الإسرائيلية.

(*) المرجع: مجلة «شؤون فلسطينية». العدد 30 شباط 1974. ص189.
ود. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس». الجزء الثاني عشر. ص12.

ماريا لورنز(*)
(Maria Lorenz)
(1935 -   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات المركزية الأميركية التي كلفت للحصول على وثائق ومعلومات وأسرار عن الرئيس الكوبي فيديل كاسترو، وتمكنت بالفعل من الحصول على الكثير من هذه الأسرار والوثائق، كما تمكنت أن تكون: **جاسوسة في فراش كاسترو.**

إذ لم تيأس المخابرات الأميركية من محاولاتها المتكررة لقلب نظام حكم الجنرال فيديل كاسترو الزعيم الشيوعي لكوبا. كذلك لم تيأس من محاولات اغتياله بالذات رغم أن الرؤساء الأميركيين قد ملّوا هذه المحاولات ووجد بعضهم أن سياسة التقارب مع كوبا أفضل من العداء لها. أما المخابرات الأميركية فقد استمرت في العداء المستمر لكاسترو بعد أن فشلت في اغتياله أو إسقاطه، لأن ديمومة بقاء كاسترو على قيد الحياة وفي زعامة كوبا تحطم سمعة المخابرات الأميركية، فبحثت هذه المخابرات عن مؤامرة جديدة بعد أن عجزت في مرات سابقة، فاعتمدت على النساء هذه المرة للوصول إلى

(*) المرجع: سعيد الجزائري «ملف الثمانينات عن حرب المخابرات». دار الجيل ودار دمشق 1989. ص36 ـ 49.

كاسترو، فوضعوا في طريقه «بشكل صدفة» الجاسوسة الألمانية (ماريا لورنز) حتى يصلوا إلى غايتهم.

وفي العاشر من شهر شباط (فبراير) 1960 دخلت الباخرة السياحية الألمانية «برلين» التي يقودها القبطان هنريخ لورنز مرفأ هافانا وهي المحطة قبل الأخيرة لرحلة سياحية يقوم بها عدد من الأثرياء الأميركيين. وفي الليلة الأولى لرسو الباخرة برلين أقام القبطان حفلة ساهرة كبرى على ظهر الباخرة تخللها البذخ والرقص. وبينما الجميع يرقصون اقترب من الباخرة زورق بخاري حتى حاذاها ثم صعد منه حوالي عشرين كوبياً ملتحين بلحى طويلة كالثوار وعلى رأسهم (فيديل كاسترو) بالذات إلى سطح الباخرة ثم توزعوا في جوانب المطعم، فظن الأميركيون السواح أنهم وقعوا في قبضة عصابة من عصابات القرصان. لكن كاسترو قطع عليهم ظنونهم وحدثهم بصوت عال حاد النبرات مطمئناً إياهم بقوله: الرجاء من الأخوة الضيوف المحافظة على الهدوء. إننا أصدقاء فكل الأميركيين أصدقائي. فقام الجميع بالتصفيق للزعيم الكوبي وتقدم منه القبطان هنريخ ودعاه إلى طاولته وعرّفه على ابنته (ماريا لورنز) البالغة من العمر حوالي خمسة وعشرين عاماً وكانت فتاة رائعة الجمال ذات سمار جذاب وبشرة بنية ولها عينين ملتهبتين. طيلة السهرة لم يرفع كاسترو نظره عنها مبتسماً لها موجهاً نظراته إليها، حيث كان يجاملها بكل احترام ووسامة رغم أنه كان يظهر بمظهر البطولة الأخاذ لاسيما وهو رئيس وزراء وحاكم كوبا، ويرتدي لباس البطولة الكاكي ويتدلّى مسدسه على جانبه. أما ماريا فإنها بادلته نظراته بنظرات مماثلة ولم تقف موقف البرود من محاولاته التقرب منها. وعندما حان موعد مغادرة كاسترو للباخرة عرض على القبطان هنريخ والد ماريا أن تبقى ابنته (هكذا وفجأة

وبجرأة) في هافانا ليعينها سكرتيرة في مجلس الوزراء للمراسلات باللغة الألمانية والإنكليزية. ولكن والدها أوضح بأدب جمّ لكاسترو أن على ماريا أن تعود إلى ألمانيا لمتابعة دراستها، وقد أعطى لكاسترو عنواناً لهم في نيويورك حيث سيتوقفون في نهاية الرحلة قبل عودتهم إلى ألمانيا.

وخرجت الباخرة بعد ذلك من هافانا ولم يصدق القبطان هنريخ أن ابنته سلمت من كاسترو حتى ابتعدوا عن المياه الدولية لكوبا. وبعد أسبوعين وصلت الباخرة إلى نيويورك ويظهر أن كاسترو كان يتتبع خط سيرها حيث حضر إلى منزلهم في نيويورك مسؤولان كوبيان من السفارة الكوبية في واشنطن وقدما لماريا بطاقة من الجنرال كاسترو بالذات يطلب منها الحضور حالاً إلى هافانا وكتب لها على البطاقة: إن حاجتي تتزايد إلى مترجمة وسكرتيرة باللغتين الإنكليزية والألمانية والأمر يتعلق بمصالح ضخمة. أرجوك أن تأتي وقد حجزت لك مكاناً في الطائرة الكوبية القادمة اليوم من نيويورك إلى هافانا. وأعطيت الطيار الأمر بعدم مغادرة مطار نيويورك إلا بعد صعودك للطائرة.

التوقيع
فيديل كاسترو

قرأت ماريا البطاقة بهدوء وأدخلت المسؤولان إلى الصالون حيث قدمت لهما القهوة بنفسها. ولنترك ماريا تحدثنا بنفسها عن هروبها من المنزل ووصولها إلى هافانا ثم انتسابها للمخابرات الأميركية أثناء وجودها في معية وخدمة كاسترو. تقول ماريا في مذكراتها:

لست أعرف أي شيطان ركبني في تلك الساعة فجعلني أتطلع

إلى المغامرة وأقبل دعوة كاسترو حالاً، لأن والدي لم يكن في المنزل. أو ربما كان الشعور للمرة الأولى في حياتي بأني شخصية مهمة يطلبني زعيم عالمي مثل كاسترو. وأقوى من ذلك ميلي العاطفي نحو كاسترو.. كنت يومئذٍ متعلقة بالمبادىء وأعرف كل شيء عن الثورة الكوبية. وبدا لي الأمر مسلياً أن أهرب من المنزل لأضع نفسي في خدمة الثورة. لذلك أسرعت بدون أيّ تفكير إلى وضع بعض الملابس في حقيبتي وخرجت مع الرجلين متوجهين إلى مطار نيويورك. وأثناء الرحلة حاولت أن أتصور كيف ستكون حياتي في هافانا؟ اعتقدت أنهم سيخصّوني بشقة أو فيللا وأنه سيكون لي مكتب فخم في قصر الحكومة الكوبية. ورحت أفكر في كافة الوسائل التي تجعل مني مفيدة للكوبيين. وما إن وصلنا إلى مطار هافانا حتى جاءت سيارة تأخذني من على سلم الطائرة، وكان الطيار بنفسه في وداعي. توجهت السيارة إلى فندق هيلتون وأصعدوني إلى الطابق «24» المسجل عليه رقم «2408» هذا الطابق يشغله كاسترو بأكمله.

أعطيت ماريا غرفة خاصة من غرف الطابق 24 حيث وضعت ما كان معها من الملابس. وفي الساعة العاشرة مساء أعلموها بالهاتف عن حضور كاسترو وكان اللقاء الحار بينهما. وكانت ليلة تشبه ليالي العرس. ولكن ماريا قالت بعد ذلك إن أية عاطفة كنت أشعر بها قبل ذلك اليوم نحو كاسترو اختفت منذ اليوم الأول للأسباب الآتية:

1 ـ معاملته الشخصية لي وكأني محظية له وليس كامرأة قطعت آلاف الأميال استجابة لطلبه وحباً به.

2 ـ شعوري بالخوف بدل الحب الذي كنت آمل أن أجده.

3 ـ معاملتي كقطعة أثاث في الشقة.

4 ـ وجود «بازوكا» معبأة تحت فراشه بصورة دائمة.

5 ـ أرض الغرفة مفروش بأعقاب السجائر.

وبقيت على هذه الحال مدة أربعة أشهر أشبه بسجينة في هذا الفندق، لأن الغرفة كانت تقفل عليّ بالمفتاح دوماً. وإذا ما حصلت في بعض الأحيان على إذن بالذهاب للمسبح أو البار كان يلاحقني رجلان من ذوي اللحى وهما مسلحان.

وتقول ماريا عن نفسها أنها تلقت تربية ألمانية. وكانت حياتها حتى لحظة حضورها إلى هافانا قائمة على النظام والنظافة: لم أكن أتصور أن رئيساً للوزراء يمكنه أن يعيش في مثل هذه الفوضى وأنه ليس لديه مكاتب ومساعدين وأجهزة هاتف تملأ طاولته. ولكنني اكتشفت أن ليس لدى كاسترو غير هذه المجموعة من الغرف في فندق هيلتون.. يعيش فيها.. ويعمل فيها.. ويناقش فيها كل المسائل السياسية مع رفاقه الملتحين حتى ساعات الصباح الأولى. وكنت أسمع ما يدور حولي ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً غير ذلك. بل كنت أقضي ساعات النهار في القراءة وتعلم اللغة الإسبانية والاستماع إلى محطات الراديو ومراقبة المدينة من نافذة الغرفة ثم التمشي جيئة وذهاباً في تلك الغرفة «كلبوة في قفص»، وأنا ألعن ذلك اليوم الذي ركبت فيه تلك الطائرة الكوبية. وكنت آمل في قرارة نفسي أن يكون والدي قد تحرك لمساعدتي. وعلمت بعد ذلك أن عدة محاولات لتحريري باءت بالفشل. وصبرت لأني الملومة شخصياً ولم يدفعني أحد لذلك حتى استهلكت خلال السنة الأولى لإقامتي مع كاسترو جميع ملابسي، فشكوت له ذات يوم بأني لم أعد أملك ما أرتديه، فأرسل لي خياطاً عسكرياً فصّل لي بزة خضراء اللون شبيهة ببزته

وبزات رفاقه وسمح لي بوضع رتبة «ملازم أول».

أعلم كاسترو ماريا أنه مضطر للغياب عدة أيام عنها. وفي اليوم التالي دخل غرفتها اثنان من رجاله وقالا أنهما يريدان مساعدتها وقاداها إلى المطار وأصعداها إلى طائرة خاصة صغيرة انطلقت بهم إلى جزيرة الصنوبر وهي على بعد عشرين دقيقة طيران من هافانا. وفي الجزيرة قاداها إلى سجن كبير وقالا إنهما يريدان أن تشاهد الزنزانة التي سبق للدكتاتور باتيستا أن سجن بها فيدل وأخوه راؤول قبل سنوات. دخلت ماريا الزنزانة ووقفت لتقرأ ما كتب على اللوحة الرخامية التذكارية التي أقيمت فسمعت صوت الباب يغلق عليها بالمفتاح وغادر الاثنان السجن بسرعة. كانت إدارة السجن تهتم بها وبنظافة زنزانتها الغالية الأثرية. ويعتقد في حينه أنها كانت السجينة الوحيدة في سجن الجزيرة بقيت ماريا مدة أسبوع في الزنزانة بجزيرة الصنوبر وكان طعامها في تلك الأيام يقتصر على الفاصولياء والرز والخبز. وفي بعض الأيام كانت تستيقظ على صوت إطلاق الرصاص الذي تطلقه فرقة الإعدام المشكلة من حرس الجزيرة على من صدرت بحقهم أحكام الإعدام من «محكمة الثورة». وفي آخر أيام أسبوع الاعتقال عاد الرجلان اللذان أوصلاها للسجن ورافقاها إلى مطار الجزيرة ثم إلى مطار هافانا، ومن الطائرة إلى السيارة إلى فندق هيلتون، حيث تركاها أمام باب المصعد وانسحبا. دخلت غرفتها من الباب الخلفي دون أن ترى كاسترو وارتمت على سريرها «سرير كاسترو». فوجدت أن هذه الغرفة والبازوكا المخبأة تحت الفراش وأعقاب السجائر التي كان كاسترو يلقيها على أرضية الغرفة أحسن ألف مرة من سجن جزيرة الصنوبر. دخلت الحمام لإزالة آثار السجن ثم استسلمت للنوم. ولم تَصْحَ من النوم إلا وكاسترو فوق رأسها.

وكان أول شيء سألته عنه ما سبب سجنها؟ ولكنه كان قد بدأ بالشرب فلم تحصل على جواب. ولكنها علمت فيما بعد أنه كان قد قام برحلة في حينه إلى أميركا الجنوبية وقد أمر بسجنها خوفاً من هربها في غيابه.

تقول ماريا في مذكراتها نظراً لتكرار رجائي لكاسترو بأن يسمح لي بالخروج فقد استجاب لي بمصاحبتي في إحدى فترات خروجه المسائية من فندق هيلتون إلى فندق ريفييرا. وبعد العشاء تركني حرة وجلس يتناقش مع مساعديه. أخذت أتجول في حديقة الفندق فاقترب مني رجل طويل القامة أنيق المظهر ذو شعر متموج يرتدي لباس سلاح الطيران الكوبي ويحمل رتبة كابتن في سلاح الطيران. وبدون أن يثير انتباه أحد همس في أذني بالإنكليزية قائلاً: مساء الخير يا سيدتي. أنا أعرف عنك كل شيء. هل أقدر أن أقدم لك خدمة؟ فارتجفت ولكني تمالكت أعصابي وتظاهرت بالهدوء التام وأجبته: أتستطيع مساعدتي فعلاً؟ هل تستطيع إخراجي من هنا؟ أجابها الرجل: سأجعلك تهربين طبعاً ولكن علينا أن نقوم بعمل معيّن قبل أن تخرجي من هنا.. أنا أعمل مع السفارة الأميركية «لم يذكر المخابرات الأميركية» وابتعد الرجل بهدوء. كان هذا أول لقاء لي مع الكومندان فرانك فيدريني «الطيار.. ورجل الثقة لدى كاسترو». وفي نفس الوقت «عميل المخابرات الأميركية». ثم بعد سنوات أحد أبطال فضيحة ووترغيت تحت اسم فرانك ستورجيس. في الأيام التالية كرر كاسترو اصطحابي معه إلى فندق ريفييرا فتمكن فرانك من محادثتي مرتين. فوصلنا إلى اتفاق فيما بيننا أن أعمل لحساب المخابرات الأميركية «طالما رغبت في ذلك» مقابل أن يؤمن لي بعد ذلك عودتي إلى ألمانيا أو الولايات

المتحدة. وأعطاني كاميرا حديثة جداً لتصوير الوثائق مع بعض الأفلام الصغيرة الحجم. وبحكم وجودي بجانب كاسترو كنت أستمع إلى كل المحادثات التي يجريها في مكتبه مع الشخصيات الهامة وأسجلها. وكنت أصور الوثائق السرية وأسجل أسماء كل الأشخاص الذين يزورونه في الغرفة الملاصقة لغرفتي. وبذلك لم يكن عملي صعباً فقد كان كاسترو يترك أوراقه متناثرة في كل مكان على الطاولة على أرض الغرفة وفي السرير وحتى في الحمام، حتى الخزانة الحديدية التي كان يضع نقوده الشخصية بها وبعض الأوراق الخاصة والسرية كانت تبقى مفتوحة ساعات طويلة من النهار. وذات مرة تعطلت الكاميرا عن التصوير وكان عليَّ أن أقابل فرانك فأخذت بعض أوراق كاسترو دون أن ينتبه هو إلى الأمر. واستمر نشاطي لصالح المخابرات الأميركية من قلب مكتب ومنزل بل وسرير كاسترو حتى شعرت بالمرض، بانحطاط الجسم. عندئذٍ طلبت من فرانك احترام دوره بالاتفاق الذي تم بيننا فوعدني خيراً. ذات يوم ذهب كاسترو بزيارة حزبية وسياسية إلى الريف فجاء رجلان يرتديان البزة الرسمية للحرس الكوبي وطلبا مني مرافقتهما، وأبرزا تصريحاً بذلك للحراس المكلفين بحراسة مقر كاسترو، وقاداني فوراً إلى مطار هافانا الذي كانت تجثم على أرضه طائرة متجهة إلى نيويورك وصعدا معي إليها بعد أن أقنعا الحراس بأن مهمتهم هي إصعادي إلى قلب الطائرة. وبعد أن تحركت الطائرة وأصبحت فوق البحر تقدم الكابتن فرانك وحيّاني بأدبه المعهود. فوجئت به مغادراً على نفس الطائرة فقال لي إن هذه الطائرة مستأجرة بنصف مليون دولار من قبل المخابرات الأميركية خصيصاً لتخليصهم ونقلهم من هافانا، وأنه اضطر للمغادرة بنفس الوقت

نظراً لتورطه معها أولاً وتهريبه بعض الضباط المنشقين عن كاسترو. بقيت في ضيافة ورعاية المخابرات الأميركية في نيويورك عدة شهور حتى استعدت صحتي وشفيت من مرضي فأرسلوني إلى ميامي لمقابلة الكابتن فرانك. فيما ظهر أنه أخطر عملية كان عليّ أن أقوم بها كجاسوسة.

كانت العلاقات بين الولايات المتحدة وكوبا قد وصلت إلى حد من السوء لا أمل معه بإصلاحها. وكانت المخابرات الأميركية تعتقد أن كاسترو يخطط لعمليات خطرة وخاطفة ضد الولايات المتحدة. خاصة بعد مغادرة فرانك وماريا لكوبا أصبح بقية العملاء يعانون من أزمة حقيقية، ولا يستطيعون التحرك أو إقامة أي علاقات مباشرة مع أي من الأشخاص المحيطين بكاسترو. وكانت لدى فرانك في ميامي تعليمات بإرسال ماريا بمهمة إلى هافانا مهما كانت الظروف لكي تحصل على وثائق هامة من مقر كاسترو وتعود لكي تنام على أكاليل الغار والنصر طول حياتها. بحثت ماريا مع الكابتن فرانك جميع الاحتمالات، وقام بتحضير جواز مزوّر وشراء ملابس السياح لها. وحين أعلن في مطار هافانا أن كاسترو سيذهب لزيارة منطقة (سبيناغا دي زاباتا) ركبت ماريا أول طائرة متجهة إلى هافانا وهي تحمل الجواز المزور ومرتدية الملابس السياحية. وكانت قد غيرت تسريحة شعرها وكذلك غيرت لون بشرتها إلى السمار بواسطة المساحيق والمراهم الخاصة من مختبرات المخابرات الأميركية، ووضعت مسدساً محشواً في حقيبتها المزدوجة القعر التي وضعت فيها أيضاً بزة تحمل رتبة ملازم أول سبق أن منحها إياها كاسترو. ولدى وصولها إلى مطار هافانا مرت بسهولة تامة من الجمارك الكوبية حتى أنهم لم يفتحوا حقيبتها فتوجهت من المطار ونزلت في فندق متواضع من

الدرجة الثالثة في مركز المدينة كان فرانك قد أعطاها عنوانه.

غيّرت ماريا ملابسها بارتدائها البزة العسكرية الكوبية وأخفت وجهها خلف نظارتين كبيرتين واتجهت فوراً إلى فندق هيلتون الذي كان كاسترو ما زال يستخدمه مكتباً له. كانت قاعدة الفندق كالعادة مزدحمة بالناس فدخلت بخطوات ثابتة وقد تحاشت البوابين الذين يعرفونها وكانت تحمل مسدسها القصير عيار 38 الذي قالت عنه بصراحة فيما بعد أنها لم تكن تنوي استعماله سوى لإطلاق رصاصة الرحمة على صدغها إذا اكتشفوها؟ ولكن الأمور سارت على ما يرام فدخلت المصعد دون أن يراها أحد لأنه مهما كانت مخابراتهم قوية، فلن يخطر على بالهم بأن جاسوسة جريئة مثل ماريا قد عادت من أميركا إلى كوبا متنكرة. صعدت ماريا إلى الطابق «24» حيث الشقة التي كانت تشغلها مع كاسترو والتي احتفظت بمفتاح طبق الأصل عن مفتاحها الكوبي. وكالعادة أثناء غياب كاسترو كان المكان خالياً من أي كان لأن مرافقيه من الملتحين والسكرتارية كانوا قد سافروا معه. دخلت ماريا الشقة وأغلقت الباب خلفها بالمفتاح وهي واثقة أنها لن تواجه أي خطر لأنها تعلم أن الأوامر الدائمة من كاسترو تقضي بألا يدخل أحد شقة كاسترو أثناء غيابه. وكالعادة أيضاً كانت الوثائق والخرائط مبعثرة أينما كان في جوانب الغرفة وكانت خزانة المال والوثائق السرية مفتوحة أيضاً فسارعت لتصوير كل ما بدا لها هاماً وما طلب منها تصويره فملأت جيوب سترة البزة الواسعة بالصور. وبعد ساعتين من العمل الشاق وهي تعيش على أعصابها وتضع دمها على كفها كما يقال نظراً لوجود احتمال 20% لعودة كاسترو «فجأة»، عادت ماريا إلى الفندق وعادت إلى طبيعتها واستقلت الطائرة حالاً إلى ميامي حيث كان فرانك بانتظارها. فأخذها في أحضانه عندما

شاهدها وسلمته الغنيمة التي أحضرتها فأرسلها للاستراحة. وبعد أيام قليلة اتصل بها هاتفياً وأعلمها أن مهمتها حققت نتائج مذهلة وهنأها على عملها باسم حكومة الولايات المتحدة والرئيس كنيدي بالذات. وسرّت ماريا بنجاح مهمتها وعلمت لدى مشاهدتها فرانك أن تلك الخرائط التي صورتها عن المقاطعات الكوبية البعيدة والتي رسمت عليها دوائر مختلفة بالحبر الأحمر وملاحظات بالغة الأهمية بلغة لم تفهمها كانت هي خرائط الخطط الأصلية للمنشآت السوفياتية للصواريخ في كوبا. وهكذا استطاعت المخابرات الأميركية أن تحدد بدقة مواقع الصواريخ نتيجة هذه المعلومات التي فجرت أزمة الصواريخ المعروفة بين كنيدي وخروشوف.

رغم كل الفوضى التي يعيشها كاسترو فقد تنبه إلى سرقة بعض الوثائق فاتجهت شكوكه فوراً إلى ماريا فكلف مدير المخابرات العسكرية الكوبية بالعمل على استعادة ماريا، إلى كوبا بالقوة ولو اضطر الأمر لقتلها. وأثناء إقامتها في شقة نيويورك استلمت برقية غامضة من هافانا تقول: اتصلي برقم الهاتف: 28607 لأمر ضروري. وهذا هو رقم هاتف كاسترو الليلي وكانت البرقية مرسلة من المدعو (يانيز) وهو ببسوس يانيز بياتييه أحد رجال كاسترو المخلصين له. وقد ركبها الفضول وحب المغامرة من جديد بدلاً من تجاهل البرقية، فخرجت عند منتصف الليل للاتصال بالعاصمة هافانا من هاتف عام ولكن ما أن خرجت من المصعد حتى أمسك بها رجلان من ذراعيها وأطبق أحدهما بكفه على فمها وحاولا جرها إلى سيارة تقف بانتظارهما عند رصيف المبنى. وكان أحد الرجلين هو «يانيز» حاولت ماريا التخلص منهما بما لديها من قوة، ولكنهما مشيا بها مسافة أمتار فما كان منها إلا أن «عضّت» كف الكوبي الذي كان يطبق

على فمها.. وصرخت بأعلى صوتها طالبة النجدة.. ففتحت نوافذ الطابق الأرضي وأطل شخصان سمعا الصراخ فأفلتت ماريا من معتقليها وهربت باتجاه شارع برودواي فلحقا بها وسمعت صوت يانيز (صديق كاسترو) يصيح بصديقه. أطلق النار. أطلق النار عليها، ولكنه لم يطلق أي طلقة. بل استمرا في ملاحقتها على أمل استعادتها وترحيلها إلى كوبا. وكانت السيارة تسير الهوينى وراءها وفي زاوية الشارع وجدت ماريا رجل شرطة فرمت بنفسها عليه ولم تكن قادرة على الكلام مطلقاً وهي تلهث من الخوف بل أشارت له إلى العميلين الكوبيين اللذين انطلقا هاربين. أعادها رجل الشرطة إلى منزلها فقامت بالاتصال بفرانك الذي حضر إليها مسرعاً فقصت عليه تعرضها للخطف من قبل عملاء كوبيين. قام فرانك بالاتصال بفرع المخابرات الأميركية بنيويورك ولكن لم يتمكن أحد من العثور على أيّ للعميلين الكوبيّين. عاشت ماريا بعد ذلك في المؤامرات التي تعد ضد كاسترو ومع المجموعات المناهضة للثورة الكوبية ولكاسترو كزعيم ورمز لهذه الثورة، أيّ على الجبهة الكوبية وفي هذا المحيط كان الحديث يتردد دوماً حول احتمال اغتيال فيديل كاسترو، والكل يتحدث عن مشاريع واقتراحات للنيل منه. وهذه لائحة بمَا أقدمت عليه المخابرات الأميركية من محاولات لاغتيال كاسترو باءت جميعها بالفشل وعلى رأسها عملية الغزو الفاشلة من خليج الخنازير مع عشرات من المنفيين الكوبيين:

1 ـ أعدت خطة تتلخص بقصف جوي عنيف للمنصّة التي كان كاسترو سيرتقيها لإلقاء خطاب من خطاباته التي تدوم ساعات طوال. وكانت ماريا ستشارك في هذه الخطة لولا أن صدرت أوامر بإلغائها قبل التنفيذ بساعات.

2 ـ قبل عملية خليج الخنازير أرسلت المخابرات الأميركية اثنين من رجالها إلى هافانا في مهمة إطلاق النار على كاسترو من بندقيتين مزودتين بمنظارين مقربين. وقام الرجلان بإرخاء لحيتيهما حتى بديا وكأنهما من ثوار كاسترو. ولكن المخابرات الكوبية كانت قد اتخذت كافة الاحتياطات لحماية كاسترو والمسؤولين الكوبيين، فلم ينجح العميلان أبداً في الاقتراب من كاسترو بما يكفي للقيام بالمهمة فألقيا البندقيتين في البحر وعادا خائبين.

3 ـ في شهر تموز (يوليو) 1960 جندت المخابرات الأميركية أحد عملائها في هافانا لتدبير حادث سيارة يودي بحياة كاسترو لقاء عشرة آلاف دولار ولكن العميل لم ينجح.

4 ـ في شهر آب (أغسطس) 1960 صدرت التعليمات لدس مادة (توكسين البلوتونيوم) السامة في صندوق سيجار النوع الفاخر الذي يفضله كاسترو على باقي أنواع السيجار وإرسال هذا الصندوق إلى أحد العملاء المقربين جداً إلى كاسترو ليقوم بإهدائه له.. ومن المعلوم أن لمسة خفيفة من هذا السيجار إلى فم المدخن والمقصود هنا «كاسترو» تكفي لهلاكه بعد سريان السمّ في جميع أنحاء جسمه. ولكن العميل المقرب «جبن» في آخر لحظة الأمر الذي انتهت معه محاولة الاغتيال إلى الفشل.

5 ـ وفي شهر آب (أغسطس) 1960 أيضاً طلبت المخابرات الأميركية من بعض أعضاء المافيا المتضررين من مصادرة نواديهم التي كانت تقدم ألعاب القمار والمخدرات والدعارة القيام بعمليات قتل إجرامية في هافانا تطال رأس كاسترو بالذات. ولكن أعضاء العصابة اقترحوا اللجوء إلى أساليب (أنظف وأهدأ) فاستجابت المخابرات

لاقتراح أسلوب القتل الأنظف والأهدأ وهو إرسال أقراص من مادة **البلوتونيوم** السامة لعصابة المافيا بغية دسها في كؤوس الشراب التي تقدم لكاسترو في أحد المطاعم التي يتردد إليها. وقد جرت محاولة واحدة حيث وضع قرص من هذه المادة في كأس كان من المفترض أن تقدم لكاسترو فشربها شخص آخر بالخطأ وفشلت هذه المحاولة أيضاً.

6 ـ في عام 1962 قام وليم هارني وهو قاتل محترف موظف في المخابرات الأميركية والذي اشتهر بقتل وشل الزعماء الأجانب عن الحركة الجسمانية، بالاجتماع في ميامي مع عضو عصابة المافيا دوسيللي وأعطاه أقراصاً مسمومة وأسلحة كيمائية تخفى في علبة كبريت لقتل كاسترو بها، وقد انتهت أيضاً هذه العملية إلى الفشل.

7 ـ في نفس عام 1962 طرحت مجموعة اغتيال كاسترو مخططاً يقضي بلغم الأصداف البحرية الموجودة في قاع المسبح الذي يمارس فيه كاسترو هوايته المفضلة هواية الغطس، ومن المعروف عن كاسترو أنه كان يقضي معظم فراغه في هذا المسبح مع شلة من أصدقائه وصديقاته، ولكن المخابرات تخلت عن هذه الفكرة لاستحالة وصول العملاء إلى المسبح المذكور.

8 ـ في عام 1963 قامت المعامل الكيماوية الخاصة بالمخابرات الأميركية بصنع نوع خاص من «بدلات الغطس» ورشها بالفطريات التي تصيب الإنسان بأمراض جلدية خطرة. كما جرى تلويث أنبوب التنفس العائد للبدلة «بجراثيم السل» ووضعت خطة تقضي بأن يقوم المحامي الأميركي المتطرف جيمس دونافان ـ وبدون أن يعلم بأنها بدلة غطس موبوءة ـ بإهدائها لكاسترو، لأن كاسترو كان

يحب دونافان آنذاك وقد اختارته المخابرات الأميركية والحكومة الأميركية ليقوم بمفاوضة كاسترو من أجل إطلاق سراح السجناء الكوبيين الذين اشتركوا في عملية خليج الخنازير. وأيضاً تخلت المخابرات الأميركية عن هذه العملية حفاظاً على حياة العملاء الموجودين في الأسر الكوبي آنذاك.

9 ـ في 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1963 (وهو تاريخ اغتيال الرئيس كنيدي من قبل المخابرات الأميركية نفسها والمافيا وتجار الأسلحة) اجتمع دسمون فيتزجيرالد ـ وهو من كبار المسؤولين في المخابرات الأميركية ـ مع أحد العملاء الكوبيين وأعطاه قلم حبر مسموماً ليقوم بدوره بإهدائه إلى كاسترو وعلى اعتبار أن ذلك العميل كان على صلة مستمرة مع الزعيم الكوبي ومحظياً عنده. ولدى اغتيال كنيدي في ذلك اليوم جعل الإثنان يهرعان من الاجتماع جزعين حيث ألغيت هذه الخطة أيضاً.

10 ـ في مطلع عام 1965 جرى تزويد بعض العملاء الكوبيين بأسلحة قتل خفيفة من بينها تزويد عميل كان كاسترو يثق به ويحبه بمسدس كاتم للصوت لأغراض استعماله ضد من يثق به ويحبه (كاسترو)، ومع ذلك لم يتمكن من حمل هذا المسدس لحظة واحدة.

11 ـ قامت المخابرات الأميركية أيضاً بمحاولات لرش غرفة الأستوديو في الإذاعة الكوبية بمسحوق (ل ـ س ـ د) المخدر. وكان من المفترض أن يذيع كاسترو خطابه من ذلك الأستوديو (من المعروف أن هذا المسحوق يصيب الإنسان بالهذيان والهلوسة والجنون). ولكنها لم تتمكن من اختراق الوسائل الأمنية في دار الإذاعة الكوبية التي تقوم المخابرات الكوبية بحمايتها.

أطرف محاولة اغتيال لكاسترو

إن أطرف المحاولات التي دبرتها المخابرات الأميركية للتخلص من الزعيم الكوبي هي المحاولة التي ترمي إعلامياً إلى إيهام سكان العالم بأن السيد المسيح قد ظهر وأنه هبط من السماء إلى الأرض، وهو منزعج بسبب الخطايا أو الأخطاء التي ارتكبها الزعيم الكوبي كاسترو. وكانت الخطة (المخابراتية) تقضي بأن يوعز بأن تقرع أجراس الكنائس في جميع أنحاء أميركا والدول الدائرة في فلكها إيذاناً بنزول السيد المسيح إلى الأرض ثم تطفو بعض الغواصات الأميركية في أماكن نائية من البحار والمحيطات الممكن وجودها فيها إلى سطح الماء تطلق مقذوفات مضيئة على شكل نجوم لجعل سكان العالم يصدقون بأن السيد المسيح قد ظهر فعلاً. والأهم من ذلك أن المخططين لهذه المحاولة من خبراء المخابرات الأميركية قد اختاروا أحد ضباطها ليقوم بتمثيل دور «المسيح» نفسه. ولكن لدى عرض هذه الخطة بكامل جوانبها على البيت الأبيض لم تَجْرِ الموافقة عليها لأسباب دينية. وهكذا نصل إلى الرقم (13) في محاولات المخابرات المركزية الأميركية لاغتيال كاسترو والتي نجا منها جميعاً!.

13 ـ تمكنت المخابرات الأميركية من شراء طائرة مروحية هليكوبتر مع طيارها العميل وأوعزت إليه بالقيام بعملية جنونية في سماء هافانا. فقام العميل ومساعد له وقاد الطائرة باتجاه فندق هيلتون الذي يقيم كاسترو في الطابق (24) منه. وبعد قيامه بعدة دورات بعيدة لمراقبة شقة كاسترو مراقبة دقيقة حتى تأكد أن بإمكانه الهجوم اقترب من هدفه كثيراً وأطلق قذيفة بازوكا على شقة كاسترو في الطابق الخاص فأخطأتها. ولكن نفس الهليكوبتر أسقطت بعد دقائق.

هذا القدر الذي علمته ماريا عن محاولات اغتيال كاسترو. ولكن يوجد الكثير من المؤامرات لم يكشف عنها النقاب حتى كتابة هذه السطور. وقبل أن تترك ماريا لورنز خدمة المخابرات الأميركية كانت قد ذهبت إلى سواحل كوبا ثلاث مرات أخرى في الزوارق التي كانت تنقل الأموال والسلاح إلى المناهضين لكاسترو. وقد أوضحت ماريا علاقتها بالمخابرات الأميركية فقالت أنها كانت متأثرة من أعمال هذه المخابرات من الكتب العديدة التي قرأتها عنها وهي تركب البحر في العطلات الرسمية مع أبوها حتى واتتها فرصة مقابلة كاسترو، ومن ثم مقابلة فرانك في هافانا حيث زيّن لها العمل في المخابرات الأميركية في مرحلة خطرة جداً لأنها كانت تقيم مع كاسترو بالذات بل وتقاسمه الفراش. وبذلك تكون ماريا قد قدمت خدمة تطويعية آنية للمخابرات الأميركية. ولم تكن موظفة رسمية بالمعنى الصحيح للكلمة أي أن اسمها لم يكن يرد على جداول الرواتب الاتحادية. وكان كثيرون مثلها يقوم بمثل هذه الأعمال كهواية، والبعض الآخر كانوا يعتبرون العمل لصالح المخابرات الأميركية خدمة وطنية. أما المصاريف لتغطية هذه الأعمال فلم تكن تنقصهم أبداً. وعندما كانت ماريا أو غيرها من العملاء على الجبهة الكوبية يحتاجون إلى المال فكانت تقصد منزل شخص يدعى ادوارد وتقبض منه مئات الدولارات على مبدأ اطلب تُعطى. وأخيراً نجحت ماريا في الحصول من فرانك فيوريني على تصريح بموافقته على تركها العمل مع المخابرات الأميركية حسب الاتفاق الأول بينهما في هافانا والذي يقضي بعملها معهم ما طاب لها ذلك. فتم إكرامها بعد ذلك وتزوجت من أحد زملائها ومنحت منزلاً في إحدى الولايات الأميركية وأنجبت لزوجها عدداً من الصبيان والبنات.

والجدير بالذكر أن كل الرؤساء الأميركيين الذين وصلوا البيت الأبيض أثناء حكم كاسترو كانوا قد وضعوا الخطط للتخلص منه، لكنهم فشلوا جميعهم وبقي كاسترو. ولا ندري كم بلغ عدد هذه الخطط التي رسمت لاغتياله دون جدوى.

ماريا هولشتاين(*)

(Maria Holchtein)

(1938 - 1909)

هي إحدى أبرز جاسوسات الألمان في براغ. وقد وجدت مقتولة في أحد فنادق براغ برصاصة في عينها اليسرى ودماغها. فمن هي هذه الجاسوسة؟

ماريا هولشتاين من النساء اللواتي يصعب عليك أن تمر بهن دون أن تلتفت إليهن وتتأملهن وتعجب بهن. كانت فتاة سمراء ممتلئة الشفتين تغريك بالقبل، عيناها لماعتان نديتان كأنهما غارقتان أبداً في التفكير والتأسي والحنين، أنيقة في كبر لا كلفة فيه ولا تصنّع، ذكية، ما عرفها أحد إلاّ وأعجب بحضور ذهنها ورفعة ثقافتها، حتى لتطغى هذه على جمالها الآخاذ. عرفتها في باريس حوالي العام 1933 في جمع علمي فأعجبت بها، وبدت لي في الرابعة والعشرين أو تزيد قليلاً. كانت تتابع دروسها في جامعة السوربون وتدعي أنها نمساوية. ولكن ثبت أن أصلها من فرانكنبرغ في الساكس بألمانيا. وما أخذ عليها أحد من معارفها خداعها فيما يتصل بأصلها - كما يقول جان بردان -.

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ص154 - 160.

كانت أشبه بالنساء منها بالفتيات. واشتهرت برصانتها في كل ظرف وكل جمع. واستطاب الطلاب جميعاً صحبتها وأعجبوا باجتهادها وأبعدتهم رصانتها عن التزاحم والتنافس في خطب ودّها.

أقامت في باريس مدة، ثم سافرت إلى سويسرا حيث قضت بضعة أسابيع، ومنها انتقلت إلى بروكسل وتابعت تجارب مؤسسة «سولفاي» الشهيرة. وبقيت أخبارها سنتين منقطعة عمن عرفوها وعاشروها إلى أن عادت في أوائل العام 1937 إلى الحي اللاتيني بجمالها وحكمتها وأنسها المعهود.

والتقت ماريا ذات يوم من أيام ربيع تلك السنة أحد أصدقائها للمرة الأولى بعد عودتها، فخرجت على تحفظها الذي اشتهرت به وأعلنت له بمرارة وبلهجة من يثور على الدنيا والبشر جميعاً أن الحياة ما بقيت تطاق. ومنذ ذلك اليوم اختفت، إلاّ لماماً، من المجتمعات الثقافية والأدبية التي اعتدنا أن نراها فيها. ولمّا حانت الفرصة المدرسية ودّعت من صادقتهم، وأخبرتهم والغصة تخنقها أنها قد لا تعود أبداً لأن عائلتها تطالب بعودتها.

وودعناها في المحطة والأسف باد علينا جميعاً. ولا غرو فقد كنا نخبة من أصدق أصدقائها وأقرب عشرائها. ولمّا همّت بالصعود إلى القطار عانقت زوجة أحد الأصدقاء، فأشرقت بدموعها وهي تدمدم: «آه لو تعلمين!..».

شعرنا بأنها تود من صميمها أن تسرّ إلينا بشجونها وتفرّج عن صدرها غماً كاد يخنقها. ولكنها أمسكت عما كنا ننتظر أن نسمعه، ونظرت إلينا نظرة فريسة تطاردها الأحزان والهموم وتبغي بها شراً... ثم مضت وقد خطفها القطار منا خطفاً.

وكان يومئذ آخر عهدي بماريا هولشتاين. وما عرفت قصتها إلاّ بعد حين. فقد اتفق أن جمعنا ناد بضابط تشيكي التجأ إلى بولونيا هرباً من بلاده التي احتلها الألمان، ورحنا نتحدث عن مونبارناس والحي اللاتيني وغرائب ما يجري فيهما فسألني التشيكي: ألم تلق هناك امرأة جميلة مدهشة في أناقتها وعلمها وأدبها؟.

قلت: وكيف لا أعرفها وقد كانت زينة الحي ومطمح الأنظار. وأذكر جيداً أنها تركت باريس فجأة ولأسباب ما زلت أجهلها ويجهلها أصدقاؤها الكثيرون الذين خلفتهم هناك. وانقطعت عنا أخبارها منذ ذلك اليوم.

ـ إليك عنها إذاً الخبر اليقين: تنتمي ماريا هولشتاين إلى عائلة رفيعة المقام، ربها موظف مرموق. نجحت في حياتها المدرسية نجاحاً باهراً. ثم دخلت الكلية فأثارت اهتمام المعلمين والطلاب معاً، وأعجب بها الجميع لمزاياها وصفاتها وجدها وجمالها. وكان أكثرهم إعجاباً طبيب ماهر طلبها للزواج فرضيت به بعلاً لها.

ـ ماذا تقول؟ أمتزوجة هي؟

ـ أجل. وقد كان هذا الزواج أصل بلواها وسبب الكارثة التي حلت بها.

«كان الطبيب غنياً وكانت ماريا في بسطة من العيش، فجمعا ثروتيهما فأصبح في أيديهما ذخيرة لا يستهان بها أودعا منها خمسمائة ألف فرنك سويسري مصرفاً في مدينة برن.

«كان الزوجان مثال الوفاق والانسجام. فهو شاب وهي صبية. وهي جميلة وهو جميل. وثقافتها تضاهي ثقافته وإن اختلف خلقهما العلمي. فأكملها وأكملته.

«وكأن القدر حسد الزوجين على سعادتهما ووفاقهما، فكانت النازية وكان بدء شقائهما. وما استطاب الرجل المبادىء الاشتراكية الوطنية ولا رضي بأساليبها وتسلطها على الناس بالجبر والإكراه. ولكنه ظن كما ظن كثيرون من الألمان حين وصل هتلر إلى الحكم أن تلك الفورة لن تدوم طويلاً. فأرسل ماريا إلى فرنسا. وكانت هي تطمع منذ زمن بعيد بأن تتابع بعض الدروس الخاصة في باريس وتغشى الأندية الأدبية والثقافية وتحيا، ولو فترة وجيزة، الحياة التي مالت إليها منذ الصغر، حياة الأدب والفن والانطلاق. فلما تحقق ما طالما صبت إليه غادرت الرايش وهو في إبان تطوره.

«وأصاب الطبيب ما أصاب سواه من كبار المعارضين للنظام الهتلري. وزاد في نقمة الحكام عليه سفر زوجته، فوضعت أملاكه تحت الحراسة وعزل من منصبه، وكان معلم طب. على أنه ظل ينتظر الفرج، وصبر على الاضطهاد، وأبى أن يصدق أن الحالة ستدوم، وأن بلاده قضي عليها بأن ترجع القهقرى إلى عهود الظلم والاضطهاد، على يد الفوهرر وجماعته. وكانت رسائله إلى ماريا هولشتاين طافحة بالأمل والتفاؤل.

«وتصرمت الشهور. وشعرت ماريا بالوحشة بعد طول الفراق. وهمت بالعودة فاعترضها زوجها وصبّرها. وكان مالها قد نفد فأرسل إلى المصرف السويسري إجازة بدفع قسم من ثروتهما إلى زوجته، فجاءه الرد بأن ماريا هولشتاين نقلت مالها وأرسل المصرف جزءاً منه إلى مصرف باريسي لحسابها.

«وكانت الطامة الكبرى... وقعت رسالة المصرف في يد النازيين، فاستدعي الطبيب إلى الغستابو وأوقف بتهمة تهريب أموال

ألمانية. ونكل به وصودرت أملاكه المحروسة. ثم زجّ به في معسكر الاعتقال. ولم يكتف النازيون بهذا. فقد أوحت لهم قرائحهم الجهنمية أبشع أنواع الاستغلال بعد أن عرفوا أن زوجة الطبيب تتابع دروسها في باريس متنكرة باسم عائلتها، فأوفدوا إليها رسولاً يحمل صوراً لزوجها وهو يعاني أفظع صنوف العذاب والتنكيل. واهتدى الرسول إليها. وبعد تمهيد بسيط قال لها: «يشق عليّ أن أبلغك أنك وزوجك فقدتما ثروتكما وأنها لن تعاد إليكما أبداً. وقد ثبت لنا بعد البحث أنك تحبين زوجك. فاعلمي إذاً أنه مقضي عليه بالموت البطيء في معتقلات التأديب. ولكن نجاته في يدك...».

ـ إذا أنقذته أعطيتك كل ما بقي لي من مال ومتاع.

«فقهقه الرسول بسخرية وقال: «ليس المال مرادنا يا حسنائي. إننا نريدك أنت».

«لم تفهم الصبية مقصده فأجابته: «إذا أطلقتم سراحه استسلمت لكم في الحال. وحبذا لو حبستموني مكانه، فالإنسانية بحاجة إليه».

وابتسم الألماني ابتسامة صفراء وقال:

ـ ليس هذا ما نريد. إنك ذكية عالمة بأمور الدنيا، وفي يدك شهادات رفيعة، ولك علاقة بكثيرين. إنك تقيمين في فرنسا أو بلجيكا منذ تسلم هتلر دفة القيادة ويعتبرك الناس هنا ألمانية كافرة بالمبادىء الوطنية الاشتراكية. وعلى هذا تستطيعين أن تخدمينا بسهولة ودون أن يشتبه بأمرك أحد. وسنرسلك إلى بلاد تتمكنين فيها من أن تسدي إلينا خدمات كبيرة الفائدة.

ـ أتريدونني جاسوسة؟

ـ كل ما نطلب منك هو بثّ الدعوة لنا ولقضيتنا.

ـ محال أن أرضى.

ـ لا تتسرعي في الجواب. ولا تنسي أن سلامة زوجك رهن بجوابك. فإذا قبلت خرج زوجك من المعتقل في الحال وأسكناه بناية مريحة تابعة للغستابو. ومتى أنهيت مهمتك فككنا عقاله.

ـ لن يغفر لي خيانتي وانحطاطي إلى هذا الدرك.

ـ أفكار صبيانية... إننا نسمح لك، إذا قبلت طلبنا، بأن تزوري زوجك كل شهر في دريسد. وسننقله إلى هذه المدينة حالما توافقين.

ـ هذا محال وفوق طاقتي.

«رفع الرجل كتفيه استخفافاً وخرج بعد أن أخبرها أنه سيعود ليعرف جوابها الأخير. وكانت ثمانية أيام قضتها ماريا في صراع فكري عنيف بين أمرين: إمّا أن تقبل القيام بأحطّ الأعمال لتنقذ من تحب، أو أن تحكم عليه حكماً مبرماً فلا تفيده ولا تفيد هي شيئاً...

«وكانت الغلبة أخيراً للألماني، وانصاعت له لتعلقها بزوجها وضنها به. وبعد ثلاثة أيام غادرت باريس وسجلت في دائرة الدعاية الألمانية وعينت تشيكوسلوفاكيا مركزاً لعملها. فقضت شتاء 1937 ـ 1938 بكامله حتى فتح هتلر العاصمة براغ، في عمل نشيط دائم. وكانت أذكى وأمهر الجاسوسات اللواتي بعثت بهن حكومة الرايش إلى براغ. وسهلت لها سعة مداركها وعلاقاتها بالفرنسيين مهمتها، ومهدت لها سبيل التسلل إلى جميع الأوساط والأندية. وجمعت ثقافتها المتينة ورفعة مكانتها القلوب حولها، فأسدت إلى الغستابو أكبر الخدمات وقامت بأبشع الأعمال. وكان الألمان كلما شعروا بأنها تهم

بالتراجع مستكبرة فعالها، يجيزون لها زيارة زوجها في دريسد فتشد عزيمته وتحيي موات أمله وتقنعه بأن ساعة الخلاص دانية.

«ولكن لمّا استتب الأمر للنازيين في براغ، شوهدت ماريا الحسناء في أحد فنادق براغ غارقة في بحيرة من دمائها على أرض غرفتها وقد اخترقت رصاصة عينها اليسرى فقلعتها، وأصابت دماغها فقضت عليها.

وكان بجانب الجثة مسدس، فاستخلص الشرطة الألمان أن الحادث انتحار...

ماغي بشنس(*)
(Magy Bechness)
(-   )

كانت عميلة للاستخبارات المصرية عن طريق إميل دروبيه، وكانت تعمل في مصنع «بيديك» لصناعة الطائرات في إسرائيل وهي يهودية. وقدمت له المعلومات عن المصنع المذكور. وبتحوّل «ماجي» إلى مصدر للمعلومات السرية استطاعت أن تزوّد الاستخبارات العربية بأهم البيانات والقوائم والرسوم التفصيلية وخطط الإنتاج الخاصة بصناعة الطائرات في إسرائيل. وهي التي جنّدت النقيب في الجيش الإسرائيلي «دان افرايم» وعشيقته في الشبكة.

ثم قتلت بحادث سيارة بعدما أتلفت اللاسلكي وداهمت الشرطة منزل «ديبورا ودان» بعد شكوى زوجة الأخير عليه.

(*) نزار عمار «الاستخبارات الإسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ص187 ـ 188.

مانيا جوزيفونا(*)

(Mania Jozifona)

(- 1916)

جاسوسة روسية لمصلحة مخابرات فرصوفيا، ثم تجسست للألمان.

إنها واحدة من مغامرات الحرب الخفية الدائرة رحاها أبداً في العالم لا تكل ولا تمل ولا توقفها معاهدات ولا اتفاقات. وبطلة هذه المغامرة فتاة روسية تدعى مانيا جوزيفونا. فمن هي هذه الجاسوسة؟ وماذا فعلت؟.

في إحدى عشايا ربيع 1915 وُفِّق ضابط الاستخبارات في الجيش الألماني الثامن صدفة إلى القبض على جاسوسين روسيين. وخشي الرجلان على حياتهما، والحياة غالية، ففضحا المنظمة الجاسوسية التي ينتميان إليها واعترفا بأنهما تابعان لهيئة أركان حرب فرصوفيا، وأنهما مكلفان مراقبة حركات الجيوش الألمانية على طول نهر الفستول، وتقديم تقاريرهما إلى فتاة كانت مع خطيبها همزة الوصل بين أركان الدوائر السرية الروسية في هذه المنطقة.

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات» ص76 ـ 84.

كانت الفتاة تقيم مع أمها في مزرعة واقعة بين غومبان وبلوك في قلب الخطوط الألمانية، فأصبح سهلاً على الألمان اعتقال جميع الجواسيس الروس وأعوانهم. وطوق فصيل من الجنود الألمان المزرعة وبدأ ضباط الدائرة السرية الألمانية بالتفتيش. ودخلوا منزل الفتاة فوجدوا أمها في المطبخ. ولم تفاجأ هي بدخولهم وأجابت على أسئلتهم بهدوء مدهش. سألوها فأجابت:

ـ ما اسمك؟

ـ جوزيفونا. إنني أرملة.

ـ إن لك ابنة مخطوبة، فأين هي؟

ـ ذهبت إلى فرصوفيا مذ كانت الحرب، لترى خطيبها وهو جندي بولوني. ولم أرها بعدئذ ولا تلقيت منها خبراً.

ـ إنك كذّابة منافقة!

قال رئيس الفصيل ذلك وأمر رجاله بتفتيش المزرعة تفتيشاً دقيقاً. فلم يلبثوا أن عثروا عليها مختبئة في مخزن الحبوب. وكاد خطيبها ينجو، إذ كان ممدداً في المعلف بالإسطبل ولم يخطر على بال أحد أن يفتش عنه في هذا المخبأ، لولا أن جندياً ألمانياً أصله قروي، أدهشته الكمية الكبيرة من العلف التي كانت معدة للحيوانات. فلمّا نبشه وجد تحته الشاب مدفوناً فقبض عليه.

كان اعتقال الخطيب أشد الضربات على مانيا لأنه كان دليلاً ولو بسيطاً على إدانتها. ولكن التفتيش لم يسفر عن أدلة دامغة تثبت اشتغال الفتاة وأمها بالتجسس. واستنطقت المرأتان فلم تزلاّ بكلمة. وسأل القائد الفتاة:

ـ تزعمين أنك بريئة، فلمَ اختبأت إذاً؟

ـ إنني فتاة صغيرة أخاف الجند وأسلحتهم. وقد اعتدنا كلما مرّ جنود روس أو ألمان أن نختبىء خوفاً من أن يكونوا غزاة قطاع طريق أو رجال عصابات لا قائد لهم ولا رئيس.

ـ أيخشى خطيبك هو الآخر الجند وسلاحهم؟

ـ نعم. إنه يخاف أن يجندوه قسراً ويسوقوه إلى المجزرة.

ـ لقد وشى بكما جاسوسان، فماذا تقولين؟

ـ الكذب من عادات البشر. وليس كل ما يقول المرء صدقاً.

تردد القائد أمام هذه الأجوبة الجريئة. ولكن كان عليه أن يستنطق الخطيب. وكان هذا شاباً مديد القامة مخيفاً، وقف يرتجف هلعاً أمام الضابط الذي استدعاه. وأيقن الضابط أن مهمته ستكون مع الشاب أسهل مما كانت مع الفتاة. فأمر بإخراج هذه وسأل خطيبها:

ـ ما اسمك؟

ـ نيقولا نيقوليتفيش.

ـ أبولوني أنت؟

ـ كلا! إنني روسي.

واعترف الرجل بأنه خارج على الجندية وأنه ما خطب مانيا جوزيفونا إلاّ ليختبىء في المزرعة.

وأدرك الضابط الألماني أن الماثل أمامه جبان رعديد وأنه يستطيع بالتهديد والوعيد والقسوة أن يعرف منه سر المرأتين. فشهر مسدسه عليه وصاح به:

ـ إذا لم تعترف لي بما تفعل أنت وما تفعله خطيبتك وأمها أفرغت هذا المسدس في رأسك وأرسلتك إلى الجحيم تقضي فيه خدمتك العسكرية!

وازدادت رجفة الشاب وأكبّ على قدمي الضابط منتحباً متضرعاً إليه ألاّ يطلق النار. وأقسم ليقولنّ الحقيقة الصراح. واعترف حقاً بأنه بعد أن هرب من الجندية قبض عليه ضابط قسم الاستعلامات في فرصوفيا وأكرهه على الاشتغال بالتجسس بعد أن خيّره بين هذه المهنة أو المثول أمام المحاكم العرفية.

ـ وما هو دور مانيا وأمها في هذه اللعبة؟

ـ الأم بريئة لا دخل لها في أعمالنا. أمّا مانيا فقد تطوعت للعمل في خدمة رئيسي مدفوعة بحقدها على الألمان. وهي التي تدير الآن مصلحة التجسس والاستعلامات في المنطقة كلها. ولها من الأعوان ثلاثون يأتمرون أمرها.

وأفشى أسماء معظم هؤلاء الأعوان. ولمّا سأله الضابط عن سبب حقد مانيا على الألمان، أجاب:

ـ إنها عشيقة ضابط روسي في فرقة الفرسان مقيم الآن في فرصوفيا ويشتغل في دائرة الاستعلامات.

ـ وكيف ترضى أنت بأن تتزوج بعشيقة ضابط؟

رفع الشاب كتفيه استخفافاً ولم يجب بكلمة. ثم أمره القائد بالخروج واستدعى الإمرأتين.

كانت الأم تبكي بسكون. أمّا الصبية فقد تلألأ جمالها ونضارتها في هذا الجمع العسكري الصارم، ولم يبدُ عليها أثر للقلق، حتى أن

الضابط الألماني أخذ بطلعتها البهية بالرغم من أن مهنته كضابط استخبارات لا تدع له مجالاً للعطف أو التراخي. وقال لها:

ـ مانيا! لست قاسياً إلى الحدّ الذي تتصورين. ولما كنتِ ستمثلين هذه الليلة أمام مجلس الحرب وسيحكم عليك بالإعدام فإنني أسمح لك بأن تعانقي أمك وتودعيها الوداع الأخير.

وانتفضت الأم وألقت بنفسها في أحضان ابنتها وهي تحشرج. وخيل إلى الضابط أن أعصاب الفتاة أخذت تنهار، فأراد أن يضرب ضربته القاضية فقال:

ـ أمّا ذلك الضابط الفارس الجميل فيؤسفني أن أخبرك بأنني لن أسمح لك برؤيته لأننا اعتقلناه أمس.

تخلصت الفتاة من ذراعي أمها وقد فوجئت بالخطر، وأسرعت إلى الضابط زائغة البصر وصاحت به:

ـ ماذا تقول؟

ـ إن الرجل الذي يحبك وتحبينه أكثر من خطيبك المسكين، وقع في أيدينا.

واستدركت مانيا واستردت سلطانها على أعصابها ورفعت كتفيها وقالت:

ـ لست أحب سوى خطيبي ولا أدري عمن تتكلم.

ـ إن خطيبك لا يبادلك الحب إذاً، لأنه هو الذي فضحك قبل لحظات. وقد أعطانا الأدلة التي كنا نسعى إليها والتي تدين عشيقك الكابتن الجميل.

ـ هذا اختلاق! إنك تريد أن تخيفني...

وضحكت ضحكة جنونية حادة. وتابع الضابط حديثه، قائلاً:

ـ ألا تصدقينني؟ أتظنين أنني أنصب لك فخاً؟ سأجعلك إذاً تسمعين بأذنيك. اختبئي خلف هذا الباب وأنصتي!

وأمر الجنود بأن يتركوا المرأة خلف الباب الموارب واستدعى الخطيب الشقي وقال له:

ـ سأعيد استجوابك من جديد، وسنسجل أجوبتك كتابة. فأعد كل ما تعرف عن مانيا جوزيفونا والضابط الروسي الذي تزعم أنه صديقها وعونها في الجاسوسية.

وردد الشاب إفادته حرفاً حرفاً، وأعلن أن مانيا مديرة شبكة التجسس على الألمان في المنطقة كلها، وأنها عشيقة الكابتن الروسي.

عندئذ أفلتت مانيا من حرّاسها وخرجت إلى الغرفة كاللبوءة الثائرة، وانقضت على خطيبها المسكين، واستلت مشبكاً كانت تثبت به وشاحها، وقلعت عينه بوحشية قلما عرفت في النساء، قبل أن يدركها الجنود ويقبضوا عليها. وسقط الشاب البولوني خطيبها وهو يعوي ألماً.

أمر القائد، وهو لم يفقد هدوءه وبرودته، بنقل الجريح إلى المستشفى وحراسته. وبعد أن أخرج والدة مانيا قال للفتاة:

ـ إنك باسلة. ولكن ما فعلته الآن يدينك وعشيقك الكابتن. إلاّ أن ثمة سبيلاً إلى نجاتكما معاً.

ـ وماذا تريد أن أصنع؟ أأخون؟. . إنني أفقد حينئذ من اشتغلت بالتجسس من أجله وأسقط في عينه، والموت أفضل لي. وبعد فإنه لن

يغفر لي ذنبي إذا حاولت أن أنقذه بالخيانة. وقد قال لي قبل ثمانية أيام حين سافر إلى كوتنو أن أمله بالنجاح عظيم!.

زل لسان الفتاة في غمرة تأثرها وانفعالها وفضحت مكان عشيقها الروسي. واكتفى الضابط بهذا الاعتراف إذ علم أين يقيم الجاسوس في كوتنو حيث يرابط أركان حرب إحدى الفرق الألمانية. فأمر بأن تحبس الفتاة في مركز الحراسة وأن تشدد عليها الرقابة كي لا تحاول الانتحار. وأخبر رؤساءه بما اكتشف. وأسرع إلى كوتنو في سيارة للقبض على الضابط الروسي. واصطاده قبل أن يدرك ما حدث، وساقه إلى مركزه. وقد اعتزم أمراً بعد أن ثبت له أن مانيا تستطيع أن تسدي إلى الجاسوسية الألمانية خدمات جليلة.

استدعى الضابط الألماني مانيا إلى مكتب قيادة الجيش الثامن وقال لها:

ـ سيمثل صديقك الكابتن ايفان مارسيلوف (هذا هو اسم الضابط الروسي عشيق الفتاة) أمام المجلس الحربي. وأظنك لا تجهلين أن الموت ينتظره. فإذا قبلت أن تنضمي إلى صفوفنا اكتفينا بأن نحكم عليه بالسجن حتى نهاية الحرب. وسأتيح لك فرصة حضور محاكمته فتسمعين الحكم عليه بالسجن فقط إذا تعهدت بالعمل في خدمتي بإخلاص وصدق. وسيحكم عليك أنت مثل صديقك بالسجن فيظن أنك حبيسة. وسنسمح لكما بأن تتراسلا فتتأكدين أننا صادقون وأننا نبرّ بوعدنا!.

ـ كلا. هذا أثقل من أن أطيق احتماله.

على أنها بدأت تتراخى ولم يكن في اعتراضها أثر للاستياء والاستنكار.

وازداد الضابط الألماني إلحاحاً بعد أن لمس الانقلاب في نفس أسيرته، فقال:

ـ وما الضرر يا صغيرتي الحسناء، في ما أعرض عليك؟ إن الخيانة كبيرة على جندي. ولسنا نطلب إلى ضابط عنيد كصديقك ايفان مارسيلوف أن يشتغل معنا لأنه ليس من طينة خطيبك الجبان الرعديد، وبذا يبقى شرفه كجندي سليماً. ولكننا نطلب إليك أن تنتسبي إلى دوائرنا لتنقذيه وتفتديه. وستظلين مدى الحياة مقتنعة بأنك إنما أقدمت على هذه الخطوة من أجل ايفان. ولا تنسي أنك كنت تشتغلين بالتجسس لحسابه هو وإكراماً له، لا إكراماً لروسيا وابتغاء خدمتها هي. وماذا يهمك من أمر روسيا؟ وما شأنك بها وأنت بولونية؟

لم تجب مانيا، وظلت ساهمة النظر تتنازعها عوامل عدة. ولم يخف على القائد الذي أعجب بهذه المرأة، أن صراعاً ناشب في قراراتها. فلم يقل كلمة، وتركها في تأملاتها خوفاً من أن يزل لسانه بعبارة تثيرها عليه وتجعلها تتمرد نهائياً وترفض معاونة الدائرة السرية الألمانية.

قالت مانيا بعد حين وقد بدأت تنجلي المعركة النفسية التي كانت نهباً لها:

ـ أعاهدكم إذا وفيتم بعهودكم وصنتم الذمم أن أكون مخلصة لكم، أمينة، صادقة.

تنهد الألماني بارتياح. فقد ربح شوطاً مهماً من المعركة واستطاع أن يجتذب الفتاة.

ومُثلت مهزلة محاكمة العشيقين كما اتفق عليها. ولم يدر ايفان

مارسيلوف لمن كان الفضل في نجاته من الإعدام. فقد حكم عليه بالاعتقال. ومثلت مانيا أمام مجلس الحرب هي الأخرى ونجت من الموت مثل الكابتن الروسي كما وعدها القائد الألماني... ولكن هذه النجاة كانت موقوتة، وانتهى أجلها وذهبت ريحها بعد بضعة شهور. وتفصيل ذلك أن مانيا بعد أن انضمت إلى دائرة الاستعلامات الألمانية أدت حتى العام 1916 جميع المهام التي عهد بها إليها بنجاح. وفي ليلة من ليالي كانون الأول (ديسمبر) وبينما كانت عائدة إلى الخطوط الألمانية، وجعبتها حافلة بطائفة من الأخبار التي تسقطتها، طاردتها جماعة من القوزاق، فحاولت الهرب من مطاردتهم بعبور النهر سباحة، ولكنهم أدركوها واطلقوا عليها النار... وكانت خاتمة النضال. وامّحى ذكر من كانت تسمى مانيا جوزيفونا من سجل الأحياء.

ميريام رشيدة(*)
(Miriame Rachida)
(-   )

هي فتاة هندية من جزر «المالديف» كانت تظهر اهتماماً بالبرنامج الفضائي الهندي. اعتقلتها الشرطة من ولاية «كيريلا» وتمّ استجوابها من قبل رجال من الشرطة ومن مكتب مكافحة التجسس جاؤوا خصيصاً من نيودلهي، حيث أدى اعترافها إلى اعتقال مجموعة من العلماء المشهورين من منظمة الأبحاث الفضائية الهندية، كان من بينهم المدير المساعد للمنظمة الدكتور «شاشي كوماران» والعالم «نامبي نارايانان» الاختصاصي في عربات إطلاق الأقمار الاصطناعية. . .

هذا، وتقول صحيفة «إنديان إكسبرس» أن «ميريام رشيدة» وزميلتها «فوزية حسام» (الفتاتين المالديفيتين) قدّمتا، بالإضافة إلى سحرهما، ملايين الدولارات للأشخاص الهنود الذين اتصلتا معهم. ولكن لمن كانت تعمل هاتان الفتاتان؟ ليس لجزر المالديف طبعاً، بل لبلد آخر. وقد جاء في صحيفة «بيونير» اليومية الهندية، أن فرنسا،

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». مرجع سابق. ص248 ـ 249.

وبشكل آخر وكالة «آريان» الفضائية هي التي دبرت هذه العملية من أجل توفير المال. ذلك أن سرقة أسرار برنامج الإطلاق الهندي لن تكلف فرنسا سوى 40 مليون دولار مقابل مائة مليون دولار فيما لو تكفلت وكالة «آيان» الفضائية بإعداد برنامج لإطلاق نفسها، ومن ثم وضع الأقمار الاصطناعية في المدار المخصص لها. ولكن لا يوجد شيء بسيط في آسيا، إذ جاء في الصحيفة نفسها أنه في الوقت الذي كانت فيه ميريام رشيدة تعمل لصالح فرنسا، كان الصناعي «شاندرا سيكاران» يمدّ وكالة الفضاء الجديدة «غلوف كوزموس» والمافيا الروسية بالمعلومات، ولقد كان ذلك في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1994...

ميشيلان كاريه(*)
(Michélene Karreh
(1949 - 1908)

هي إحدى جاسوسات فرنسا أولاً والتي كان لها دور هام في المقاومة الفرنسية ضد الألمان، لكنها عملت فيما بعد لصالح الاستخبارات البولونية، إلى أن انكشف أمرها وحوكمت.

هذا، ولا يزال كثيرون من الأشخاص - في فرنسا - يذكرون ذلك الإعلان الذي تم نشره وتعليقه على الجدران، والذي يتضمن صدور الحكم بالإعدام في يوم 8 كانون الأول (ديسبمر) عام 1948 على ميشيلان كاريه البالغة من العمر أربعين عاماً، وقد صدر الحكم عليها من قبل المحكمة الجنائية رقم 14.

وكانت هذه المرأة، التي كشفت المحاكمات النقاب عن سيرتها - تحمل الاسم الذي اشتهرت به وهو **القطة** - وهي فتاة ذات بشرة سمراء جميلة، وعينين جميلتين، وأسنان جميلة دقيقة بيضاء، **وكانت القطة واحدة من أكبر جواسيس أوروبا.**

أدلى العقيد مارسيل، وهو أحد ضباط الاستخبارات ومن الذين

(*) **المرجع**: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص297 - 314.

لعبوا دوراً هاماً وحيوياً خلال الحرب العالمية الثانية، وكان عضواً في الشعبة الثانية ـ المخابرات ـ كما كان رئيساً لمنظمات استخبارات الجنرال **بول جوان** أمام المحكمة بإفادته التالية:

ـ لقد قامت السيدة كاريه بأداء خدمات جلى للجيش الفرنسي خلال السنوات التي قضتها في العمل معنا، ولقد تمكنت من الحصول لنا على عدد من المخططات لمعارك الجيش الألماني وكان ذلك لمصلحتنا.

إذن، فلماذا صدر الحكم عليها بالموت من قبل محكمة فرنسية؟..

لقد صدر الحكم عليها لأنها فعلت كما يفعل بعض الجواسيس، عندما ينتقلون في عملهم من مصلحة بلد إلى مصلحة بلد آخر. وليس ذلك بالأمر المعقد، كما كان هناك أكثر من سبب دفعها لذلك.

في عام 1939 كانت ميشيلان كاريه من مواليد بيلارد زوجة لضابط فرنسي مقيم في الجزائر، وكان زوجها يدفع لها قليل النفقة مما اضطرها للعمل كمدرسة في إحدى القرى الصغيرة الواقعة في جنوب البلاد. وكان جيران السيدة كاريه وكذلك الفتيات الصغيرات اللواتي عرفنها على حذر منها لأنهن وجدنها ذات تربية عالية وثقافة أكثر بكثير مما كانوا يتوقعونه فيها.

وكانت ترتدي ثياباً بسيطة لأن دخلها المحدود من عملها لم يكن ليسمح لها بأكثر من ذلك، ولكنها على الرغم من ذلك فإنها لم تكن لتعدم الوسيلة كي تبدو بمظهر أنيق، ولو أن رجلاً قدم من العالم الخارجي، ماراً بتلك القرية الضائعة في نهاية أعماق الجزائر ـ فإنه ولا شك سيتأكد حتماً من نجاح ميشيلان التي كان سلوكها مثالياً.

وكان من الصعب الحكم على هذه المرأة ومعرفة ما إذا كانت سعيدة بوجودها في الجزائر أو أنها غير ذلك، ولكن من المعلوم تماماً بأنها قررت العودة إلى باريس فور إعلان الحرب.

ولقد لعبت الظروف دورها في مساعدة تلك المرأة من أجل تحقيق مخططها، فقد كانت فرنسا في تلك الفترة بحاجة إلى النساء من أجل تلبية احتياجات الخدمات الصحية للجيش، ولذا تطوعت ميشيلان مباشرة للخدمة. وعندما حصلت أخيراً على بطاقتها وأصبح إذن العمل جاهزاً في جيبها، دفعت بزفرة عميقة من صدرها قائلة: لقد ابتدأت حياتي منذ الآن. هذا ما رددته في سرها، فكيف كانت تعرف ذلك؟.. لقد كانت ميشيلان في الواقع بداية منذ ذلك اليوم تقوم بعملها اليومي ثم تنتهي بذكر وتدوين مذكراتها اليومية، ولقد أتمت هذه المذكرات فيما بعد وكانت تلك المذكرات بمثابة اعترافات تتكون منها وثيقة إنسانية نبيلة سمحت المناسبات والظروف بتكوينها.

وقبل أن تعود إلى عملها، عاودت زيارة زوجها في الجزائر، والذي كان على أهبة الاستعداد للالتحاق بالجبهة، ولم يكن ليشعر في خلده بأن هذا اللقاء سيكون آخر لقاء له بزوجته، ذلك أنه وقع قتيلاً بعد ذلك بقليل تحت وابل من رصاص الأعداء.

عندما وصلت ميشيلان إلى باريس أقامت في فندق يقع في قلب المدينة، وقد كتبت في صحيفتها: أي بلاد هذه، وأية مدينة هذه! إنه من الصعب تصور هؤلاء القذرين وهم يتمون استيلاءهم على باريس، فالمباني التاريخية القديمة، السين وأرصفته، نوتردام، قبة الانفاليد، ونحن... إنني أرى هذه الأشياء جميعاً. الشوارع!.. إنها الحياة... إنني أتنزه على طول الشوارع، وأجلس على رصيف هذا المقهى أو

ذاك. وهذا ما يثير في نفسي أجمل المشاعر والأحاسيس. إنني سعيدة، إنني في الجنة. وإنني سأبذل جهدي لكي لا تلتهم جهنم السماء وتنتصر عليها...

ذهبت ميشيلان في اليوم التالي لاستلام عملها الجديد، ولقد تم تقديرها أثناء مدة دورتها الدراسية في باريس على أنها عنصر منتج، واثقة من ذاتها، وقادرة على إظهار كفاءة جيدة في معالجة الجرحى، ولقد كان توقيع الهدنة في عام 1940 صدمة قاسية بالنسبة لها.

عندما كان يعمل الألمان على اجتياح فرنسا، كانت ميشيلان تهرب أمام الزحف الألماني مثلها في ذلك مثل نصف سكان فرنسا، ولقد تمكنت عند وصولها إلى بوينس من تنظيم مركز للإسعاف تابع للصليب الأحمر الدولي، ثم استأنفت مسيرها على طريق فرنسا إلى أن وصلت أخيراً إلى مدينة تولوز، حيث عملت على تنظيم مركز جديد لتجميع الجرحى، وكان ذلك بإمكانياتها الخاصة. وقد ألحت على الضباط الفرنسيين بإنشاء معسكر لاستقبال المقاتلين المنعزلين عن وحداتهم، وأثناء تنفيذها لهذه المهمة الطوعية، ثم اجتماعها بذلك الرجل الذي كان على ما يبدو بحاجة إلى عونها ومساعدتها أكثر من الآخرين، وهو ضابط من ضباط القيادة البولونية، وكان يعمل كضابط اتصال مع قيادة الجيش الفرنسي، ومن الذين قاتلوا الألمان إلى أن وقع أسيراً بين أيديهم ثم تمكن من الفرار لكي يقع بين أيدي ميشيلان. وها هو الآن تعب وجائع ومريض، فأنقذته من شقائه، وألبسته، واعتنت به حتى عادت إليه شجاعته.

وكان اسم ذلك الضابط **رومان كزيرينا وسكي** وهو من الأسماء التي يصعب النطق بها، ولذا عملت على تسميته بـ **آرماند** كما عمل هو

بدوره على مناداتها، **قطتي**، وذلك لما كان يلمس فيها من الرقة والوداعة. وكانت العلاقة التي تربط بينهما أكثر من كونها مجرد علاقة عاطفية، إذ إن آرماند جعل منها جزءاً من مخططه للقيام بأعمال تنظيم شبكة للجاسوسية في فرنسا بالإضافة لتنظيم حركة من المقاومة، ولقد قبلت القطة بسرور أن تتعاون معه في كل ذلك.

وللبدء في هذا المشروع، كان لا بدّ من التفتيش عن الضباط الفرنسيين الذين كان بعضهم في المنطقة الحرة بينما كان البعض الآخر يختفي في المنطقة المحتلة، وشرعت القطة في عملها بجد وحماسة، وكانت الحالة العامة في فرنسا في غاية الفوضى، إذا كان ملايين الأشخاص لا يزالون يتكدسون فوق طرق فرنسا، كما كانت الحالة على الحدود الإسبانية لا تزال غامضة ومضطربة.

ولم يكن في استطاعة العقيد البولوني التجول والسفر بحرية، كما كان لا يجرؤ على الظهور في المنطقة المحتلة، لذا كانت القطة مجبرة على إنشاء الاتصالات الأولى، فكانت تقوم على جمع الرجال وتقسيمهم إلى مجموعات ثنائية بحيث يعمل كل اثنين منهم كخلية متصلة. وكانت تؤمن المخابىء لهذه المجموعات، وبذا أصبحت المجموعة التي كانت تسمي نفسها مجموعة الحلفاء بعد فترة قصيرة من أنشط وأقوى مجموعات المقاومة. ولقد انضم **العقيد مارسيل آكارد** إلى هذه المنظمات.

كان العقيد آكارد شخصية هامة في تلك المجموعة، إذ كان جميع أفراد المجموعة الباقين باستثناء العقيد البولوني من هواة أعمال الجاسوسية، بينما كان العقيد آكارد رجلاً مفرط الذكاء والدهاء، ولقد تمكن من الاتصال بالإنكليز عن طريق إسبانيا والبرتغال، وكان هذا الرجل بالنسبة للقطة صنماً معبوداً.

وأدرك آكارد بثاقب نظره أن القاعدة الحالية التي كانت تستخدم للحرب هي ذات مشكلة كبرى، وذلك نتيجة لغموض الموقف. وكان يتساءل: ترى هل ستتوقف ألمانيا عند حدود البيرينيه، أم أنها ستتمكن من الاتفاق مع فرانكو للقيام بالهجوم على جبل طارق؟... ولقد عمل آرماند على تكليف القطة بالكشف عن تلك المشاريع الألمانية فذهبت هذه إلى بوردو ثم إلى بايون وإلى بياريتز حيث كانت تتمركز في هذه الأخيرة وحدة من المدرعات الخاصة بمهمة إقامة معسكر على الحدود. وكانت تبدو وكأنها تستعد لخوض معركة جديدة، كما كانت هناك بعض الوحدات الجوية مقيمة في بوردو، وكان عدد من ضباط هذه الوحدات يتردد على مقهى باريس في بياريتز. وقد كتبت القطة قصة ذلك اللقاء لها في صحيفتها:

ودخل ضابط نازي إلى المقهى وقال لي:

ـ هل أستطيع الجلوس على طاولتك، يا سيدتي... إنني أرغب في طلب بعض المعلومات عن هذه المدينة.

وأجبته:

ـ نعم، وأنا بدوري أحب أن أطرح عليك سؤالاً جال في خاطري.

ـ هيا: اطرحي سؤالك!.

ـ إنك ترتدي لباس الطيران الألماني، بينما لا تدل هيئتك على أنك طيار، ثم أنني لم أتعرف على معنى شاراتك التي تحملها؟.

ـ إنني أحمل الرتبة التي تسمونها عندكم في فرنسا عقيد، وأعمل في مصلحة الإمداد الجوي، وإنني المسؤول عن كل إمدادات

واحتياجات الطيران لقاعدة بوردو. وتناولنا معاً شراب الشمبانيا، في المطعم أولاً، ثم بعد ذلك في أماكن أخرى.

وقد وصفت شعورها في صحيفتها بقولها: لقد حرصت على أن أحتفظ بصفاء ذهني، لأنني لو لم أفعل ذلك، لفقدت كل تحفظ واحتراس.

وبعد ذلك بقليل تمكنت من إعلام آرماند بأن الألمان يتخذون التحضيرات اللازمة لاجتياز إسبانيا، في حين استمر بقاؤها في الأقليم المحتمل وهي تراقب التحضيرات الألمانية، إلى أن لاحظت بأن استعدادات الألمان ونشاطهم قد بدأ يخف تدريجياً وأدركت بذلك أهمية النبأ الجديد وهو أن الألمان تخلوا عن مخططهم في الهجوم على جبل طارق. وانتهت بذلك مهمة ميشيلان فعادت إلى قرب آرماند وكانت بمنتهى السعادة وهي تعود إليه، وفي تلك الأثناء كان العقيد آكارد يعمل على تنظيم مجموعاته المنتشرة في جميع أنحاء فرنسا. وكانت القطة تعمل لمصلحته بجد ونشاط، وقد أكد العقيد ذلك بشهادته التي أدلى بها أمام المحكمة، وأدركا في تلك الفترة نجاحاً رائعاً وخارقاً للطبيعة. وكانت مصلحة الاستخبارات البريطانية التي كانت تعرف تلك المجموعة تحت اسم فالنتي تنظر باحترام كبير إلى رجال آكارد الشجعان.

كانت لوائح البريطانيين تتضمن أسماء الأعضاء الرئيسيين في المجموعة، وكذلك أسماءهم المستعارة، ذلك لأن أعمالهم ذات أهمية خاصة. كما كان البريطانيون يعرفون كل شيء عن العقيد رومان كزيرينا وسكي المعروف باسم آرماند، وكذلك عن ميشيلان المعروفة باسم القطة، بالإضافة لباقي المجموعة من المقاومين الذين كان منهم الأرستقراطي الفرنسي بيير دو **فومكورت**.

يحب دونافان آنذاك وقد اختارته المخابرات الأميركية والحكومة الأميركية ليقوم بمفاوضة كاسترو من أجل إطلاق سراح السجناء الكوبيين الذين اشتركوا في عملية خليج الخنازير. وأيضاً تخلت المخابرات الأميركية عن هذه العملية حفاظاً على حياة العملاء الموجودين في الأسر الكوبي آنذاك.

9 ـ في 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 1963 (وهو تاريخ اغتيال الرئيس كنيدي من قبل المخابرات الأميركية نفسها والمافيا وتجار الأسلحة) اجتمع دسمون فيتزجيرالد ـ وهو من كبار المسؤولين في المخابرات الأميركية ـ مع أحد العملاء الكوبيين وأعطاه قلم حبر مسموماً ليقوم بدوره بإهدائه إلى كاسترو وعلى اعتبار أن ذلك العميل كان على صلة مستمرة مع الزعيم الكوبي ومحظياً عنده. ولدى اغتيال كنيدي في ذلك اليوم جعل الإثنان يهرعان من الاجتماع جزعين حيث ألغيت هذه الخطة أيضاً.

10 ـ في مطلع عام 1965 جرى تزويد بعض العملاء الكوبيين بأسلحة قتل خفيفة من بينها تزويد عميل كان كاسترو يثق به ويحبه بمسدس كاتم للصوت لأغراض استعماله ضد من يثق به ويحبه (كاسترو)، ومع ذلك لم يتمكن من حمل هذا المسدس لحظة واحدة.

11 ـ قامت المخابرات الأميركية أيضاً بمحاولات لرش غرفة الأستوديو في الإذاعة الكوبية بمسحوق (ل ـ س ـ د) المخدر. وكان من المفترض أن يذيع كاسترو خطابه من ذلك الأستوديو (من المعروف أن هذا المسحوق يصيب الإنسان بالهذيان والهلوسة والجنون). ولكنها لم تتمكن من اختراق الوسائل الأمنية في دار الإذاعة الكوبية التي تقوم المخابرات الكوبية بحمايتها.

بالسرور من أقوالها ويجيبها وهو يبتسم بأن القطة بدأت تشعر بالغيرة، وكانت تحتج ميشيلان على ذلك بقولها:

إن الأمر لا يتعلق بذلك، إن لدي شعوراً بأن كارثة ستنزل بنا من جراء عملها.

وكان آرماند يجيبها ضاحكاً: ألا يمكن أن ينبعث هذا الإحساس من الغيرة؟ ولكن ذلك الشعور قد تحقق فعلاً. وكانت رونيه بورني أو من كانت تسمى فيوليت سبب كارثة أودت إلى تحطيم وخراب تلك المجموعة، فقد تلقت فيوليت أمراً بالحصول على معلومات ذات أهمية ثانوية وكانت المعلومات المطلوبة معرفة الاتجاه الذي ستذهب إليه بعض الكتائب التي سيتم نقلها بواسطة القطار من محطة الشمال في باريس. وقابلت فيوليت على مقربة من محطة الشمال أحد صف الضباط الذي بدأ الحديث معها ثم ابتدأت هي بدورها في استجوابه بحذر دون أن تنتبه إلى وجود رجل يرتدي الثياب المدنية ويجلس إلى خلف صف الضباط، متظاهراً بأنه يقرأ الصحف الفرنسية. ثم انصرفت من المقهى بعد أن قضت وقتاً مع صف الضباط، دون أن تلاحظ وجود شخص يسير في أثرها. كما أن الشك لم يخامرها خلال الأيام التالية بوجود أشخاص مدنيين يعملون على مراقبتها باستمرار تقريباً. وبذلك أمكن مشاهدتها برفقة كل من آرماند والقطة. ونتج عن تلك المراقبة اكتشاف مقر قيادتهم العامة، وكذلك مقر سكنهما. وفي 18 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1941 وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً تم اعتقال كل من آرماند وفيوليت من قبل منظمة مكافحة الجاسوسية، التابعة للأميرال الألماني **ولتر ويلهيلم كناري**، كما تم اعتقال ميشيلان كاريه بعد ذلك بساعات، وألقي بها في السجن العسكري. ولقد أثار صمت الزنزانة الرهيب شعور قلق كبير في نفس

القطة التي لم تكن لتعلم شيئاً عن الآخرين؟... وكانت تتساءل: ترى هل تم اعتقال آرماند أيضاً؟... وهل أمكن اعتقال الآخرين؟... ترى هل كانت هي الوحيدة من بين الزمرة؟ وفكرت وهي ترتعد بما ستتعرض له وبما ينتظرها. إن الليل سيهبط، وسيحمل معه كل الرعب الذي تنتظره... وهبط الليل عليها وهي وحيدة في زنزانتها المظلمة، وكانت القطة تعرف بأنها لن تنجو من الموت. وكانت ترتجف وهي تفكر بالصورة التي ستلقى الموت فيها. وفجأة اشتعل ضوء المصباح المثبت إلى السقف وانفتح الباب، حيث دخل رجل يرتدي الثياب العسكرية الألمانية.

بقيت القطة جالسة في مكانها وألقت نظرة جزعة إلى ذلك الرجل المنتصب أمامها. ولما كانت تعرف الشارات العسكرية بشكل جيد فقد عرفت بأنه يحمل رتبة رقيب، ولو لم يكن يرتدي الألبسة العسكرية لما عرفت فيه رجلاً ألمانياً. ذلك لأن مظاهر الوحشية لم تكن لتنطبق على مظهره. كما فوجئت بموقف ذلك الرجل منها أيضاً، والذي بقي واقفاً على عتبة الباب مستنداً بكتفيه إلى الجدار ناظراً إليه بثبات دون أن يقول لها شيئاً.

وابتدأت القطة بعد قليل تفقد صبرها، إلى أن قالت له وهي تنهض من مكانها: يا سيد، ترى لماذا عملتم على اعتقالي؟.. ولكن ذلك الرجل لم يجبها شيئاً. وكان صمته يطبق عليها آخذاً بتلابيبها. إلى أن قال لها أخيراً: لقد عشت في الجزائر، أليس كذلك؟. وأجابته: نعم في الجزائر. وعندئذ قال لها إن باريس مدينة شاعرة، أليس كذلك؟.. ونظرت إليه بهلع وآنئذ أعقب على نظراتها بقوله: هل أنت خائفة؟.. ولماذا تخافين؟.. إنني سوف لن أقوم بأي عمل

يضايقك، وإنني أعترف بأنك امرأة ذكية، ثم هل تعرفين بأنك بطريقة تصفيف شعرك تشبهين إلى حد ما جاندارك؟...

ولقد كتبت فيما بعد في مذكراتها شعورها عن ذلك اللقاء فقالت: لقد تملكني شعور رهيب للغاية، فلقد كان ذلك الرجل الذي دخل إلى زنزانتي إنسان. ولم يستجوبها ذلك الرجل الإنسان عن نشاطها في منظمات المقاومة بل تكلم معها عن الجزائر، عن فرنسا وباريس، وكان صوته يصل إلى أذنيها عذباً، هادئاً. ولقد دهشت الفتاة من ذاتها وهي تنساق معه فجأة في حديث عذب مهذب، إلى أن مازحها بدعابة قاسية وهو يقول لها: إن هذا المكان يفتقد للراحة قليلاً، فلنذهب إلى مكان آخر، ما هو رأيك؟.. وأدركت فجأة قسوة المكان الذي تقيم فيه، فهزت بكتفيها بحركة يائسة وهي تطرق إلى الأرض، وعندما رفعت رأسها كان الرقيب قد اختفى، وانطفأ الضوء عليها. وكتبت عن ذلك فيما بعد: لقد عادت إلى سمعي ألحان موزارت، وانيفيت، واضحة في خيالي، وكأن تلك الموسيقى الحلوة كانت تعزف فعلاً على مقربة مني. وطرق سمعها بعد قليل صوت جلبة من جديد، وأضيء النور، وفتح الباب ليظهر منه جندي مسلح، حيث تقدم عريف من ميشيلان وأشار إليها بأن تتبعه، وسارت خلفه بين الدهاليز الموحشة، واجتازت الأبواب الحديدية المتتالية إلى أن وصلت إلى مكتب، وقّع العريف فيه على ورقة كانت معه، ثم فتح الباب لتجتازه ثم اجتازت باباً آخر وعبرت خلال باب جديد من الحديد المتصالب الذي انفتح أمامها، وعندئذ وجدت نفسها أمام رجل، ولكن... من هو هذا الرجل؟.. إنه ذلك الرقيب الذي زارها في زنزانتها، ولكنه يبدو بهيئة مختلفة تماماً. فلقد كان يرتدي الثياب المدنية، كما كان يحمل قفازات أنيقة ويضع رباط عنق ذا ألوان زاهية

ويرتدي على رأسه كمة من ذلك النوع الذي كان يرتديه رجال جنوب غرب فرنسا، الكوت باسك، فوق رؤوسهم، وكان يلعق لفافة تبغ بين شفتيه، وكان يبدو في كل ذلك وكأنه أحد الفرنسيين المتأنقين الذين كانوا يقيمون في الحي الإيطالي.

ورافقها ذلك الرجل المتمدن إلى عربة كبيرة، وطلب إليها أن تجلس فيها قائلاً لها: على المقعد الخلفي من فضلك، واتركي الستائر مقفلة. ثم انزلق بدون اكتراث خلف المقود. وقد لاحظت ميشيلان المساحة الكبرى للمرآة العاكسة التي كانت تقع أمام بصر السائق والتي كانت تمكنه من مراقبة الجالس إلى المقعد الخلفي بوضوح. وهدر صوت محرك السيارة، ثم انفتح باب حديدي، ووجدت القطة ذاتها في باريس من جديد. ترى إلى أين ستذهب؟ . . ووصلت السيارة إلى ظاهر المدينة ثم مرت من أمام منزل لافييت. ولقد رأت ميشيلان ذلك بوضوح من خلال عاكس الهواء، ترى من كان يقطن تلك الفيلا التي تقع في وسط تلك الحديقة الكبرى، ارتعدت القطة خوفاً من جديد، فلقد كان ذلك القصر الفسيح هو منزل الممثل المشهور هاري بور الذي استولى عليه الألمان ليتخذوا منه مقراً لمنظمة مكافحة الجاسوسية في القيادة العامة الألمانية.

وأدركت أنها إذا ما وصلت إلى هناك، فمعنى ذلك أنه قد افتضح عملها وأمكن اكتشاف كل شيء عنها، كما أن قوات الاحتلال لا تتلهى في إلقاء القبض عليها وجلب العناصر التي لا خطر منها إلى هذا المنزل. وكان يتوجب عليهم بأن يضعوا فوق باب المدخل الرئيسي لهذا المنزل لوحة يكتب عليها قول دانتي الذي وضعه على باب جهنمه: أنت ـ يا من تدخل من هنا ـ دع خارجاً كل آمالك. ولكن هل كان مقر القيادة العامة لمكافحة الجاسوسية الألمانية يقيم

هنا فعلاً؟.. لقد كان يبدو كل شيء أمام ناظريها وكأنه غير حقيقي... فالخدم بغاية الأدب والتهذيب، كما كانت الصالات الفسيحة أنيقة الأثاث و...تركوها هناك وحيدة. جلست القطة في مقعد وثير ونظرت إلى النافذة حيث لمحت بالكاد الساحة الفسيحة الغارقة في بحر من الظلام الدامس، كما كان يطرق أذنيها أصداء الأصوات الخافتة لصخب المدينة وضجيجها. وبدا لها أن كل من في المدينة ينصرف إلى شؤونه ولا يفكر في شأنها أحد. وفجأة، فتح الباب وطلب إليها الرجل الذي رافقها أن تتبعه ثم تقدم أمامها إلى البهو وقادها إلى صالة كبرى وثيرة الأثاث. وكان هناك باب آخر ينفرج عن نصف انفتاحة. ومرت ميشيلان برأسها من خلال ذلك الباب فرأت مرآة كبيرة، وأمامها مصباح صغير يضيء الغرفة ـ لقد كانت تلك الغرفة مخصصة للنوم ـ ترى ماذا حدث في تلك الليلة؟...

إن مذكرات القطة لا تحتوي شيئاً عما جرى في تلك الليلة. ولقد حاولت المحكمة فيما بعد الكشف عن ذلك عندما سألها رئيس المحكمة درابي قائلاً: قصي علينا مشاهد تلك الليلة كما حدثت بالضبط، وبعد أن وصلت إلى فيللا هاري بور؟...

لقد قلت لك ما جرى تلك الليلة بالضبط ـ ولكن سأعيد ذكر ذلك ثانية ـ بعد أربعة عشر شهراً من النضال والعمل المستمر من أجل المقاومة، تم اعتقالي وأخذت إلى فيللا هاري بور، وهو منزل لافييت. كنت تحت رحمة الألمان كما أن الرقيب هيجو بليخر لم يتركني ثانية واحدة أعيش فيها وحدي.

ـ لقد تعرفت إذن على اسم ذلك الرقيب؟..

ـ كان يدّعي بأن اسمه هيجو بليخر.

ـ وهل كان يحمل رتبة رقيب فعلاً؟

ـ إني لست أدري إطلاقاً.

ـ وهل كان اسمه الحقيقي هيجو بليخر؟...

ـ وكيف أعرف ذلك، يا سيدي الرئيس؟..

ـ حسناً، لقد كنت مسجونة لدى بليخر، فهل أصبحت خليلة له منذ تلك الليلة؟..

ـ وهل تستطيعون أن تضعوا أنفسكم مكاني، يا سيدي الرئيس؟...

ـ أجيبي على سؤالي. هل أصبحت خليلة ذلك الرقيب أثناء تلك الليلة الأولى؟...

ـ وهل يجب أن أجيبك فعلاً بدقة، يا سيدي الرئيس؟...

ـ ولماذا أصبحت خليلته؟...

ـ لقد قال لي بليخر بأنك إذا لم تسخري مني ـ فسأطلق سراحك في تلك الليلة ـ وعندئذ عملت على ألا أسخر منه.

ـ ألم يصدمك ذلك، وأنت أرملة ضابط فرنسي، بأن تصبحي خليلة لرقيب ألماني؟...

ـ نعم، يا سيدي الرئيس، لقد صدمني ذلك. وعلى كل حال فلقد صدمني ذلك من الناحية الجسدية، يا سيدي الرئيس.

ـ وماذا حدث غير ذلك خلال تلك الليلة؟...

صمت.

ـ أريد أن أعرف ماذا حدث لك من أشياء أخرى خلال تلك الليلة؟ . .

صمت.

ـ إننا نريد معرفة كل ما جرى لك خلال تلك الليلة، وهذا ما يجب عليك أن تفسريه لنا. فلقد بذلت كل جهودك خلال أربعة عشر شهراً وعرضت نفسك لأخطار جسيمة وأنت تعملين لمصلحة زمرتك من عناصر المقاومة، ثم وفي ليلة واحدة، نسيت كل ماضيك، ونسيت فرنسا ـ ونسيت حتى ذاتك ـ وبعدئذ. . . وخلال ثماني ساعات التي تلت تلك الليلة عملت على وضع رفاقك الخمسة والثلاثين مقاتلاً وهم من أكثر عناصر المقاومة الفرنسية أهمية بين يدي ذلك الرقيب بليخر. اذكري لنا الآن ماذا حدث لك خلال تلك الليلة؟ . .

وركز الرئيس درابيه نظراته الثاقبة على المتهمة خلال دقيقة كاملة.

في الصباح الذي تلا تلك الليلة صعد كل من القطة وبليخر وكان هذا الأخير يرتدي الألبسة المدنية من جديد وركبا سيارة صغيرة تحمل لوحة فرنسية انطلقت بهما إلى قلب باريس، حتى توقفت أمام المكان الذي كان يختفي فيه م. روشيني، كما توقفت عربات أخرى في ذات الوقت ولكن دون أن تجلب أي انتباه لها، لأنها كانت تحمل كل ركابها ممن كانوا يرتدون الألبسة المدنية والذين خرج أحدهم لشراء صحيفة يومية، بينما انطلق آخر ليجرب حظه عند أحد باعة التبغ.

وتسلقت القطة على درجات السلم، ثم طرقت باب إحدى الشقق مستخدمة في أسلوب الطرق رمزاً متفقاً عليه، وفتح الباب

مباشرة حيث ظهر كل من روشيني وفرانك وهما من الأعضاء البارزين في مجموعات المقاومة. ولقد أربكتهم الدهشة لرؤية ذلك المجهول برفقة ميشيلان التي همست في آذانهم بصوت خافت: يجب القيام بعمل ما، فلقد تم اعتقال آرماند.

وذعر كل من الرجلين لهذا النبأ، ثم قالت لهما وهي تشير إلى بليخر.

ـ لا تقلقا من أجله، إنكم لا تعرفونه، ولكنه واحد منا.

وتلا ذلك خمس دقائق تخللتها الأحاديث الودية.

ووجهت القطة أخيراً حديثها إلى بليخر قائلة:

ـ اهبط وأدر محرك السيارة، لكي لا نضيع الوقت سدى. ثم مكثا في الشقة لمدة دقيقتين أو ثلاث. وآنئذ اهتز الباب تحت وطأة طرقات ثقيلة. وفتحت القطة الباب فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع الألمان الذين كانوا قد أشهروا مسدساتهم وهم يصرخون: ارفعوا أيديكم.

ولقد تكررت إعادة هذا المشهد الذي تم إعداده وإخراجه بمهارة فائقة، خلال الثماني ساعات التالية في عدد من المرات، وترك بليخر القطة تنعم بحريتها وتتصرف على هواها لمدة شهرين كاملين، فلقد كانت تعرف كل شيء، ولقد عملت على خيانة كل من تعرفهم، فقذفت بذلك كل رفاقها الذين استطاعت أن تعثر عليهم إلى السجن. ولكن الشخص الذي كان يهدف بليخر إلى القبض عليه هو العقيد آكارد، قد يبدو ذلك غريباً فإن القطة لم تقدم على الوشاية، به وقد شهد العقيد آكارد بذلك أمام المحكمة عندما قال: إنها كانت تعرف أين اختبىء ولكنها لم تقدم على خيانته، ولقد اختلقت القطة كافة

الأعذار لكي تضلل بليخر وصرحت له بأنها لا تعرف أي شيء عن مكان أو مخبأ آكارد وأقسمت له كثيراً ومراراً حتى اقتنع بأقوالها. وعرضت عليه أن تساعده في إلقاء القبض على شخصية أخرى لها أهمية كبرى، وكانت تلك الشخصية **بيير دو فونكورت**. ولقد بدت ملامح الاستثارة واللهفة على وجه بليخر وهو يستمع إلى ذلك الاسم، ثم جالت فكرة في رأسه، دفعته ليتأمل قليلاً، حيث قدر موقفه خلال ذلك وابتدأ يرسم مخططاً جديداً للعمل يتمكن بواسطته اقتناص إمكانات كبيرة...

عادت القطة بعد ذلك إلى مقر قيادتها العامة القديمة، وكانت مشاريع بليخر متكاملة ودقيقة، ذلك أن الرجال الذين تم اعتقالهم لم يتمكنوا بعد من إنذار رفاقهم بما حدث، كما أن ما وقع حتى ذلك الحين كان لا يزال بعيداً عن آذان رجال المقاومة.

واستمرت القطة في عملها وهي تمثل دورها خلال شهرين من الزمن دون أن يراود الشك أحداً من بين صفوف عناصر المقاومة رجالهم ونساءهم، وكانوا ينظرون جميعاً إلى الرفيقة الأمينة والشجاعة ميشيلان كاريه بعين التقدير. ولذا فلم يكن ليخطر في مخيلة أحد منهم أو منهن بأن هذه القطة تعرض كل منظمتهم للخطر، ذلك أنه لم يكن هناك أي مبرر للشك بها وهي التي اعتادت على تنظيم المجموعة المتخاذلة كما أنها هي التي أثارت الشجاعة في نفوس الجميع.

ولكن، وفي كل مساء، كان يتم اصطحاب القطة بشكل سري إلى الفيلا التي كان يقيم فيها بليخر حيث يتم خيانة تلك المنظمات والمخططات التي كان يتم وضعها في النهار. وفي ذات يوم، أعلنت القطة أمام بليخر بأن الهدف الرئيسي لعناصر المقاومة هو إقامة اتصال

مع إنكلترا بعد أن تم اعتقال وإيقاف كافة عناصر الاتصال.

وعندما علم بليخر بذلك، طلب من القطة أن تعمل على استدعاء بيير دو فونكورت إلى باريس، وشرح لها بأن فونكورت يجب أن يذهب إلى إنكلترا، كما يجب عليها أيضاً بأن تدفع رفاقها لكي يصروا على ذهاب فونكورت لأنه خير من يصلح لأداء هذه المهمة.

وفي الليلة التالية، ذكر بليخر أمام القطة بأنه يحمل لها مفاجأة سارة: عندما ستعودين إلى مقرك، ستجدين هناك فيوليت التي لم تعتقل في الواقع أبداً لأنها كانت تعمل معنا دائماً، وسوف لن تتكلم فيوليت عن أي شيء، وبإمكانك الوثوق منها وعليك الاهتمام بها لأن مهمتها هي البقاء في صفوف المقاومة.

ونفذت القطة كافة الأوامر التي أعطيت إليها، حث قابلت بيير دو فونكورت وكذلك بعض عناصر المقاومة الأخرى في أحد مشارب الشانزيليزيه واسمه بام ـ بام وتقدمت بعرضها الذي تقبله الجميع بالترحاب. ولقد اتخذ القرار بإرسال بيير دو فونكورت للالتحاق بإنكلترا، بمهمة إعلام رفاقهم عما كان يدور في الطرف المقابل للمانش، وطلب أية تعليمات أخرى، ولم يكن تنفيذ المهمة بالأمر السهل، فلقد قام بعض الخونة على إرشاد الألمان إلى الممرات السرية التي كان رجال المقاومة يستخدمونها للوصول إلى إسبانيا، كما كان الألمان أيضاً على علم بالنقاط المحددة لاستخدامها في إنزال القوارب والغواصات الإنكليزية.

وعادت القطة بعد عدة أيام من اجتماع بام ـ بام لرؤية أصدقائها مجدداً وأعلمتهم بأنها تمكنت من العثور على الوسيلة التي يستطيعون بواسطتها من الوصول إلى إنكلترا، كما شرحت لهم بأنها

يجب أن ترافق بيير دو فونكورت وذلك لأنها أصبحت معروفة هناك كما أن وجودها معه من شأنه أن يذلل الصعاب في سبيل تنفيذ المهمة.

ووافق الآخرون مباشرة على هذا الاقتراح وهنأوها على ذلك، وهم يشعرون تجاهها بعرفان الجميل، ولقد كانت بالنسبة لعناصر المقاومة في الواقع بمثابة الهيرويين وأنها تستحق تلك الشهرة، فلقد كانت أكثر الجميع تألقاً، وأرجح الجميع رأياً وأشجعهم إطلاقاً.

حرص بليخر على أن تتمكن القطة من مغادرة فرنسا، دون أن يداهمها أي خطر، ذلك لأنها عندما تتمكن من اجتياز فرنسا، فلن يتبقى أمامها أية صعوبة للوصول إلى إنكلترا. وبذلك تمكن بليخر من إدخال عميلته القطة مع بيير دو فونكورت الذي لم يكن ليشك أبداً في أمرها، إلى قلب وزارة الحرب في لندن.

وعملت القطة هناك لمدة تسعة أشهر، كانت خلالها تقوم بنقل كل ما تعلمه إلى فرنسا عن طريق القنوات التي أنشأها رجال المقاومة، وكانت هذه المعلومات جميعاً تصل إلى فيوليت التي كانت تقوم بدورها في نقل تلك المعلومات إلى بليخر.

ولكن. . . أتى اليوم الأسود الثاني في حياة القطة، فلقد راودت الشكوك رجال منظمة مكافحة الجاسوسية البريطانية.

كما أدرك رجال المقاومة الشجعان في فرنسا ورجال السكوتلنديارد وهم يدققون جميعاً في كافة ما جرى، فتم اعتقال القطة في شهر تموز (يوليو) عام 1942، وألقي بها في أحد السجون الإنكليزية، ومكثت هناك حتى نهاية الحرب.

وقد كتبت في صفحة من مذكراتها، أثناء إقامتها في السجون

الإنكليزية رسالة وجهتها إلى رفاقها القدامى في المقاومة الفرنسية جاء فيها:

آه! كم أتألم وأنا في سجني، وأنني لن أتمكن أبداً من العثور على الكلمات التي أستطيع أن أعبر بها عن حزني العميق والأبدي، كما أنني لا أستطيع أن أصف مخاوفي، ولكنني لست وحيدة هنا، إنكم جميعاً، أنتم الذين لا زلتم على قيد الحياة، وأنكم سوف لن تتمكنوا من النوم أيضاً في هذا المساء، لأنكم ستكونون إلى جانبي. وأنتم يا من قضيتم أجلكم، وأنا منكم، إننا سنعيش ونحن نسير حسب شريعتنا الخاصة في عالم سأنتصر عليه من أجلنا جميعاً.

في كانون الأول (ديسمبر) من عام 1949، كانت القطة تجلس أمام حكامها، وكان يبدو عليها الهدوء التام، بينما كانت عيناها الحالمتان تنظران إلى السقف الذهبي لتلك الصالة المشوشة الصاخبة.

وتكلم النائب العام للجمهورية فقال:

ـ لقد زاولت هذه التي أمامكم لمدة شهرين أعمال الخيانة في أرهب صورها الممكنة، ولقد كان خبثها وخداعها، وإغراقها في الشر، ومذكراتها التي قرأت عليكم نصوصاً منها، والتي تصفها كما هي على حقيقتها: عقل مفكر وامرأة بدون قلب.. وعليكم أن تصدروا حكمكم على كل هذا، ولا شك بأنكم لتشعرون معي بأن العقوبة الوحيدة التي يمكن تطبيقها جزاء وفاقاً هي: الموت. أما محامي الدفاع فقد أوجز دفاعه بقوله:

إنني أعترف أمامكم بذنبها، ولكن عليكم أن تدركوا بأن العمل الذي أقدمت عليه هذه المرأة كان نتيجة لذلك الموقف الذي لم يكن لها الخيرة، فإما الحياة أو الموت، وعليكم ألا تنسوا بأنها كانت

تعمل مع المقاومة منذ البداية، ولقد كانت عنصراً بطولياً من عناصر المقاومة، كما يتوجب عليكم أن تصدروا الحكم بالموت على كل أولئك الذين سبقوها فعملوا على بذر بذور الثقة ثم عملوا بعد ذلك على دفعها إلى الخيانة.

وقبل أن يتم إصدار الحكم، فقدت القطة هدوء أعصابها، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي وقع لها ذلك، فصرخت أمام المحكمة:

«ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير لأتذكر بأنه في الوقت الذي يطلب فيه النائب العام الموت لي فإن هيجو بليخر ينعم بحريته في... هامبورغ» وأصدرت المحكمة حكمها الذي كان متوقعاً الموت.

ولكن... وبعد عدة أشهر، أنزل رئيس الجمهورية عقوبة الموت التي صدرت بحق ميشيلان كاريه إلى السجن مدى الحياة.

ميلاني كينان(*)
(Milani Kinan)
(1942 -   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات الألمانية، وكثيراً ما كان أبناء قومها البلجيكيون يتهمونها بالتجسس لحساب الغستابو. فمن هي ميلاني كينان؟ وماذا عن دورها التجسسي؟.

كانت **«ميلاني كينان»** مثال المرأة الشحيحة الجشعة التي تستميت في سبيل المال ولا تتورع عن اقتراف الكبائر والصغائر للحصول عليه..

وقد عرف عنها هذا الحرص أبناء قومها البلجيكيون، وكانوا على يقين أن هذه المرأة التي تملك مقهى «السنفوني» على الطريق الممتدة من «تريلون» إلى «شيماي» لا تحجم عن ارتكاب أسوأ الأعمال من أجل قرش واحد!.

ومما يروى عن ميلاني أنها أماتت زوجها لفرط ما أكرهته على الكدح المتواصل في الليل والنهار إشباعاً لحرصها الذي لا يشبع، والحقيقة أن زوجها وهو من كبار جرحى الحرب العالمية الأولى، لم

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص50 - 54.

يأسف كثيراً على مغادرة هذا العالم الفاسد، وهذه المرأة الشريرة الفاجرة، لأنه لاقى ولا شك، في العالم الثاني، الراحة التي حرم منها في هذه الحياة!.

وبلغ من بخل ميلاني أن ربطت الإكليل الذي وضعته على نعش زوجها في يوم دفنه بشريطة سرقتها من باقة زهر كانت قد وضعت على قبر الأب «رلفين» منذ شهر مضى. ولم يكن ما يروونه عن سرقاتها لدجاجات القرية، وعن أساليبها في فنون التهريب، ليصد الرجال عن ارتياد مقهاها.

وكانت الشريعة السائدة في بلجيكا تحرم على المقاهي والحانات تقديم المسكرات، ولكن الفلوس في نظر ميلاني كانت فوق كل شريعة، وكانت لها في مقهاها مخابىء بعيدة عن أعين الرقباء، ناهيك بالأرض الطليقة التي يقوم عليها هذا المقهى إذ كان يتيسر لميلاني أن تلمح من بعيد مفتشي المقاهي والحانات فتتدبر أمر المسكرات التي تقدمها لزبائنها.

وفرت ميلاني مع من فر من أبناء منطقتها عندما غزتها الجيوش الألمانية في ربيع سنة 1940، وحين عادت إلى مقهاها بعد بضعة أسابيع لم تعثر فيه على زجاجة واحدة من زجاجات المشروب، أو غطاء من أغطية المناضد، أو أداة من أدوات المطبخ، فكادت تموت قهراً من هذه الخسارة الباهظة وهي التي يهلكها فقد القرش الواحد. . . ولكنها لم تمت ولم تهلك، بل عاد مقهاها في مطلع العام 1942 إلى سابق عهده، وازدهرت مصلحتها، وكثر زبائنها، فكانت تسقيهم جميع المسكرات التي جاء بها الألمان من فرنسا وأخذوا يبيعونها في القرى القائمة على الحدود البلجيكية. .

وما مضى زمان طويل حتى بدأت الظنون والشبهات تحوم حول ميلاني، فأشاعوا عنها أنها تشي بالوطنيين من أبناء منطقتها إلى «الغستابو» إذ كان لا يجري في مقهاها حديث ولو سرياً، حتى يداهم الألمان في اليوم الثاني بيوت أصحاب الحديث، وكان «ماكيوس» رئيس رجال الدرك الألماني في «شرلروا» لا يأتي إلى تلك المنطقة إلا ويزور ميلاني في مقهاها!.

هذا ما كان يتناقله أهالي تلك المنطقة، أما الأدلة الناطقة بتجسس ميلاني عليهم فكانت تفوتهم..

وجاء الألمان في تلك الحقبة بأسرى من الروس لتشغيلهم في مناجم «بوريناج»، ولكنهم تمكنوا من الفرار وألّفوا خلية من خلايا المقاومة في المستنقعات الواقعة بين «تيمان» و «بومون» وكانوا يتمونون من «روبشي» ومن «سال». وكان رئيسهم الليوتنانت إيفان يمر أحياناً على مقهى «السنفوني» فيلتقي فيه بمندوب قوات المقاومة في بروكسل، ضابط الارتباط بين الخلايا المختلفة في «سامبرايموز» و «افينانوا».

وعلى أثر إحدى المقابلات كان ماركوس ورجاله يكمنون في الضواحي للاستيلاء على «إيفان» ومعاونه وعلى البلجيكي الذي حمل إليهما ما كانوا يسمونه: «الطوابع السوداء» أي القسائم التي تخولهم الحصول على الأقوات، في حال رجوعهم إلى خلية المقاومة، وقد نشبت بين الفريقين معركة قصيرة قتل فيها إيفان وجندي ألماني وجرح آخر من جنود ماركوس، وتمكن المعاون والبلجيكي من التغلل في الغابة المجاورة، ولم تمض بضع ساعات حتى جاء من ينبىء رجال الخلية أن فصائل من الجيش أخذت تجوس خلال الغابات والمستنقعات لمطاردتهم فتسلل كل منهم إلى ناحية، لجأ بعضهم إلى

رجال المقاومة النازلين في شارع «فيريل» في «شيماي» والبعض الآخر توغل صعوداً حتى بلغ «بومون». .

وعاد مندوب القوات المقاومة وضابط الارتباط فيها إلى بروكسل قلق البال مهموماً، وأفضى إلى رئيسه بما يدور من الإشاعات حول ميلاني، فقال الرئيس:

ـ علينا أن نتثبت من هذه الإشاعات فإذا باتت لدينا الأدلة القاطعة على صحة تجسس ميلاني للألمان، كان عليك أن تعرف ما يجب عمله! . . .

ومشى المندوب في طريق «هينو». .

وكان «مارسيل دومونسو» فتى جميلاً أنيقاً وظريفاً، وقد اشتهر في أوساط الطلاب باسم «الشاعر» ولكن لو التقته في ذلك النهار، رفيقاته الطالبات اللواتي كن يجتمعن به صباح كل يوم، في مواعيد أدبية، في «مسرح الحديقة» لأنكرنه ولم يعرفنه وهو في ثيابه البالية ويديه القذرتين كأنه من فقراء العمال.

في هذا المظهر دخل «مارسيل دومونسو» مقهى ميلاني وما كاد يجلس إلى إحدى الموائد حتى طلب كأس «بيرنو».

وأجالت ميلاني في هذا المتسول الذي يطلب كأس «بيرنو» نظرة فاحصة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ثم قالت له:

ـ ولكن ثمن الكأس من «البيرنو» خمسون فرنكاً فأجابها «دومونسو»:

ـ وأنا لم أسألك عن الثمن، فهاتي ما طلبت ولك الثمن الذي تشائين. .

وحين احتسى الكأس الأولى وأعقبها بالثانية خشيت ميلاني ألا ينقدها الثمن فقالت له:

ـ من شروط هذا المقهى أن يدفع رواده ثمن المشروب الغالي الثمن كأساً بعد كأس!.

فابتسم «دومونسو» وقال:

ـ أنت تخشين أن أكون خاوي الوفاض لا أملك النقود المطلوبة..

ـ من يدري فقد يكون ذلك؟!...

وما لبث «دومونسو» أن انتزع من جيبه رزمة ضخمة من الأوراق المالية وقال:

ـ أما المال فلدي منه المبالغ الطائلة، وإن خلا مني صباحاً فلن يفوتني اقتناصه مساء..

ـ إن من يراك يشك في أن تكون لديك هذه الأموال الكثيرة..

ـ ليس من الصعوبة الحصول على المال في هذه الأيام... فهناك من يشتغل لحساب الألمان وهناك من يشتغل ضدهم... والفريقان يدفعان!.

ـ وهل يدفعون لك أجراً عالياً؟.

ـ خمسة آلاف فرنك عن كل رأس!...

فلم تتمالك ميلاني أن صاحت:

ـ خمسة آلاف فرنك؟!... إنك تبالغ فيما تدعيه!... وكيف يدفعون لك خمسة آلاف ولا يدفعون لي سوى ألف؟!..

وكان هذا الإقرار الصريح من ميلاني، هو الدليل الناطق الذي يبحث عنه«دومونسو» وما كادت تنتهي من كلامها حتى قال لها:

ـ ألف فرنك فقط!.. إذن، سأدفع أنا لك الفرق!.

وسرعان ما كان قد انتزع من جيبه مسدسه ذا الطلقات الصامتة وأطلق منه رصاصة على «ميلاني كينان» صاحبة مقهى «السنفوني» فوقعت تتخبط بدمها!.

وخرج الشاعر «مارسيل دومونسو» من المقهى يسير الهوينا في طريق إحدى خلايا المقاومة بعد أن انتقم منها الانتقام العادل، ولم يعرف أحد سر مقتل صاحبة مقهى «السنفوني» إلا بعد أشهر طويلة!..

حرف النون

1 ـ ناديا غاردنر.
2 ـ ناديزدا ميكايلوفنا مكاربيفا.
3 ـ نايفة سامي عقالة.
4 ـ نورا عنايان خان.
5 ـ نيتا كابيني.
6 ـ نيلدا روجرز.
7 ـ نيلي أمّوه.
8 ـ نيما زمار.

ناديا غاردنر(*)
(Nadia Gardner)
(-)

هي إحدى عميلات الاستخبارات الأميركية وأحد أعضاء الفريق الذي تشكل في عام 1940 لمعرفة محتوى رسائل كانت ترسل من نيويورك إلى برلين. وقد تمكنت من اكتشاف شبكة تجسس ألمانية كان من ضمنها كورت فريدريك لودويغ، وهانز أوغست لونينغ.

(*) المرجع: دايفيد كان. حرب الاستخبارات. ص 130.

نادييزدا ميكايلوفنا مكارييفا(*)
(Nadyizda M. Makaryeeva)
(1925 -)

هي من أبرع جاسوسات الروس في ألمانيا الغربية، حيث تخرجت من معهد براكهوفكا السوفياتي للتجسس تحت اسم ماريان.

أما قضية ماريان فإنها تعطي صورة مثالية عن نشاط عملاء البوليس السري السوفياتي في ألمانيا الغربية كما أن قيادة الاستخبارات في موسكو كانت تعتبر ماريان من أبرع جواسيسها في ألمانيا الغربية.

وصلت ماريان إلى فرانكفورت في شهر أيار (مايو) من عام 1958. وكان اسمها الحقيقي نادييزدا ميكايلوفنا مكارييفا من مواليد كاركوف عام 1925، وهي ابنة منظم وحدة تجارية روسية. وعندما بلغت الحادية والعشرين؛ وبينما كانت تدرس الاقتصاد في جامعة موسكو، أوصى بها منظم فرعها في الحزب على أساس أنها «صالحة لتدريب خاص». وككل عملاء الاستخبارات السوفيات تابعت التدريب الروتيني العادي ونقلت في النهاية إلى معهد براكهوفكا حيث ألحقت بالوحدة الخاصة بألمانيا تحت اسم ماريان كوخ - جـ 472903 - 18. - ي.

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام، بيروت 1988. ص 353 - 355.

وبعد عشر سنوات في براكهوفكا أنهت امتحاناتها النهائية بتفوق كبير وأرسلت إلى برلين الشرقية. وفي نيسان (أبريل) 1958 تسللت إلى القطاع الغربي من العاصمة الألمانية السابقة. وكانت أوراق هويتها تظهر بأنها قدمت من القطاع الأميركي من ألمانيا الغربية إلى برلين الغربية تحت ستار قيامها بزيارة.

وانتقت قيادة الاستخبارات في موسكو برلين الغربية لكي تكون مسرحاً لأول شبكة تجسس لها في القطاع الأميركي من المدينة. وأثناء تمضيتها عدة أسابيع لتتأقلم على الحياة في برلين الغربية حفظت عن ظهر قلب جميع قطاعات الحلفاء في المدينة على الرغم من تعليمات موسكو إليها بعدم القيام بأي نشاط في تلك الفترة. وبعثت تقول بأنها «تركت البيت».

وسرعان ما انتقت الأماكن الكثيرة والنوادي الليلية الصالحة للقاءاتها بأعوانها.

الشقراء تختار عشاقها

كانت شقراء جذابة، جرب كثير من الرجال مواعدتها ولكنها احتفظت بأنوثتها للرجال البارزين الذين كانوا يهمونها.

فسافرت إلى فرانكفورت واتخذت لنفسها شقة حديثة. وأسست مكتب خدمات سكرتاريا حيث كان علاوة على كونه تغطية فإنه ساعد كصندوق بريد وكمكان اجتماع. كما أنها أقامت قسماً للتصوير فبررت بذلك احتفاظها بمعدات التصوير.

وهكذا نزلت ماريان إلى ساحة العمل متخفية وراء ذلك الستار المحترم. فدرست جميع المعلومات الخاصة بالأشخاص الألمان

المدرجين على قائمتها بصفتهم صالحين للتجنيد وانتقت بالدرجة الأولى أولئك الذين كانوا على صلة بالحركة النازية من أصحاب السوابق والذين كانوا يتمتعون بجميع الخصائص التي تخولهم أن يصبحوا مخبرين وعملاء ارتباط.

وبعد عدة أسابيع من وصولها إلى فرانكفورت جندت أول مخبر لها. وكان صاحب مركز رفيع في محطة تجارب للأسلحة السرية. فاتصلت به تليفونياً وأبلغته بأنها ترغب في مقابلته في مكتبها. وعند حضوره أبلغته بأنها ترغب في الحصول على صور فوتوغرافية ومستندات لكل ملف سري يرد إلى قسمه، كما لمحت إلى أنها تدفع ثمناً محترماً لذلك. ورفض الرجل وأنذرها بأنه سوف يبلغ البوليس. ولكن ماريان أمسكت بالتلفون وهددته بأنها هي أيضاً لديها ما تقوله للبوليس الألماني الغربي وللسلطات الأميركية عن انتحاله هوية رجل ميت وأنه يشغل عمله الحالي في فرانكفورت منتحلاً تلك الهوية المزورة، فهو نازي سابق ومطلوب لجرائم بحق الإنسانية، كما أكدت له بأنها تمتلك الأدلة الثبوتية على صحة ما تقول، ثم أضافت بكل برود «تفضل واتصل بالبوليس». حاول ضحيتها المقاومة، ولكنها أسكتته نهائياً بعرضها عليه الأدلة الثبوتية على سوابقه النازية خلال الحرب، فاستسلم.

وهكذا درست عملية الدفع مرة أخرى. وفي اليوم التالي تسلمت ماريان منه الدفعة الأولى من الصور الفوتوغرافية والوثائق. وأثبت الزمن أن ذلك المجنّد الأول كان من أكثر مجندي ماريان نفعاً.

الساعة السويسرية

وبعد ستة أشهر من وصولها إلى فرانكفورت كانت ماريان تدير

شبكة واسعة من المجندين وعملاء الارتباط. وكان المرسل ـ اللاقط لموجات الراديو ـ دائب العمل، كما أن محل عملها كان ينتج الصور الفوتوغرافية صناعياً ويوزعها بالإضافة إلى الوثائق المسجلة على الأفلام الميكرو ورسائل الميكرودوت. كما ركزت على حصولها على معلومات عن الإنشاءات الألمانية. ونشرت شبكتها على القطاع الأميركي في ألمانيا الغربية حتى أن قيادة الاستخبارات في موسكو أكدت فيما بعد أن المعلومات التي تختص بالموارد الأميركية كانت ذات فائدة كبيرة بصفتها مكملة للمعلومات عن الموارد الألمانية.

وكان نشاط ماريان لا ينفد، فقد وسعت نشاطاتها التجسسية إلى برلين الغربية حيث عادت فأسست مكتباً آخر لخدمات السكرتاريا. فالتجسس في برلين الغربية كان أكثر جدوى منه في فرانكفورت ذلك أنه كان من السهل جداً تسلل العديد من العملاء المحنكين من القطاع الشيوعي للمدينة.

ولقد دام نجاح شبكة ماريان التجسسية سنوات عديدة حيث كانت تعمل بدقة الساعة، وبسلاسة، دفعت موسكو أن تقرر في النهاية بأن من الممكن أن تدار بواسطة عميل رئيسي أقل أهمية من ماريان. فأرسل في طلبها إلى الاتحاد السوفياتي حيث أوكلت إليها مهمات جديدة.

والتقارير الأخيرة لشعبة الاستخبارات في موسكو لا تشير إلى ماريان؛ مما يدعو إلى التكهن بأنها أعطيت هوية جديدة وهي ما زالت تعمل في مكان ما في ألمانيا.

نايفة سامي عقالة(*)

(Naifé Sami Akala)

(-   )

هي فتاة مثقفة من حيفا، وطنية متحمسة وتكره السلطات الإسرائيلية بعمق. تركت حيفا واجتازت الحدود إلى القدس حيث كانت تحمل عدداً من عناوين الشباب العربي المثقف. وهناك التقت بالمحامي الوطني الشاب سليم عطية وأصبح الاثنان عشيقين واتفقا على الزواج. تعرفت على داوود أموري وهو أحد رجال المخابرات السورية في إسرائيل عن طريق أخيه حنا وهو رفيقها وزميلها في نادي الشباب المسيحي، وبواسطته تمكنت من اجتياز الحدود إلى الأردن، وأعطاها عنوان الملحق السوري في عمان، حيث التقته واتفقت معه على العمل ضد إسرائيل. ودربها على أعمال الجاسوسية على أيدي ضباط استخبارات أردنيين. ونفذت بعض مهماتها وقد ساعدها داوود أموري في ذلك وشجعها في الفترة الأخيرة على أن لا تعود إلى إسرائيل، إلا أن الضابط الأردني أصرّ على أن تعود لتنفيذ مهمة ثانية، إلا أن خدمات الأمن الإسرائيلية اعتقلتها بتاريخ 5/ 7/ 1975، كما اعتقل داوود أموري وشقيقه لبيب وأحمد شحادة من شفا عمرو بائع الهويات. فحكم على داوود بالسجن 6 سنوات وعلى نايفة بالسجن سنتين.

(*) المرجع: دانيال جيمييل المخابرات الإسرائيلية وصيد الجواسيس. ص 77 ـ 82.

نورا عنايان خان(*)

(Noura Anayan Khan)

(-   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات البريطانية في ليبيا. قبلت العمل مع البريطانيين انتقاماً من الألمان الذين قتلوا خالها.

كيف كان ذلك؟

ولدت في القاهرة، من أب إيراني كان يتاجر في السجاد، وأم إيطالية. وكانت طفولتها سعيدة هادئة، حتى أطبق الموت على أبيها، وعبست الأيام لأمها من بعده، فاضطرت إلى أن ترحل بها إلى بنغازي ـ عاصمة برقة ـ حيث كان لها أخ يملك ملهى ليلياً.

وعاودت الأيام ابتسامها للأرملة الحزينة، والفتاة اليتيمة.

وعاشت نورا في كنف خالها، حتى نمت وترعرعت، واستيقظت عواطفها، فأحبت شاباً إيطالياً كان يساعد خالها في إدارة الملهى، وما لبث الحب أن انتهى إلى زواج سعيد.

ومرة أخرى، لم تشأ الأيام أن تكون دائمة الابتسام لنورا، فما

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. ص 67 - 71.

لبثت أن كشرت لها عن أنيابها ثانية. وامتدت يد الموت فاختطفت أمها. ثم تبعت هذه الصدمة صدمات، إذ شبت نار الحرب العالمية الثانية، فانعقد دخانها يبسط الظلام الخانق على العالم.

وما لبث الألمان أن تخطوا البحر الأبيض المتوسط، حيث مهد لهم حلفاؤهم الإيطاليون موطئاً لأقدامهم في ليبيا.

وإذ ذاك، تلقت نورا الصدمة التالية، وكانت أكبر ما عانت من صدمات. فقد تبينت السلطات الألمانية أن جاسوساً إنكليزياً - ينتحل الجنسية الإيطالية - يعمل ساقياً في ملهى خال نورا، فاعتقلته ثم امتدت شكوكها إلى المرأة وزوجها، فسيقا مع الجاسوس البريطاني إلى مصير رهيب، إلى الموت رمياً بالرصاص.

وبقيت نورا وحيدة. ولم يكن لها من مورد للعيش سوى الملهى الذي خلفه خالها، فتولت إدارته.

وكان ما لقيته على أيدي الألمان كفيلاً بأن يثير في نفسها حقداً مريراً ضدهم، فلما اتصل بها عميل الجاسوس الإنكليزي الذي أعدم ليسأل عن مصيره، ألفى لديها استعداداً لأن تتولى مهمته، فتنقل أخبار قوات المحور في ليبيا، إلى السلطات البريطانية.

وهكذا بدأت نورا علاقاتها بإدارة المخابرات السرية البريطانية. فكانت بداية العهد الجديد أن قامت بتجديد عام في ملهاها وبرامجه، وحصرت التردد عليه في الضباط الألمان والإيطاليين، وراحت تتودد إلى هؤلاء العملاء الجدد، وفي قلبها ما فيه من حقد ومرارة.

واستطاعت نورا أن تكسب ود الضباط الذين راق لهم أن يترددوا على ملهاها، وكانت سخية معهم، كريمة في معاملتهم، لا تشي بسوء سلوكهم إلى قيادتهم كما كانت السلطات تجيز لها، ولا

تشكو ممن كان يرفض دفع ثمن شرابه إذا ما ثمل. وبذلك وفقت إلى الاستئثار برضاهم وثقتهم. فما أن اطمأنت إلى ذلك، حتى اتصلت بـ «الشمسية» ـ وهو الاسم الذي اتخذه الميجور بنكرسون مدير المخابرات البريطانية في الصحراء الغربية ـ وأعلنته بأنها على تمام الأهبة، للعمل الجدي.

وتعددت الاتصالات. وكان بنكرسون إذا رأى في رسائلها اتجاهاً قد يفضي إلى معلومات نافعة، أرسل إليها وريقة يقول فيها: «لبن الناقة دواء». أما إذا تبين أن السبيل الذي تبعته لا يفضي إلى جدوى، فكان يكتب إليها: «نفقت الجمال».

وكان ثمة رسل يحملون الرسائل المتبادلة بين نورا وبنكرسون وقد ارتدوا الثياب البدوية، ودسوا الرسائل الخطيرة في تجاويف خفية بنعالهم.

وكان النصر الأول لنورا، يوم وفد على ملهاها ضابط بحري، ممن تولوا قيادة سفن الصليب الأحمر، المخصصة لنقل الجرحى. فقد توسمت نورا فيه مورداً للمعلومات، فأسرفت في التودد إليه وفي إغرائه على الشراب، حتى فكت عقدة لسانه، فمضى يذكر لها أنه وصل لساعته إلى بنغازي مع قوات ألمانية كبيرة، نقلت في سفن الصليب الأحمر. ولم يستطع الضابط أن يغالب الزهو، فاستطرد قائلاً:

ـ ما أغبى هؤلاء الإنكليز. لقد جازت عليهم الحيلة، إذ حلّقت طائراتهم فوق سفننا فما تبينت علامة الصليب الأحمر، حتى انصرفت عنها في سلام.

وصح ما توقعته نورا، فأسرعت تنقله إلى بنكرسون وأدركت

السلطات البريطانية أن رقابتها على سفن الأعداء في البحر المتوسط، غير قوية. وأن نقل قوات كبيرة إلى ليبيا، ينطوي على استعداد من قبل المحور، لعمل حربي هام.

كان ضباط القوات الجديدة، مورداً فياضاً لنورا. وبدأت تعمل بحرص وانتباه. وعندما صارحها أحدهم بحبه، لم تجد ضيراً في أن تجاريه فتتظاهر بمبادلته الحب. وبذا ضمنت اطمئنان إخوانه إليها.

وفي ذات مساء، بقي صاحبها معها حتى الفجر. وكان بادي القلق، يحاول أن يغمر ما به من هم في فيض من كؤوس الشراب، حتى ثمل.

ومع مطلع الفجر، تهيأ مضطراً للانصراف، فضمها إلى صدره وهو يهمس في أسى:

ـ ترى هل يقدر لي أن أراك ثانية بعد اليوم؟.

وصاحت نورا في لهفة مصطنعة:

ـ كيف؟. أو أنت راحل؟ لماذا؟. أبهذه السرعة نفترق يا حبيبي؟.

وفي لوعة وحسرة، مضى يقول:

ـ لا بد من الفراق. فقد صدرت إلينا الأوامر بالانتقال إلى الحدود الشرقية.

ووجف قلب نورا. كان في كلمات الضابط المتيم صيد جديد لها، فما أن انصرف، حتى بادرت تعد ذلك الصيد لترسله إلى بنكرسون، فلقد أدركت منه أن المحور يتأهب لزحف يرمي من ورائه إلى غزو مصر.

ولكن نورا لم تجد من تحمله رسالتها. وفتشت في المدينة فلم تجد أحداً من رسلها. ولكنها إزاء الرغبة الجامحة التي تولتها، لم تحجم عن أن تحمل الرسالة بنفسها:

ونجحت. وظلت طيلة زحف المحور على الصحراء الغربية، تتولى بنفسها حمل رسائلها إلى حيث كان ينتظرها أعوان بنكرسون. فقد اختفى رسلها فجأة، ولم يعودوا إلى الظهور.

وما أن عادت مرة من إحدى هذه المغامرات، حتى وجدت ثلاثة من رجال الغستابو في انتظارها.

وأسقط في يدها. وسدت في وجهها سبل الفرار والنجاة وأدركت مصيرها ـ فلقد اعتاد الألمان أن يعذبوا من يقع في أيديهم من جواسيس الحلفاء ليحملوهم على الاعتراف. ولكن نورا أسرت في نفسها أن لا تعترف.

وعبثاً حاول المحقق الذي عهد بها إليه أن ينتزع منها شيئاً ذا قيمة. فلما أعيته الحيل، أشار إلى رجاله فانقضوا عليها، وأحكموا وثاقها، ثم وضعوا في فمها وأنفها خرطومين أطلقا فيهما تياراً من الماء، سد على المرأة أنفاسها، فسرعان ما أغمي عليها.

وعندما أفاقت، عاد الضابط الألماني يغريها على الاعتراف، فعادت بدورها إلى الإصرار على الصمت. ومرة أخرى، أشار إلى رجاله، وتكرر العذاب الوحشي الفظ، ونورا لا تلين. فألقوها في زنزانة مغلقة، مظلمة، لا نوافذ فيها. وراحوا طيلة أيام ثلاثة يراودونها على الكلام، فلا يلقون منها إلا صمتاً. وافتنوا في ابتداع الأساليب لتعذيبها. فمرة يطفئون سجائرهم على بشرتها البضة الناعمة، ومرة يدقون المسامير بين أناملها والأظافر، وتارة يعلقونها من قدميها في

الهواء. وهكذا كانت جعبة أساليبهم البشعة لا تفرغ، وعزيمة نورا لا تهن، ولا تضعف. حتى أيقن الألمان أن لا سبيل إلى الاعتراف، فرموها بالرصاص.

وماتت نورا عنايان خان، بعد أن انتقمت لخالها وزوجها، إذ أفسدت على المحور بعض خططه، بما كانت تحمله إلى بنكرسون من معلومات.

نيتا كابيني(*)
(Nita Kabiny)
(-   )

عميلة للمخابرات الأميركية في براغ.

كانت نيتا موضع شكوك الجهاز السري التشيكي، ولكن مراقبتها لم تسفر عن نتيجة. وذات ليلة دخل منزلها عميل سري وقام بتفتيشه. ولم يدع أن قصده السرقة حتى لا يثير شكوك الجاسوسية. واطمأنت نيتا إلى كون الزائر الليلي لم يجد في منزلها ما يثبت التهمة عليها. وتوقعت أن تفتر حماسة التشيكيين في مراقبتها. وفي الواقع خفت المراقبة واستعادت نيتا نشاطاتها تدريجياً، من خلال لقاءاتها بالعميل المتصل بها. وكان تبادل المعلومات يتم بينهما شفهياً، أثناء نزهة أو سهرة حميمة. وكانت نيتا تحلي عنقها دائماً بعقد من اللؤلؤ الصناعي. وكان العميل قد دخل بيتها ليبدل هذا العقد بعقد مشابه له تماماً، صنع بعدما تم تصوير العقد الأصلي من جميع جهاته وبعد أن درست الصور طويلاً وبإتقان، من قبل خبراء.

ولم يكن العقد الجديد ليختلف عن القديم سوى بأنه يحوي

(*) المرجع: سعيد الجزائري.. ص 296.

مجموعة آلات مسجلة وبثاثة وبطاريات متصلة ببعضها، وبخيط العقد الذي يقوم بوظيفة لاقط.

قبض على نيتا كابيني في فندق الكرون في براغ، حيث كانت تجالس رجلاً غريباً، وتبدو لعين الناظر إليها كأية امرأة حلوة تتسلى برفقة معجب تقليدي.

«نيلدا روجرز»(*)
(Nilda Rogers)
(1975 -   )

هي مسؤولة كبيرة في مخابرات البنتاغون سرّبت تفاصيل المؤامرة وهي خائفة من القتل. وقالت إن 100 عميل للوكالة قتل معظمهم بنيران صديقة وهم يقومون بالمهمة. إذ كشف «آل مارتين رو»، وهو ضابط بحري أميركي متقاعد ومؤلف كتاب «المتآمرون: الأسرار الداخلية لفضيحة كونترا ـ إيران» أن مسؤولة في المخابرات العسكرية التابعة لوزارة الدفاع الأميركية قررت إبلاغ بعض وكالات الأنباء المحايدة عن عملية سرية فاشلة نفذتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية في العراق لوضع بعض أنواع من أسلحة الدمار الشامل والزعم باكتشافها في العراق أثناء احتلاله.

وينقل آل مارتين عن السيدة نيلدا روجرز (28 عاماً) التي كشفت عن هذه القصة إنها بدأت تشعر بالقلق على حياتها بعد إفشائها تفاصيل هذه العملية التي اطلعت عليها بحكم عملها. وتعتبر السيدة روجرز من بين أهم المتخصصين في المخابرات العسكرية في استخلاص المعلومات المهمة في وزارة الدفاع. وكانت قد حصلت

(*) المرجع: «المحرر العربي». العدد (403). 4 ـ 9 تموز (يوليو) 2003، ص 8.

على المعلومات التي تتعلق بقصتها أثناء وجودها في ألمانيا مع فريق لتحليل المعلومات المرتبطة بالحرب ضد العراق. ومن خلال مشاركتها هذه تبين لها أن هناك عملية عسكرية ستجري قبل دخول القوات الأميركية إلى العراق وأثناء عملها فيها. وأن الرجال الذين سيتولون تنفيذ هذه العملية السرية هم من العسكريين سابقاً، وأن وزارة الزراعة الأميركية هي التي دفعت لهم تكاليف وأجور هذه العملية بصفة خاصة من أموالها لإخفاء أي أثر للسي آي إي أو وزارة الدفاع.

وذكر آل مارتين، الذي يصدر نشرة أنباء إليكترونية خاصة إن رائحة هذه العملية بدأت تنكشف حين جرى قصف رجال العملية السرية هذه الذين بلغ عددهم 100 تقريباً بنيران صديقة عن طريق الخطأ فقتل معظمهم ونجا عدد من الجرحى لكن دون أن يعثر على أثر لهم حتى الآن. ولم تقتصر مهمة هؤلاء على زرع بعض أسلحة الدمار الشامل في أراضي العراق فحسب، بل كانت تقضي بالتسلل إلى البنك المركزي العراقي وإلى عدد من البنوك التجارية في بغداد لجمع العملة الصعبة منها. وعلم من المصدر نفسه إنهم وجدوا 2 مليار دولار أميركي و 150 مليون يورو و 100 مليون من العملات الأخرى. وتقول السيدة روجرز إن وزارة الدفاع كانت تعتمد على السي آي إي في هذه العملية لأن عملاءها العراقيين في داخل بغداد وجوارها أعدوا أنفسهم لتقديم الخدمات المطلوبة في العملية. وتؤكد السيدة روجرز أن عدداً من العملاء العراقيين الذين عادوا من العملية أجرت وزارة الدفاع مقابلات معهم حول العملية وأن الوثائق موجودة.

وإذا كانت هذه الأنباء توفر مؤشرات مثيرة ضد رامسفيلد ورئيس السي آي إي، فإن الضغوط بدأت تزداد على بوش وتشيني نفسه بضرورة تشكيل لجنة تحقق في مدى صحة المبرر الذي استند إليه

بوش في غزو العراق. وفي هذا الصدد أخذ عدد كبير من المحللين ورجال السياسة الأميركيين السابقين بنشر دعوات تطالب بتوجيه لائحة اتهام ضد بوش وإدارته لأنهم لم يكذبوا فقط على الجمهور الأميركي، بل على الأمم المتحدة وعلى العالم. فجميع المسؤولين الأميركيين بدءاً ببوش وتشيني ورامسفيلد وباول وانتهاء برئيس السي آي إي يمكن إدانتهم بالكذب وبتعريض أرواح العراقيين والجنود الأميركيين للأخطار دون أن يشكل العراق أي خطر على المصالح الأميركية والعالم من أسلحة دمار غير موجودة.

رامسفيلد.. صحّاف أميركا

وهناك من يرى أن كذب [وزير الدفاع الأميركي دونالد] رامسفيلد يشبه كذب [وزير الإعلام العراقي محمد سعيد] الصحاف بطريقة أخرى، فقد أعلن أمام العالم قائلاً: «إننا نعرف أماكن وجود أسلحة الدمار الشامل وهي حول تكريت وبغداد». ولم يكن من المستغرب أمام تلك الحملة واسعة النطاق حول وجود أسلحة كهذه أن يظهر في استطلاع الرأي الأميركي في كانون الثاني (يناير) 2003 أن هناك 81% من الذين جرى استطلاع رأيهم من وكالة الأنباء الأميركية (آي بي سي) يعتبرون أن العراق يشكل خطراً على الولايات المتحدة بسبب وجود أسلحة الدمار الشامل فيه.

ومن جانب آخر تكشف وكالة أنباء «نيوز التيرناتيف» في 26/ 5/ 2003 أن ديك تشيني نائب الرئيس الأميركي قام بعمل لا سابقة له حين دخل بنفسه إلى مقر السي آي إي قبل فترة قصيرة من شن الحرب على العراق لترتيب أمر ما رغم أنه أول نائب رئيس أميركي يقوم بمثل هذا التصرف غير المعهود والذي لا يعد من اختصاصه أيضاً.

الحرب بلا مبرر جريمة حرب

وتقول وكالة أنباء أميركية مهمة هي «يو اكسبريس» في 24/ 6/ 2003 إن الكذب بشأن مبررات غزو العراق وعدم العثور على أسلحة الدمار الشامل يعرض جورج بوش نفسه لإمكانية تقديم لائحة اتهام أميركية محلية ضده وضد إدارته أو أي فرد فيها. ومن ناحية أخرى، تعد عملية شن حرب دون سبب مقنع مثل الدفاع عن النفس أو غيره جريمة تحاسب عليها محكمة جرائم الحرب التي تتخذ من هيغ مقراً لها. وتؤكد المجلة أن هناك من يعد إثباتات وأشرطة فيديو ولوائح إدانة لتقديمها إلى القضاء الأميركي أو لمحكمة «هيغ» الدولية.

وقد ازدادت مبررات تقديم المتهمين إلى القضاء بموجب ما نشرته «يو اكسبريس» بعد أن قدم كريستيان ويستيرمان ـ المحلل الأميركي في قسم المخابرات التابع لوزارة الخارجية ـ شهادة أمام الكونغرس كشف فيها أن جون بولتون نائب وزير الخارجية الأميركي والمقرب من الرئيس بوش مارس الضغوط عليه أثناء إعداده تقريراً عن كوبا، وطلب منه كتابة هذا التقرير بشكل يشير فيه إلى وجود أسلحة دمار شامل بيولوجية في كوبا، لكي يوفر دعماً للرئيس بوش حين أعلن أن كوبا تطور أسلحة بيولوجية. وأكد ويستيرمان أنه رفض هذا التزييف، وحاول بولتون بعد ذلك نقله من العمل في وزارة الخارجية. ورغم أن شهادة ويستيرمان لا تتعلق بالعراق، لكنها تكشف تماماً محاولات التزييف التي تعمد إلى اتباعها إدارة بوش في خلق مبررات توجيه الضربات العسكرية للدول الأخرى.

ذعر «سكان» البيت الأبيض!

ويؤكد تيد رال، مؤلف كتاب: «حرب النفط والغاز: الحقيقة التي

تقف وراء احتلال أفغانستان» لوكالة «يو اكسبريس» أن مصدراً موثوقاً أبلغه أن حرباً داخلية تلوح الآن بين رجال الإدارة الأميركية وبين المسؤولين في أجهزة المخابرات الأميركية، وأن هناك من يرتعد خوفاً بين رجال إدارة بوش من إمكانية سقوط البيت الأبيض وإثبات أكاذيبه. ويقول هذا المصدر إن تسريبات أخرى لا بد أن تظهر بعد الشهادة التي أدلى بها ويستيرمان في الكونغرس لأن الكل سيتشجع لإنقاذ نفسه والكشف عن أسرار يحرص بوش ورامسفيلد وتشيني على دفنها.

ويبدو أن ملامح التراجع عن التشدد في الدفاع عن تقارير المخابرات بدأت تظهر عملياً بعد أن أعلن الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة للجيوش الأميركية قائلاً: «إن معلومات المخابرات لا تعني بالضرورة أنها تحمل الحقيقة»!؟ وتقول مصادر أميركية من الحزب الديموقراطي إن «كرة ثلج» بدأت تتدحرج حول مبررات احتلال العراق يوماً تلو آخر وسوف تثير مضاعفات أخطر من فضيحة ووترغيت في عهد نيكسون، لأن حملة الانتخابات للرئاسة اقتربت كثيراً وسيفتح خلالها ليس ملف حرب العراق فحسب، بل وملف أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، الذي عمل بوش على إغلاقه ومحاولة دفنه في غزو العراق، فأصبح الملفان الآن أمامه كشبحين يهددان مصيره ومصير إدارته.

صواريخ أميركية للعراق في فترة الحظر

وعلى الجانب الآخر من الأطلسي، تتربص دول أوروبية ببوش والبيت الأبيض لإدانة كل حروبه باسم «الإرهاب». فقد كشفت مجلة نيوزويك في الموقع الإلكتروني قبل أيام أن مخبأً داخل العراق عثر فيه على صواريخ من صنع أميركي تعود صناعتها لفترة الحظر المفروض

على العراق. ورغم أن تفاصيل هذا النبأ لا تزال سرية، إلا أن مصادر عسكرية ومخابراتية في واشنطن قالت إنها تجري تحقيقات ملحة وسريعة لمعرفة الطريقة التي وصلت فيها مثل هذه الصواريخ إلى العراق.

وستطال هذه التحقيقات عدداً من الشركات الأميركية للتأكد من عدم خرقها الحظر المفروض على العراق. لكن المجلة الأميركية ذكرت أن هذا الاستجواب والتحقيق تم التخلي عنهما عندما تبين أن هذه الصواريخ جرى تصديرها للعراق بشكل قانوني من نفس الولايات المتحدة، وأنها تعود لفترة تحالف واشنطن مع صدام أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية ولم تكن من صنع فترة الحظر على العراق، ومع ذلك من يصدق أن المخابرات الأميركية تقول الحقيقة؟

ويعلق أحد المسؤولين البريطانيين على نفس الوضع الذي يتعرض له [رئيس الوزراء البريطاني توني] بلير أيضاً حول عدم العثور على أسلحة الدمار الشامل، قائلاً إن النظام الديموقراطي في بريطانيا وكذلك في واشنطن لا بد أن يحاسب الاثنين واتهامهما بخداع الجمهور والعالم لكن من سيحاسب بقية الحلفاء في غزو العراق وإن كان دورهم أقل في الحرب على العراق؟

إن إسبانيا والبرتغال وبولندا وبلغاريا وعدداً من الدول العربية التي بررت لنفسها التحالف مع واشنطن ضد العراق بحجة وجود أسلحة الدمار الشامل لن تدفع أي ثمن على ما يبدو رغم أنها حملت الأخطار لشعوبها وشعب العراق في ظل كذبة اتفق عليها بوش وبلير من أجل مصالحهما. هذا ما يستنتجه بعض المحللين السياسيين في بريطانيا وفي الولايات المتحدة.

نيلي أموّه(*)

(Nily Amouee)

(-   )

جاسوسة ألمانية في مصر اسمها الحقيقي زعينه. إذ في إحدى ليالي ربيع 1923 العابقة بعبير الياسمين، دعا هاريس مندوب الانتلجانس سرفيس إلى مراكش فريقاً من وجوه المجتمع إلى حفلة في «مينزا أوتيل» في طنجة تكريماً للسيد غاردنر وزوجته اللذين وصلا في الصباح إلى مرفأ المدينة الدولية.

كان غاردنر، وهو من رجال الصناعة العاطلين، يشبه ضابطاً قديماً في الانتلجانس سرفيس برتبة كابتين شبهاً عظيماً فكأنه أخوه. أما امرأته فقد كانت آية في الجمال، لها عينان محال أن تنساهما إذا رأيتهما مرة، لوزيتان خضراوان حديديتا النظر، ساحرة، دقيقة الفم، فاحمة الشعر.

كانت مدام غاردنر هذه تشتغل في مصر لحساب الألمان باسم مستعار هو «نيلي أموّه». أما اسمها الحقيقي فهو زعينه أموّه، مصرية المولد والتبعة وصديقة حميمة من صديقات مدام «دي سوستوي» الألمانية الأصل زوجة قنصل إسباني في مراكش حاول إبان حرب

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. ص 114 ـ 118.

1914 ـ 1918 أن يثير المراكشيين على فرنسا.

تتبعت وبعض زملائي حركات المرأة باهتمام. ولكنها اختفت فجأة من طنجة بينما ظل اليخت الذي حملها وزوجها إلى المرفأ راسياً فيه لخداع الرقباء. ولم نعرف إلاّ بعد شهور عديدة أن هاريس موظف الانتلجانس سرفيس اصطحب غاردنر وزوجته المزعومة إلى شيشوين مقر بطل الريف عبد الكريم وأخيه.

كان غاردنر قد عرض على زعيم الريف أربعمائة بندقية من طراز «لوبيل» مع ألف وثمانمائة طلقة لكل منها، ومدافع رشاشة وستة عشر ألف بندقية آتية من همبورغ في ألمانيا، وغذاء وعتاداً وطيارات.

كان عبد الكريم بحاجة ماسة إلى أسلحة حديثة جديدة. فقبل الأربعمائة بندقية «لوبيل». ولكنه اختلف مع غاردنر على دفع الثمن لأن هذا كان يريد المال سلفاً ولأن البطل الريفي أبى أن يدفع إلاّ بعد وصول البنادق، لأن كثيرين من الأدعياء المغامرين غرروا به من قبل وابتزوا منه المال.

لم يكن لدى زعيم الريف من المال ما يسمح له بالتفريط بمبلغ كبير قبل أن يضمن حصوله على البنادق. وما ملك غاردنر، الذي كان يشتغل لحسابه الخاص، المال الكافي لدفع ثمن الأسلحة وشحنها ليقبضه بعد وصول البضاعة.

وكادت الصفقة لا تتم لولا أن خطرت لغاردنر فكرة مدهشة. فقد طلب حالاً نصف ثمن البنادق (كان النصف كافياً لدفع نفقات اليخت الذي سينقل الأسلحة وثمن هذه الأسلحة)، على أن يترك زوجته وطباخه رهينتين عند زعيم الريف.

ورضي عبد الكريم بهذا المقترح وعقدت الصفقة وبقيت مدام

غاردنر والطباخ في الريف، بينما عاد الإنكليزي إلى يخته وأبحر فيه إلى انفرس حيث كانت البنادق.

أقامت زعينه والطباخ عند أحد أتباع زعيم الريف وهو القائد لادي. وأُكرمت وفادتهما بالرغم من أنهما رهينتان، ونعما بالكرم العربي والضيافة العربية المشهورة.

وكثر المعجبون بالحسناء وكانت لها مغامرات كثيرة حتى ضج من سلوكها الريفيون. وما كان في اليد من حيلة. فإبعادها يعني التخلي عن الضمانة الوحيدة لوصول الأسلحة التي دفع نصف ثمنها.

بعد شهرين عاد غاردنر مع البنادق والذخيرة وأفرغها من يخته في ابن كويا على ساحل المتوسط بالقرب من الحسيمة في المكان ذاته الذي قبض فيه الفرنسيون بعد بضعة أسابيع على دوريو الشيوعي وهو ينقل سلاحاً إلى الجيش الريفي.

وتسلم عبد الكريم الشحنة. وعاد الإنكليزي وزوجته المزعومة وطباخه إلى طنجة وجيوبهم محشوة بالاسترلينيات. وهناك تفرقوا بعد أن انتهت المهمة التي جمعتهم...

في العام 1935 التقت زعينه غاردنر مرة أخرى في مرسيليا، وقدمت له فتاة جميلة تدعى فاندا الحمراء، ولا يعرف أصلها وهويتها الحقيقية سوى الدائرة السرية الألمانية (ناهريشتن بورو) ودوائر الانتلجانس سرفيس البريطانية. كانت الفتاة تمتاز بجمال غريب، وتبدو من طينة ألمانية أكثر منها روسية. ولكن ضرورات المهنة قضت عليها بأن تنتحل اسماً وأصلاً أوكرانيين، بينما ولدت هي في الحقيقة في ألمانيا العام 1894.

كانت فاندا معلمة رقص اختارت هذه المهنة لاستطابتها إياها لا

لحاجتها إلى ما تدره من ربح. وفي الحرب 1914 ـ 1918 كانت زينة الحفلات الفاجرة التي كان الضباط الألمان يقيمونها خلسة في معسكراتهم وخصوصاً في مايانس.

وذهب بها شاب نمسوي إلى فيينا في العام 1916 فكان لها شأن مرموق في المجتمع الراقي، وكثر المعجبون بها. وسافرت العام 1917 إلى سويسرا لتشتغل بالتجسس والاستعلامات لحساب الدائرة السرية النمسوية. وقضت في لوزان مدة طويلة. ثم تلقت من رؤسائها أمراً بالسفر إلى بوخارست والاتصال بسياسي معروف أعجب بها في سويسرا وقضى بصحبتها أياماً سعيدة.

كلفت فاندا في البلقان القيام بمهمات جاسوسية خاصة نجحت فيها نجاحاً عظيماً. وظلت هناك حتى تشرين الأول (أكتوبر) 1918. فلمّا انقلب الألمان على أمرهم ولم يبق لهم شبكة تجسس في البلقان ولا في تركيا، استقرت فاندا في اسطنبول حيث عاشت عيشة فجور أخفتها بفخامة منزلها الذي كان رواده من علية القوم وأصحاب النفوذ.

وحين أعيد في أواخر العام 1924 تنظيم دوائر التجسس والاستعلامات الألمانية على يد الكولونيل نيكولاي، عادت فاندا إلى العمل في صفوفها وعهد إليها بمهمات مختلفة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. وعندئذٍ انضمت إليها زعينه أموّه في العمل وتعاونتا تعاوناً وثيقاً، وتنقلتا بين أفريقيا الشمالية ومصر وهما متنكرتان تارة بمعلمتي رقص، وتارة ببنتين من بنات الهوى، وأخرى بالرحالتين الهاويتين.

ثم انشغلت أموّه مع غاردنر، فاستعانت فاندا شاعرةً زعمت أنها هندية وانتحلت اسم «مهرا» وأخذت، تنفيذاً لأوامر تلقتها من برلين،

في اكتساب جماعة من المثقفين العرب إلى صفوف الألمان.

وفي العام 1930 كان يبدو أن بعض الجواسيس والدعاة الإنكليز والألمان اتفقوا في العمل. من ذلك أن تقارير فاندا كانت ترسل إلى لندره وبرلين في آن واحد، وأن أموّه لمّا اشتغلت مع غاردنر لم تكن منقطعة الصلة برئيسها الألماني. وتضافرت جهود هؤلاء النسوة ورؤسائهنّ العام 1935 لمراقبة أفريقيا الشمالية والاشتغال بقضاياها السياسية.



لو كان الألمان أذكى مما هم، لأصاب الإنكليز من خطر التعاون الإنكليزي ـ الألماني في مضمار التجسس والاستعلامات السياسية ضررٌ عظيم في الحرب العالمية الثانية. ولكنهم لم يستطيعوا التغرير بالإنكليز ولا حملهم على السير في ركابهم قدماً. ثم أنهم لم يجدوا الجو ملائماً للعمل ولا الميدان ممهداً. ولمّا دقت ساعة الخطر حدث للجواسيس الألمان، رجالاً ونساء، ما حدث لهم أو لأسلافهم سنة 1914، وشلت حركتهم في ساعات معدودة بعد أن كانوا يظنون أنهم في مأمن من الأخطار.

ولئن يكن جواسيس الرايش وأعوانهم قد أحرزوا في الحرب العالمية الثانية انتصارات لم يسجلوها في حرب 1914 ـ 1918، فإن هذه الانتصارات كانت جزئية محدودة لا رابطة بينها، فلم تترك أثراً في جوهر الحرب والسياسة. وإذا كانت خطة غزو الجزيرة البريطانية التي رسمت بدقة عظيمة قد فشلت فبسبب عجز الجاسوسية الألمانية عجزاً مريعاً، حتى أن غورنغ أمر بوقف معركة بريطانيا التي كان يوشك أن يربحها لأنه لم يعرف شيئاً عن قوة سلاح الجو البريطاني.

نيما زمار(*)
(Nima Zamar)
(-   )

هي فرنسية تزعم أنها اخترقت «حزب الله» لصالح الموساد.

إذ تزعم يهودية فرنسية، من أصل روماني، أن الموساد الإسرائيلي استخدمها كعميلة مزدوجة طوال 8 سنوات قامت خلالها بأعمال تخريب وقتل واخترقت «حزب الله» اللبناني ومراكز للتدريب في ليبيا وسوريا ولبنان، على حد زعمها. وروت اليهودية الفرنسية نيما زمار كل ذلك في كتاب من 366 صفحة عن دار «ألبين ميشال» للنشر في باريس بعنوان «كان عليّ أن أقتل أيضاً».

وتقول زمار في الكتاب، إن الموساد بدأ يستخدمها منذ 1993 بعد سنة من هجرتها إلى إسرائيل والبدء بخدمتها العسكرية في الجيش هناك. ولأنها تتكلم وتكتب العربية جيداً، فقد جعلوها تنضم كمتطوعة في معسكر تدريب لـ «حزب الله»، زعمت أنه كان في ليبيا منذ 10 سنوات «حيث تعلمت الدرس الأول هناك، وهو كيف أقتل من يقف عائقاً أمام القضية» وفق تعبيرها في الكتاب.

(*) المرجع: «الشرق الأوسط»، الأربعاء 10 أيلول (سبتمبر) 2003، ص 1، (كمال قبيسي).

وكتبت زمار أنها كانت تنام برفقة فتاة عربية، اسمها ياسمين، في المعسكر الذي أمرها قائده في ليبيا، بأن تقتلها، لأنه كان يشك بأنها عميلة مزدوجة للموساد «فقمت وقتلت ياسمين بالسكين بدم بارد، وكان ذلك أول قتل في حياتي». ثم تتابع في الكتاب وتقول إنها راحت تدرس أساليب القتل المتنوع «بالسكين وبالمسدس والرشاش، بل باليدين بلا سلاح أحياناً». ثم تزعم أنها انتقلت فيما بعد وانضمت إلى معسكرات تدريب لمجموعات في سوريا، كما ولـ «حزب الله» في لبنان.

حرف الهاء

1 ـ هان بيش هانسون.

2 ـ هبة سليم.

3 ـ هستر ستانهوب.

هان بيش هانسون(*)
(Hann Bich Hanson)
(1939 -)

هي إحدى أبرز نساء الدانمرك التي عيّنت في العام 1988، على رأس دائرة للاستخبارات السرّية في بلدها، وكانت آنذاك في التاسعة والأربعين من عمرها. والجدير بالذكر، أنها المرّة الأولى التي يتم فيها تعيين امرأة في هذا المنصب في الدانمرك. ثم جرى تعيين رائدة أخرى، وهي ستيلا ريمينغتون التي أحيلت على التقاعد مؤخراً، لرئاسة القسم «MI5» في العام 1992، بعد أن كانت أدارت القسم «F» (العمل الهدام السياسي) وشغلت منصباً عملياتياً خطيراً في بلفاست. وهي بريطانية خدمت الجاسوسية الإنكليزية فترة طويلة لاسيما في الهند، باعتبارها زوجة أحد الدبلوماسيين البريطانيين الذي كان يعمل في الهند عام 1965.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسة العالمية...». مرجع سابقاً. ص 222.

هبة سليم (*)
(Hiba Sleem)
(1973 -)

هي مصرية الجنسية، وإحدى عميلات الموساد التي انكشف أمرها وأعدمت رغم تدخّل هنري كيسنجر شخصياً بشأنها. إذ منذ أن كتب الأستاذ صالح مرسي قصة «عبلة كامل» في فيلم «الصعود إلى الهاوية» وصورة هذه الخائنة مرتسمة بخيالنا.. وحفظنا تفاصيل تجنيدها وخيانتها حتى سقطت في قبضة المخابرات المصرية هي وخطيبها.

والجديد هنا في قصة عبلة كامل.. أو «هبة سليم» الحقيقية.. معلومات جديدة تماماً أعلن عنها مؤخراً.. وكانت خافية حتى بضع سنوات خلت.. كشفت النقاب عن شريكها الضابط العسكري المقدم فاروق الفقي.

إنها قصة مثيرة وعجيبة.. قصة أول جاسوسة عربية استُغلَّت أيديولوجياً.. وعملت لصالح الموساد ليس لأجل المال أو الجاه أو أي شيء سوى الوهم.. الوهم فقط..

(*) المرجع: فريد الفالوجي «جواسيس الموساد العرب». مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى 2003، ص 191 ـ 204.
وسعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». دار الجيل، بيروت. 1995، ص 282 ـ 292.

فكانت بذلك أول حالة شاذة لم تماثلها حالة أخرى من قبل.. أو بعد..!! ـ كما يقول فريد الفالوجي ـ.

حقائق ثابتة

لم تدخر المخابرات الإسرائيلية وسيلة عند تجنيدها للجواسيس إلا وجربتها. وأيضاً ـ لم تعتمد على فئة معينة من الخونة.. بل جندت كل من صادفها منهم واستسهل بيع الوطن بثمن بخس وبأموال.. حرام، وأشهر هؤلاء على الإطلاق ـ هبة عبد الرحمن سليم عامر ـ وخطيبها المقدم فاروق عبد الحميد الفقي.

إنها إحدى أشرس المعارك بين المخابرات الحربية المصرية والمخابرات الإسرائيلية. معركة أديرت بذكاء شديد وبسرّية مطلقة، انتصرت فيها المخابرات المصرية في النهاية. وأفقدت العدو توازنه، وبرهنت على يقظة هؤلاء الأبطال الذين يحاربون في الخفاء من أجل الحفاظ على أمن الوطن وسلامته.

لقد بكت غولدا مائير حزناً على مصير هبة التي وصفتها بأنها «قدّمت لإسرائيل أكثر مما قدّم زعماء إسرائيل». وعندما جاء هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ليرجو السادات تخفيف الحكم عليها.. كانت هبة تقبع في زنزانة انفرادية لا تعلم أن نهايتها قد حانت بزيارة الوزير الأمريكي.

لقد تنبّه السادات فجأة إلى أنها قد تصبح عقبة كبيرة في طريق السلام، فأمر بإعدامها فوراً، ليسدل الستار على قصة الجاسوسة التي باعت مصر ليس من أجل المال أو الجنس أو العقيدة.. إنما لأجل الوهم الذي سيطر على عقلها وصوّر لها بأن إسرائيل دولة عظمى لن

يقهرها العرب. وجيشها من المستحيل زحزحته عن شبر واحد من سيناء، وذلك لأن العرب أمة متكاسلة أدمنت الذل والفشل. فتفرقت صفوفهم ووهنت قوتهم. . إلى الأبد.

آمنت هبة بكل هذه الخرافات، ولم يستطع والدها ـ وكيل الوزارة بالتربية والتعليم ـ أن يمحو أوهامها أو يصحّح لها خطأ هذه المفاهيم.

ولأنها تعيش في حيّ المهندسين الراقي وتحمل كارنيه عضوية في نادي «الجزيرة» ـ أشهر نوادي القاهرة ـ فقد اندمجت في وسط شبابي لا تثقل عقله سوى أحاديث الموضة والمغامرات. وبرغم هزيمة 1967 الفادحة والمؤلمة للجميع. . إلا أن هبة انخرطت في «جروب» ـ أي جماعة ـ من شلة أولاد الذوات تسعى خلف أخبار الهيبز، وملابس الكاوبوي وأغاني ألفيس بريسلي.

وعندما حصلت على الثانوية العامة ألحت على والدها للسفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي. فالغالبية العظمى من شباب النادي أبناء الهاي لايف، لا يدخلون الجامعات المصرية ويفضلون جامعات أوروبا المتحضرة.

وأمام ضغوط الفتاة الجميلة وحبات لؤلؤ مترقرقة سقطت على خديها، وافق الأب وهو يلعن هذا الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ولا بد من مسايرة عاداته وتقاليده. .

وفي باريس لم تنبهر الفتاة كثيراً. فالحرية المطلقة التي اعتادتها في مصر كانت مقدمة ممتازة للحياة وللتحرر في عاصمة النور.

ولأنها درست الفرنسية منذ طفولتها فقد كان من السهل عليها أيضاً أن تتأقلم بسرعة مع هذا الخليط العجيب من البشر. ففي

الجامعة كانت تختلف كل الصور عما ترسب بمخيلتها. . إنها الحرية بمعناها الحقيقي، الحرية في القول والتعبير. . وفي اختيار المواد الدراسية. . بل وفي مواعيد الامتحان أيضاً، فضلاً عن حرية العلاقة بين الجنسين التي عادة لا تقتصر على الحياة الجامعية فحسب. . بل تمتد خارجها في شمولية ممتزجة باندفاع الشباب والاحتفاء بالحياة.

جمعتها مدرجات الجامعة بفتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات يوم لسهرة بمنزلها، وهناك التقت بلفيف من الشباب اليهود الذي تعجب لكونها مصرية جريئة لا تلتفت إلى الخلف، وتنطلق في شراهة تمتص رحيق الحرية. . ولا تهتم بحالة الحرب التي تخيم على بلدها، وتهيمن على الحياة بها.

لقد أعلنت صراحة في شقة البولندية أنها تكره الحرب، وتتمنى لو أن السلام عمّ المنطقة. وفي زيارة أخرى أطلعتها زميلتها على فيلم يصور الحياة الاجتماعية في إسرائيل، وأسلوب الحياة في «الكيبوتز» وأخذت تصف لها كيف أنهم ليسوا وحوشاً آدمية كما يصوّرهم الإعلام العربي، بل هم أناس على درجة عالية من التحضّر والديمقراطية.

وعلى مدار لقاءات طويلة مع الشباب اليهودي والامتزاج بهم بدعوى الحرية التي تشمل الفكر والسلوك. . استطاعت هبة أن تستخلص عدة نتائج تشكلت لديها كحقائق ثابتة لا تقبل السخرية. أهم هذه النتائج أن إسرائيل قوية جداً وأقوى من كل العرب. وأن أمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل في يوم من الأيام بالسلاح الشرقي. ففي ذلك هزيمة لها.

آمنت هبة أيضاً بأن العرب يتكلمون أكثر مما يعملون. وقادتها

هذه النتائج إلى حقد دفين على العرب الذين لا يريدون استغلال فرصة وجود إسرائيل بينهم ليتعلموا كيفية اختزال الشعارات إلى فعل حقيقي. وأول ما يبدأون به هو نبذ نظم الحكم التي تقوم على ديمقراطية كاذبة وعبادة للحاكم.

وثقت هبة أيضاً في أحاديث ضابط الموساد الذي التقت به في شقة صديقتها. . وأوهمها باستحالة أن ينتصر العرب على إسرائيل وهم على خلاف دائم وتمزق خطير، في حين تلقى إسرائيل الدعم اللازم في جميع المجالات من أوروبا وأمريكا.

هكذا تجمعت لديها رؤية أيديولوجية باهتة، تشكلت بمقتضاها اعتقاداتها الخاطئة، التي قذفت بها إلى الهاوية.

الشك المجنون

كانت هذه الأفكار والمعتقدات التي اقتنعت بها الفتاة سبباً رئيسياً لتجنيدها للعمل لصالح الموساد. . دون إغراءات مادية أو عاطفية أثرت فيها، مع ثقة أكيدة في قدرة إسرائيل على حماية «أصدقائها» وإنقاذهم من أي خطر يتعرضون له في أي مكان من العالم.

هكذا عاشت الفتاة أحلام الوهم والبطولة. وأرادت أن تقدم خدماتها لإسرائيل طواعية ولكن. . كيف؟ الحياة في أوروبا أنستها هواء الوطن. . وأغاني عبد الحليم حافظ الوطنية. . وبرج القاهرة الذي بناه عبد الناصر من أموال المخابرات الأمريكية التي سخرتها لاغتياله.

فقد تذكرت فجأة المقدم فاروق الفقي الذي كان يطاردها في

نادي الجزيرة، ولا يكف عن تحيّن الفرصة للانفراد بها. . وإظهار إعجابه الشديد ورغبته الملحّة في الارتباط بها. لقد ملّت كثيراً مطارداته لها من قبل في النادي وخارج النادي، وكادت يوماً ما أن تنفجر فيه غيظاً في التليفون. . وذلك عندما تلاحقت أنفاسه اضطراباً وهو يرجوها أن تحس به. مئات المرات قال لها: «أعبدك. . أحبك. . أهواك يا صغيرتي». . ولكنها كانت قاسية عنيفة في صدّه.

تذكرت هبة هذا الضابط الولهان، وتذكرت وظيفته الهامة في مكان حساس في القوات المسلحة المصرية، وعندما أخبرت ضابط الموساد عنه. . . كاد أن يطير بها فرحاً، ورسم لها خطة اصطياده.

وفي أول إجازة لها بمصر. . كانت مهمتها الأساسية تنحصر في تجنيده. . وبأي ثمن. وكان الثمن خطبتها له. وفرح الضابط العاشق بعروسه الرائعة التي فاز بها أخيراً. وبدأت تدريجياً تسأله عن بعض المعلومات والأسرار الحربية. . وبالذات مواقع الصواريخ الجديدة التي وصلت من روسيا. . فكان يتباهى أمامها بأهميته ويتكلم في أدق الأسرار العسكرية، ويجيء لها بالخرائط زيادة في شرح التفاصيل.

أرسلت هبة سليم على الفور بعدة خطابات إلى باريس بما لديها من معلومات. . ولما تبينت إسرائيل خطورة وصحة ما تبلغه هذه الفتاة لهم. . اهتموا بها اهتماماً فوق الوصف. وبدأوا في توجيهها إلى الأهم في تسليح ومواقع القوات المسلحة. . وبالذات قواعد الصواريخ والخطط المستقبلية لإقامتها، والمواقع التبادلية المقترحة.

وسافرت هبة إلى باريس مرة ثانية تحمل بحقيبتها عدة صفحات. . دونت بها معلومات غاية في السرية والأهمية للدرجة التي حيّرت المخابرات الإسرائيلية. فماذا سيقدمون مكافأة للفتاة الصديقة؟

سؤال كانت إجابته عشرة آلاف فرنك فرنسي حملها ضابط الموساد إلى الفتاة. . مع وعد بمبالغ أكبر وهدايا ثمينة وحياة رغدة في باريس. رفضت هبة النقود بشدة وقبلت فقط السفر إلى القاهرة على نفقة الموساد بعد ثلاثة أشهر من إقامتها بباريس. كانت الوعود البراقة تنتظرها في حالة ما إذا جندت خطيبها ليمدهم بالأسرار العسكرية التي تمكنهم من اكتشاف نوايا المصريين تجاههم.

لم يكن المقدم فاروق بحاجة إلى التفكير في التراجع. إذ إن الحبيبة الرائعة هبة كانت تعشش بقلبه وتستحوذ على عقله. . ولم يعد يملك عقلاً ليفكر، بل يملك طاعة عمياء سخرها لخدمة إرادة حبيبته.

وعندما أخذها في سيارته الفيات 124 إلى صحراء الهرم. . كان خجولاً لفرط جرأتها معه، وادّعت بين ذراعيه أنها لم تصادف رجلاً قبله أبداً. وأبدت رغبتها في قضاء يوم كامل معه في شقته. ولم يصدق أذنيه. فهو قد ألح عليها كثيراً من قبل لكنها كانت ترفض بشدة. الآن تعرض عليه ذلك بحجة سفرها. وفي شقته بالدقي تركت لعابه يسيل. وجعلته يلهث ضعفاً وتذللاً. .

ولما ضمّها إلى صدره في نهم ورغبة واقتربت شفتاه منها. . صدّته في تمنع كاذب. فاندفع إليها بشوق أكثر، ولملم جرأته كلها وأطبق على شفتيها يروي ظمأً ملهوفاً تلسعه موجات من قوة أنوثتها. فأذاقته قبلة طويلة غمست بلذائذ من النشوة، وحمم من الرغبات، فطار عقله وبدا كطفل تشبث بأمه في لحظة الجوع، لكنها. . هيهات أن تمنحه كل ما يريد. فقد حجبت عنه رعشة الوطر وأحكمت قيدها حول رقبته فمشى يتبعها أينما سارت. . وسقط ضابط الجيش المصري في بئر الشهوة ووقّع وثيقة خيانته عارياً على صدرها، ليصير في النهاية

عميلاً للموساد تمكن من تسريب وثائق وخرائط عسكرية.. موضحاً عليها منصَّات الصواريخ «سام 6» المضادة للطائرات.. التي كانت القوات المسلحة تسعى ليل نهار لنصبها لحماية مصر من غارات العمق الإسرائيلية.

لقد تلاحظ للقيادة العامة للقوات المسلحة ولجهازي المخابرات العامة والحربية، أن مواقع الصواريخ الجديدة تدمر أولاً بأول بواسطة الطيران الإسرائيلي.. حتى قبل أن يجف الإسمنت المسلح بها، وحدوث خسائر جسيمة في الأرواح، وتعطيل في تقدم العمل وإنجاز الخطة التي وضعت لإقامة حائط الصواريخ المضادة للطائرات.

تزامنت الأحداث مع وصول معلومات لرجال المخابرات المصرية.. بوجود عميل «عسكري» قام بتسريب معلومات سرية جداً إلى إسرائيل. وبدأ شك مجنون في كل شخص ذي أهمية في القوات المسلحة، وفي مثل هذه الحالات لا يستثنى أحد بالمرة بدءاً من وزير الدفاع.

يقول السفير عيسى سراج الدين سفير مصر في كوبنهاجن.. ووكيل وزارة الخارجية بعد ذلك:

«اتسعت دائرة الرقابة التليفزيونية والبريدية لتشمل دولاً كثيرة أخرى، مع رفع نسبة المراجعة والرقابة إلى مائة في المائة من الخطابات وغيرها، كل ذلك لمحاولة كشف الكيفية التي تصل بها هذه المعلومات إلى الخارج. كما بدأت رقابة قوية وصارمة على حياة وتصرفات كل من تتداول أيديهم هذه المعلومات من القادة، وكانت رقابة لصيقة وكاملة. وقد تبينت طهارتهم ونقاءهم.

ثم أدخل موظفو مكاتبهم في دائرة الرقابة.. ومساعدوهم ومديرو مكاتبهم.. وكل من يحيط بهم مهما صغرت أو كبرت رتبته».

وفي تلك الأثناء كانت هبة سليم تعيش حياتها بالطول وبالعرض في باريس. عرفت الخمر والتدخين وعاشت الحياة الأوروبية بكل تفاصيلها. وكانت تشعر في قرارة نفسها بأنها خلقت لتعيش في أوروبا. وتكره مجرد مرور خاطرة سريعة تذكرها بمصريتها.

لقد نزفت عروبتها نزفاً من شرايين حياتها، وتهللت بشراً عندما عرض عليها ضابط الموساد زيارة إسرائيل، فلم تكن لتصدق أبداً أنها مهمة إلى هذه الدرجة. ووصفت هي بنفسها تلك الرحلة قائلة:

طائرتان حربيتان رافقتا طائرتي كحرس شرف وتحية لي. وهذه إجراءات تكريمية لا تقدم أبداً إلا لرؤساء وملوك الدول الزائرين. حيث تقوم الطائرات المقاتلة بمرافقة طائرة الضيف حتى مطار الوصول.

وفي مطار تل أبيب كان ينتظرني عدد من الضباط اصطفوا بجوار سيارة ليموزين سوداء تقف أسفل جناح الطائرة، وعندما أدوا التحية العسكرية لي تملكني شعور قوي بالزهو. واستقبلني في مكتبه مائير عاميت رئيس جهاز الموساد وأقام لي حفل استقبال ضخماً ضم نخبة من كبار ضباط الموساد على رأسهم مايك هراري الأسطورة. وعندما عرضوا تلبية كل «أوامري».. طلبت مقابلة غولدا مائير رئيسة الوزراء التي هزمت العرب ومرغت كرامتهم. ووجدت على مدخل مكتبها صفاً من عشرة جنرالات إسرائيليين أدوا لي التحية العسكرية.. وقابلتني مسز مائير ببشاشة ورقّة وقدمتني إليهم قائلة: «إن هذه الآنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لها جميعاً مجتمعين».

وبعد عدة أيام عدت إلى باريس.. وكنت لا أصدق أن هذه الجنة «إسرائيل» يتربص بها العرب ليدمروها!!.

سفر بلا عودة

وفي القاهرة.. كان البحث لا يزال جارياً على أوسع نطاق، والشكوك تحوم حول الجميع، إلى أن اكتشف أحد مراقبي الخطابات الأذكياء «من المخابرات الحربية» خطاباً عادياً مرسلاً إلى فتاة مصرية في باريس سطوره تفيض بالعواطف من حبيبها. لكن الذي لفت انتباه المراقب الذكي عبارة كتبها مرسل الخطاب تقول إنه قام بتركيب إيريال الراديو الذي عنده، ذلك أن عصر إيريال الراديو قد انتهى. إذن.. فالإيريال يخص جهازاً لاسلكياً للإرسال والاستقبال.

وانقلبت الدنيا في جهازي المخابرات الحربية والمخابرات العامة وعند ضباط البوليس الحربي، وتشكلت عدة لجان من أمهر رجال المخابرات، ومع كل لجنة وكيل نيابة ليصدر الأمر القانوني بفتح أي مسكن وتفتيشه. وكانت الأعصاب مشدودة حتى أعلى المستويات في انتظار نتائج اللجان، حتى عثروا على جهاز الإيريال فوق إحدى العمارات.. واتصل الضباط في الحال باللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية وأبلغوه باسم صاحب الشقة.. فقام بإبلاغ الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الدفاع «قبل أن يصبح مشيراً» الذي قام بدوره بإبلاغ الرئيس السادات.

حيث تبين أن الشقة تخص المقدم فاروق الفقي، وكان يعمل وقتها مديراً لمكتب أحد القيادات الهامة في الجيش، وكان بحكم موقعه مطّلعاً على أدق الأسرار العسكرية، فضلاً عن دوره الحيوي في منظمة سيناء.

وكان الضابط الجاسوس أثناء ذلك في مهمة عسكرية بعيداً عن القاهرة.

وعندما اجتمع اللواء فؤاد نصار بقائد الضابط الخائن. . «قيل بعد ذلك أنه ضابط كبير له دور معروف في حرب أكتوبر (تشرين الأول) واشتهر بخلافه مع الرئيس السادات حول الثغرة». . رفض القائد أن يتصور حدوث خيانة بين أحد ضباط مكتبه. خاصة وأن المقدم فاروق يعمل معه منذ تسع سنوات، بل وقرر أن يستقيل من منصبه إذا ما ظهر أن رئيس مكتبه جاسوس للموساد.

وعندما دخل الخائن إلى مكتبه. . كان اللواء حسن عبد الغني نائب مدير المخابرات الحربية ينتظره جالساً خلف مكتبه بوجه صارم وعينين قاسيتين فارتجف رعباً وقد جحظت عيناه وقال في الحال «هو أنتم عرفتوا؟؟؟».

وعندما ألقى القبض عليه استقال قائده على الفور، ولزم بيته حزيناً على خيانة فاروق والمعلومات الثمينة التي قدمها للعدو.

وفي التحقيق اعترف الضابط الخائن تفصيلياً بأن خطيبته جندته بعد قضاء ليلة حمراء معها. . وأنه رغم إطلاعه على أسرار عسكرية كثيرة إلا أنه لم يكن يعلم أنها ستفيد العدو.

وعند تفتيش شقته أمكن العثور على جهاز اللاسلكي المتطور الذي يبث من خلاله رسائله، وكذا جهاز الراديو ونوتة الشفرة، والحبر السري الذي كان بزجاجة دواء للسعال. ضبطت أيضاً عدة صفحات تشكل مسودة بمعلومات هامة جداً معدة للبث، ووجدت خرائط عسكرية بالغة السرية لأحشاء الجيش المصري وشرايينه، تضم مواقع القواعد الجوية والممرات والرادارات والصواريخ ومرابض الدفاعات الهامة.

وفي سرّية تامة. . قدم سريعاً للمحاكمة العسكرية التي أدانته

بالإعدام رمياً بالرصاص. . واستولى عليه ندم شديد عندما أخبروه بأنه تسبب في مقتل العديد من العسكريين من زملائه من جراء الغارات الإسرائيلية. وأخذوه في جولة ليرى بعينه نتائج تجسسه. فأبدى استعداده مرات عديدة لأن يقوم بأي عمل يأمرونه به. ووجدوا ـ بعد دراسة الأمر بعناية ـ أن يستفيدوا من المركز الكبير والثقة الكاملة التي يضعها الإسرائيليون في هذا الثنائي. وذلك بأن يستمر في نشاطه كالمعتاد خاصة والفتاة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

وفي خطة بارعة من مخابراتنا الحربية، أخذوه إلى فيلا محاطة بحراسة مشددة، وبداخلها نخبة من أذكى وألمع رجال المخابرات المصرية تتولى «إدارة» الجاسوس وتوجيهه، وإرسال الرسائل بواسطة جهاز اللاسلكي الذي أحضرته له الفتاة ودربته عليه. وكانت المعلومات التي ترسل هي بالطبع من صنع المخابرات الحربية، وتم توظيفها بدقة متناهية في تحقيق المخطط للخداع، حيث كانت حرب تشرين الأول/ أكتوبر قد اقتربت، وهذه هي إحدى العمليات الرئيسية للخداع التي ستترتب عليها أمور استراتيجية مهمة بعد ذلك.

لقد كان من الضروري الإبقاء على هبة في باريس والتعامل معها بواسطة الضابط العاشق. واستمر الاتصال معها بعد القبض عليه لمدة شهرين، ولما استشعرت القيادة العامة أن الأمر أخذ كفايته. . وأن القيادة الإسرائيلية قد وثقت بخطة الخداع المصرية وابتلعت الطعم، تقرر استدراج الفتاة إلى القاهرة بهدوء. . لكي لا تهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشف أمر خطيبها المعتقل.

وفي اجتماع موسع. . وضعت خطة القبض على هبة. . وعهد إلى اللواء حسن عبد الغني ومعه ضابط آخر بالتوجه إلى ليبيا لمقابلة

والدها في طرابلس حيث كان يشغل وظيفة كبيرة هناك. وعرفاه على شخصيتهما وشرحا له أن ابنته هبة التي تدرس في باريس تورطت في عملية اختطاف طائرة مع منظمة فلسطينية، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها.. وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم تورطها، ولمنع الزج باسم مصر في مثل هذه العمليات الإرهابية. وطلبا منه أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته حيث إنه مصاب بذبحة صدرية.

أرسل الوالد برقية عاجلة لابنته.. فجاء ردها سريعاً ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابلس إلى باريس.. حيث إنها حجزت له في أكبر المستشفيات هناك وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف في المطار.. وأن جميع الترتيبات للمحافظة على صحته قد تم اتخاذها.

ولكي لا تترك المخابرات المصرية ثغرة واحدة قد تكشف الخطة بأكملها.. فقد تم إبلاغ السلطات الليبية بالقصة الحقيقية، فتعاونت بإخلاص مع الضابطين من أجل اعتقال الجاسوسة المصرية. وتم حجز غرفة في مستشفى طرابلس وإفهام الأطباء المسؤولين مهمتهم وما سيقومون به بالضبط.

وبعدما أرسل والدها رداً بعدم استطاعته السفر إلى باريس لصعوبة حالته.. صحّ ما توقعه الضابطان، إذ حضر شخصان من باريس للتأكد من صحة البرقية وخطورة المرض، وسارت الخطة كما هو مرسوم لها، وذهب الإسرائيليان إلى المستشفى وتأكدا من الخبر، فاتصلا في الحال بالفتاة التي ركبت الطائرة الليبية في اليوم التالي إلى طرابلس.

وعلى سلم الطائرة عندما نزلت هبة عدة درجات كان الضابطان

المصريان في انتظارها، وصحباها إلى حيث تقف الطائرة المصرية على بعد عدة أمتار من الطائرة الليبية.. فسألتهما: «إحنا رايحين فين؟».

فردّ أحدهما:

«المقدم فاروق عايز يشوفك».

فقالت:

«هو فين».

فقال لها:

«في القاهرة».

صمتت برهة ثم سألت:

«أمال إنتم مين؟».

فقال اللواء حسن عبد الغني:

«إحنا المخابرات المصرية».

وعندما أوشكت أن تسقط على الأرض.. أمسكا بها وحملاها حملاً إلى الطائرة التي أقلعت في الحال، بعد أن تأخرت ساعة عن موعد إقلاعها في انتظار الطائرة القادمة من باريس بالهدية الغالية.

لقد تعاونت شرطة المطار الليبي في تأمين انتقال الفتاة لعدة أمتار حيث تقف الطائرة المصرية.. وذلك تحسباً من وجود مراقب أو أكثر صاحب الفتاة في رحلتها بالطائرة من باريس.. قد يقدم على قتل الفتاة قبل أن تكشف أسرار علاقتها بالموساد.

وبلا شك.. فاعتقال الفتاة بهذا الأسلوب الماهر جعلها تتساءل عن القيمة الحقيقية للوهم الذي عاشته مع الإسرائيليين. فقد تأكدت

أنهم غير قادرين على حمايتها أو إنقاذها من حبل المشنقة. وهذا ما جعلها تعترف بكل شيء بسهولة بالتفصيل.. منذ أن بدأ التحقيق معها في الطائرة بعد إقلاعها مباشرة. وبعد أيام قليلة من اعتقالها تبين لها وللجميع عجز الإسرائيليين عن حماية إسرائيل نفسها وعدم قدرتهم على إنقاذها.

فقد جاءت حرب تشرين الأول/أكتوبر وتدمير خط بارليف بمثابة الصدمة التي أذهلت أمريكا قبل إسرائيل. فالخداع المصري كان على أعلى مستوى من الدقة والذكاء. وكانت الضربة صائبة إذ أربكت العدو وأشلته.. لولا المدد العسكري الأمريكي.. والأسلحة المتطورة.. والصواريخ السرية.. والمعونات.. وإرسال الطيارين والفنيين الأمريكان كمتطوعين.

لقد خسرت إسرائيل في ذلك الوقت من المعركة حوالي مائتي طائرة حربية. ولم تكن تلك الخسارة تهم القيادة الإسرائيلية بقدر ما خسرته من طيارين ذوي كفاءة عالية قتلوا في طائراتهم، أو انهارت أعصاب بعضهم ولم يعودوا صالحين للقتال. ولقد سبب سقوط الطائرات الإسرائيلية بالعشرات حالة من الرعب بعد عدة أيام من بدء المعركة.. إلى أن وصلت المعونات الأمريكية لإسرائيل في شكل طيارين وفنيين ووسائل إعاقة وتشويش حديثة.

لا أحد يعرف

تبخرت أوهام الجاسوسة هبة سليم.. وأيقنت أنها كانت ضحية الوهم الذي سيطر على فكرها وسرى بشرايينها لمدة طويلة للدرجة التي ظنت أنها تعيش الواقع من خلاله.. لكن.. ها هي الحقائق تتضح بلا رتوش أو أكاذيب.

لقد حكم عليها بالإعدام شنقاً بعد محاكمة منصفة اعترفت صراحة أمامها بجريمتها. . وأبدت ندماً كبيراً على خيانتها. وتقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية [أنور السادات] لتخفيف العقوبة لكن التماسها رفض.

وكانت تعيش أحلك أيامها بالسجن تنتظر تنفيذ الحكم. . عندما وصل هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ـ اليهودي الديانة ـ لمقابلة السادات في أسوان في أول زيارة له إلى مصر بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر. . وحملته غولدا مائير رسالة إلى السادات ترجوه تخفيف الحكم على الفتاة. ومن المؤكد أن كيسنجر كان على استعداد لوضع ثقله كله وثقل دولته خلف هذا الطلب. وتنبه الرئيس السادات الذي يعلم بتفاصيل التحقيقات مع الفتاة وصدور الحكم بإعدامها. . إلى أنها ستصبح مشكلة كبيرة في طريق السلام. فنظر إلى كيسنجر قائلاً:

«تخفيف حكم؟. . ولكنها أعدمت. . !!».

دهش كيسنجر وسأل الرئيس:

«متى» . . ؟

ودون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية قال السادات كلمة واحدة:

«النهارده». وفعلاً. . تم تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في هبة سليم في اليوم نفسه في أحد سجون القاهرة.

أما الضابط العاشق ـ المقدم فاروق عبد الحميد الفقي ـ فقد استقال قائده من منصبه لأنه اعتبر نفسه مسؤولاً عنه بالكامل. وعندما

طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته.. رفض بشدة وأمام إصرار القيادة على ضرورة سحب استقالته.. خاصة والحرب وشيكة.. اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام في الضابط الخائن. ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية.. وما يتبع في مثل هذه الأحوال.. فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع «الحربية» الذي عرض الأمر على الرئيس السادات «القائد الأعلى للقوات المسلحة» فوافق فوراً ودون تردد.

وعندما جاء وقت تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص في الضابط الخائن.. لا أحد يعرف ماذا كان شعور قائده وهو يتقدم ببطء.. يسترجع في شريط سريع تسع سنوات مرت عليهما في مكتب واحد.. تسع سنوات كان بعضها في سواد الليل.. وبعضها تتلألأ خلاله ومضات الأمل قادمة من بعيد.. الأمل في الانتصار على الصهاينة الخنازير القتلة السفاحين.. وبينما كان يخطط لحرب تشرين الأول/ أكتوبر كان بمكتبه هذا الخائن الذي باع الوطن والأمن وقتل بخيانته أبرياء..

لا أحد يعرف ماذا قال القائد له. وماذا كان رد الضابط عليه.. لا أحد يعرف.

هل طلب منه أن ينطق بالشهادتين. وأن يطلب المغفرة من الله؟.. لا أحد يعرف.

لكن المؤكد أنه أخرج مسدسه من جرابه.. وصوّبه إلى رأس الضابط وأطلق طلقتين عليه كما تقضي التعليمات العسكرية في حالة إعدام الخونة..

هستر ستانهوب(*)
(Hester Stanhope)
(1838 - 1782)

تعددت الآراء حول هذه السيدة البريطانية التي تنقلت بين قصور إنكلترا وعجائب الشرق، كما كثرت الروايات حول دورها المخابراتي والتجسسي أيضاً.

فمن هي الليدي ستانهوب هذه؟

كثيرات هن النساء اللواتي حلمن بالعظمة. لكن التاريخ لا يرحم، فهو كالمصفاة، لا يبقى فيه إلا من كان له الحجم الكافي، أما الأحلام فتبقى أحلاماً.

إهستر ستانهوب عرفت كيف تسجل اسمها في التاريخ، وهي ابنة اللورد تشارلز ستانهوب والليدي هستربت، ابنة شاتهام الكبير، رئيس وزراء جورج الثالث ملك بريطانيا: شخصية قوية، إرادة صلبة، شغف كبير بالقراءة والمعرفة والاطلاع، استهتار بالفضائح، وثقة بالنفس حتى الجنون.

(*) المرجع: جورج أسطفان في مقال له نشر في مجلة «الوسط». العدد (586) في 21 نيسان (أبريل) 2003. ص 16.

كانت منذ صغرها محبة للحرية، بعيدة عن الهموم اليومية للعائلة. وبصفتها كبيرة العائلة، كانت تجد لذة واضحة في توزيع الأوامر يمنة ويسرة، غير آبهة لقسوة والدها، عضو مجلس العموم، وصاحب الاختراعات القيّمة، والمنفتح على العالم والداعي إلى التحرر وإعتاق العبيد.

لم تجد هستر من يقاسمها همومها، فهي لا تشبه الآخرين. فراحت تبحث عن حرية خاصة، بينما كان والدها ينشر تعاليم الثورة الفرنسية القائمة في البلد المجاور، والمهددة، عبر المانش، عرش الملك جورج الثالث في لندن. فانتهى به ذلك إلى قطيعة شبه نهائية مع أخ زوجته الشهير، وليام بت، الذي كان تولى رئاسة الحكومة منذ فترة، أما هستر ستانهوب ابنة الثانية عشرة، فاختارت بسرعة أن تتبع خالها الذي يكن لها محبة وإعجاباً كبيرين.

كبرت الفتاة الصغيرة لتبلغ الثامنة عشرة عام 1800، لافتة الأنظار بقامتها الممشوقة (180 سنتم)، ما يزيدها تعالياً وأنفة، ووصلت بها جرأتها إلى أنها لم تخفض يوماً عينيها أمام أحد، ولا حتى أمام الملك.

في تلك الفترة من حياتها، تعثر وليام بت في القضية الإيرلندية، وخسر رئاسة الحكومة، فانتقل للسكن في «والمر» حيث لحقت به ابنة أخته الصبية، التي أصبحت محط أنظار الجميع، خصوصاً الرجال. لكنهم لم يلفتوا انتباهها، فأهدافها مختلفة، وهي تنظر إلى البعيد البعيد. إلى أن تلتقي في أحد احتفالات الطبقة الراقية الجنرال مور، فيخفق قلبها للمرة الأولى ويقع الاثنان في غرام بعضهما البعض.

كانت الحروب تتتالى في تلك المرحلة من التاريخ، (1802 ـ

1804). وخوفاً من بطش نابليون، طلبت إنكلترا مجدداً من وليام بت تولي رئاسة الحكومة، فاستفادت هستر من المناسبة لتظهر قدراتها في الحكم وإعطاء الأوامر. تصنع كبار الضباط وتقيل الوزراء، ويطيعها الجميع ويصبح اسمها على كل شفة ولسان. وكانت في هذه الأثناء، وهي الناظرة إلى ما وراء حقيقة الأشياء، قد قرأت كتاب «القدس الجديدة» للسويدي سويندنبرغ كما تعرفت على ريتشارد براذرز، مدعي النبوءة ومعرفة المستقبل، الذي كان يعتبر نفسه صاحب ديانة جديدة. فكانت بداية انتقالها نحو التفكير الفلسفي، والاهتمام بالحياة والموت وما وراءهما.

إلا أن الموت كان في انتظار وليام بت، وبالتالي موت أحلام الليدي ستانهوب المتألمة حتى اليأس لموت خالها الذي أحبت. فيكون قرارها الحاسم، بعد أن يخونها الجميع ويحاولون الانتقام منها، الإبحار في تفكيرها الصوفي الذي يدعوها نهائياً إلى الابتعاد عن الوطن الأم، باتجاه مهد الحضارات والديانات والفلسفة.

وتوالت الضربات، ففقدت الجنرال مور الذي سقط في الحرب، وكذلك أخاها تشارلز، وهي في الثلاثين من عمرها. فتتذكر كلام ريتشارد براذرز الذي كان قد توقع لها مستقبلاً ملكياً في المشرق العربي. فحزمت حقائبها ورحلت مع حاشية صغيرة، من ضمنها الطبيب الشاب تشارلز ميرون، وركبت البحر في 10 شباط (فبراير) 1810، ليكون جبل طارق محطتها الأولى، ثم جزيرة مالطا حيث تعرفت على الحاكم الجنرال أوكس الذي أصبح صديقاً لها، كما تعرفت على شاب وسيم يصغرها سناً هو مايكل بروس ابن ثري اسكتلندي، فيكون بينهما حب من النظرة الأولى، ويصبحان عاشقين، وهي في الرابعة والثلاثين.

لا شيء في مالطا يدعوها للبقاء، فتتابع ستانهوب التنقل، من جزر اليونان، حيث تلتقي الشاعر الكبير اللورد بايرون، إلى القسطنطينية، ثم إلى الإسكندرية فالقاهرة في كانون الثاني (يناير) 1812، حيث يدعوها محمد علي باشا إلى احتفال كبير، ويحتفي بها احتفاء الملوك، فتنهال عليها الدعوات من كل حدب وصوب وتسبقها شهرتها أينما اتجهت.

في إحدى الحفلات التي دعاها إليها السفير الإنكليزي في القاهرة الميجور مِسْت التقت ستانهوب عالم الآثار فنسنت بوتان الذي كان في الحقيقة أبرع وأشهر جواسيس نابليون فأصبح صديقاً لها وتواعدا على المراسلة بعد الفراق.

لكن القاهرة كانت مضجرة بالنسبة إليها فقررت التوجه نحو الأراضي المقدسة في فلسطين وهي تعرف في قرارة نفسها إنها كانت وجهتها الأساسية، منذ البداية، عبر النيل إلى دمياط، ثم بحراً إلى يافا لتبلغها في 14 أيار (مايو)، فتستقبل مجدداً استقبال الملوك، وتنهال الدعوات كالعادة. لكن القدس هي قبلة أنظارها، فتترك يافا إليها حيث يستقبلها الوالي العثماني كنجي أحمد، وقد سبقتها شهرتها إليه، مع شلة من الفرسان الأشداء. الذين عايشوا هستر ستانهوب كانوا يدركون إنها ليست سيدة من طينة عادية، فأوروبا لا تعني لها الكثير، ومثالها الأعلى ملكات الشرق القديم: ملكة سبأ، كليوباترا ملكة مصر وزنوبيا. مع انحياز واضح إلى زنوبيا، ملكة تدمر. تدمر التي تراها في أحلامها وفي كل المحطات الحاضرة العريقة في التاريخ، فتشعر إنها زنوبيا الجديدة، ملكة الشرق الجديد، المتكيفة معه، والمتخذة لها ديناً من مجمل ديانات المنطقة. فلم الانتظار؟

على خطى زنوبيا

استراحت ستانهوب في صيدا، بين بساتين البرتقال وعطرها الفواح، وتلقت دعوة من الأمير بشير الشهابي إلى قصره في بيت الدين، ثم اتجهت إلى دمشق، فطريق تدمر تمر من هناك. وعلى رغم نصائح العارفين والمقرّبين إلا أنها لم تأبه لمخاطر الطريق، وما هَمّ إذا كانت امرأة، فهي امرأة من نوع فريد، تفتح لها الأبواب وتختفي المخاطر من طريقها، فيختفي اللصوص وقطاع الطرق، وتزداد شهرتها ومحبة الناس لها، حتى أن قائد البدو في الطريق المؤدية إلى تدمر، يعرض عليها حمايتها حتى بلوغها تدمر، بعدما طيّبه وشفاه طبيبها الخاص ميرون. فتشد الرحال مع حاشية صغيرة وحامية كبيرة، وتعبر الصحراء باتجاه المملكة القديمة.

تدمر العظيمة في متناول يدها. استقبال لا مثيل له، فتنسى أنها رسمت ذات يوم سياسة إنكلترا، وتظن، لوهلة، أنها عن حق زنوبيا ملكة تدمر، وأن ما يحصل لها مكتوب. ألم تقرأ ذلك في كتب سويندنبرغ؟ وفي كلمات ريتشارد بروذرز؟ لكن تدمر، على رغم عظمتها المتبقية، آثار مختفية في الصحراء. فتكتفي هستر بملكها القصير عليها. وتعود أدراجها نحو مملكتها الهاربة دائماً، مخلفة وراءها التقدير والإعجاب والمودة، ولا ينسى أحد في سوريا «الست الإنكليزية» التي تتحدى الرجال والمخاطر.

في اللاذقية يفترق الحبيبان، ويبقى معها الطبيب ميرون، الذي يقصد قرية عبرا القريبة من صيدا للسكن، بينما تعود هي إلى صيدا لتتخذ من دير مار الياس منزلاً دائماً لها.

وتبدأ ستانهوب مرحلة التأملات، الفلسفة الشرقية، الكواكب

والنجوم، فتدعي أنها ترى المستقبل، وتتراءى لها أمور كثيرة، وتتصرف دائماً كملكة لمملكة لا وجود لها. وعندما يزورها مجدداً الجاسوس بوتان تخبره عن تدمر، فيَسّر لها أنه سيسافر قريباً إلى بلاد فارس، وقد يمر بعدها بمملكة زنوبيا. فتنصحه بعدم المخاطرة، إذ تراءى لها الجاسوس الشهير مضرجاً بدمه، تخترقه النبال. لكنه لا يأخذ بالنصيحة.

ووصل نفوذ ستانهوب وقوتها إلى حد إقناع السلطان العثماني بتأمين وصولها مجدداً إلى حيفا للبحث عن كنز مطمور، لكنها تعود خائبة إلى صيدا، لأن أحدهم كان قد سبقها إليه. فتغيرت طباعها، وأصبحت قاسية في تصرفاتها مع الخدم والزوار. وراحت تغرق شيئاً فشيئاً بالديون، فالمصاريف كثيرة، وهي تنتظر رسالة من بوتان. والرسالة لا تصل. فترسل من يبحث عنه ويأتيها الخبر المفجع، الذي يعم المنطقة، مقتل بوتان على يد جماعة الحشاشين. فتقرر الانتقام له، وتقنع باشا عكا بمساعدتها في ذلك فيفعل، ويقتص من الحشاشين، وتصل شهرتها إلى أوروبا.

كانت هستر، على رغم استقبالاتها الكثيرة، محبة للوحدة والتأمل. وكانت تقصد كثيراً التلال المجاورة لمدينة صيدا، وفي يدها مصحف كريم، وكتاب عن الخيول للإمام علي. فتشعر وتتأكد أنها خلقت لتكون هناك وتقول: «هذه البلاد بلادي وموطني».

وشيئاً فشيئاً، تبتعد الست الإنكليزية عن الحضارة، وتجد لنفسها منزلاً في قرية جون الشوفية، فتتحصن فيه، وتحصّنه، بينما تزداد هيبة الأمير بشير لتحجب قوة السلطان، الذي يأمر قواته بمحاربة الأمير، فيهزمه، ويلجأ الأمير الشهابي إلى مصر. فتختار ستانهوب الوقوف إلى

جانب العثمانيين، فهي لا تحب الخاسرين، وتتخلى عن الأمير، وتجعل من منزلها ملاذاً للمظلومين والهاربين والجائعين.

عام 1826، يبلغها خبر وفاة أخيها جيمس، فتضعف صحتها، وتنهار شيئاً فشيئاً، بينما يحاصر رجال الأمير الذي عاد من مصر بعد الهدنة، منزلها الذي يختبىء فيه كثيرون من الجنود، فالأمير يريد الاقتصاص منها، لكنها لا تأبه، وتبقى على عنفوانها وقوتها. ويأتي سكان المنطقة ليلاً لمدها بالمساعدات، غير آبهين بالأخطار، فهي خاطرت كثيراً لتأمين حاجاتهم وحمايتهم.

سنة 1830، وكان قد مضى على مغادرتها إنكلترا حوالي 20 سنة، يحاصرها المدينون من كل صوب لاسترداد أموالهم. لكنها تتمكن من الاستمرار، والحروب مستعرة في الخارج، وإبراهيم باشا يحاصر عكا، ويستولي على صيدا وصور وبيروت ودمشق. فتنفق دراهمها الأخيرة على الخائفين والجائعين، وتبقى أمينة للعثمانيين، كما أنها على رغم الصعاب، تستقبل الشاعر الفرنسي لامارتين، وكان ذلك قبل النهاية بقليل. فيكتب عنها لاحقاً أنها كانت مزيجاً معقداً وذكياً من ديانات مختلفة وفلسفات متنوعة، لكنه يرسم عنها أيضاً صورة مخالفة للواقع، فتحزن كثيراً وتنزوي في منزلها القديم المتهدم.

في بدايات سنة 1837، تتدهور صحة الليدي ستانهوب، وتنتابها مخاوف كثيرة تصيبها أحياناً بالهستيريا التي وصفها كثيرون بالجنون. فتنغلق على نفسها، ويتراءى لها والدها وإخوتها، والجنرال مور الذي أحبت، وفي إحدى آخر رسائلها إلى صديق قديم، تروي له قصة الأسد الذي وقع في شباك صياد، فلم يهرع أحد من بني جنسه لمساعدته على رغم استغاثاته الطويلة، إلى أن يأتي فأر صغير ويقضم

أطراف الشباك، فيفتح ثغرة صغيرة فيها، يتمكن الأسد من توسيعها وينجو.

وتزيد أنها الآن بانتظار الفأر. لكن الفأر لا يأتي. وفي 20 حزيران (يونيو) 1838، وفي ساعات الفجر الأولى، تسلم مملكتها إلى أهل الأرض وتحلق في الأجواء، متحدة مع الطبيعة التي أحبت.

حرف الياء

1 ـ يولاندة غاباي.

2 ـ يوليشكا كورتيز.

يولاندة غاباي(*)
(Yolanda Gabay)
(-   )

إحدى جواسيس الاستخبارات الإسرائيلية.

هي امرأة مصرية بارزة؛ تنحدر من عائلة يهودية غنية من سكان الإسكندرية، وقد عاشت في باريس ردحاً من الزمن، وتخلّقت بأخلاق الغربيين، ولم تكن صهيونية ولكنها كانت تنتشي بأعمال الجاسوسية. وكانت أهم خصائصها لدى «ليفي افراهامي» (وهو من كبار العملاء الإسرائيليين أرسل إلى مصر في ربيع عام 1944 متنكراً بصفة ضابط إنكليزي للتجسس على الزعماء العرب من ناحية، وعلى خطط الإنكليز الخاصة بالمنطقة من ناحية ثانية)، هي وفرة معارفها في الأوساط العليا من رجال سياسة وعسكريين مصريين.

استأجرت مع «ليفي افراهامي» دارة (فيلا) خارج الإسكندرية وادّعيا أنها مقر استجمام صحّي لجنود الحلفاء، ولم تكن في واقع الأمر سوى قاعدة لعمليات التهريب التي يمارسانها «تهريب اليهود إلى فلسطين». وقد انضم إلى شبكتهما ايلي كوهين أو (الياهو كوهين)، كما كان يعرف.

(*) **المرجع**: الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السري، ص 52.

يوليشكا كورتيز(*)

(Yolichka Kortiz)

(-)

هي إحدى جاسوسات المخابرات البريطانية، من أصل إسباني. تخرجت من مدرسة الجاسوسية النازية في معهد كلوبستوك بهامبورغ. اشتهرت بلقب: «**زائرة نصف الليل**». من هي هذه الجاسوسة؟ ولماذا التجأت إلى المخابرات البريطانية؟

انتصف ليل اليوم الثامن من شهر أيار (مايو) سنة 1942.. وفي اللحظات التي بدأ يمتزج فيها باليوم الجديد، أحس السفير البريطاني في أنقرة بخادمه يوقظه، لينبئه بأن ثمة شابة تصر على مقابلته تواً لأمر خطير، لا يحتمل أن يرجأ إلى الصباح..

وكان من حق السفير أن يوجس خيفة، فقد كانت أنقرة إذ ذاك مليئة بالجواسيس الألمان وعملاء النازية.. وكانت مركز صراع خفي بين نفوذ الحلفاء ونفوذ المحور.. ولكنه خشي أن تكون الزيارة فرصة قد تعود بنفع على بلاده، فتسلح بمسدسه، وسار إلى غرفة مكتبه حيث كانت الفتاة في انتظاره...

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت الطبعة الأولى 1992. ص 3 ـ 8.

وجلس إلى مكتبه، وخادمه خلفه.. وانقضت فترة كان يتأمل خلالها زائرة منتصف الليل الغريبة، بعينين حادتين، متفحصتين.. كانت شابة، صغيرة السن، جميلة المحيا، رشيقة القوام..

وتنحنح السفير أخيراً، وقال مبدداً كآبة الصمت:

ـ هل من خدمة أؤديها للسيدة؟..

وتطلعت الزائرة إلى الخادم، ثم خطت نحو المكتب، ونثرت عليه كل ما كان في حقيبتها.. وما كان فيها سوى بضع أدوات للزينة، ومنديلين وبضع قطع نقدية، وأوراق قليلة..

وأدرك السفير ما عنته الزائرة من حركاتها، فأشار إلى الخادم يصرفه من الحجرة، ودعا السيدة إلى الجلوس في الطرف المقابل من المكتب..

وإذ اطمأنت الفتاة قالت:

ـ اسمي **يوليشكا كورتيز**.. وقد جئت أسألك أن تأذن لي بالسفر إلى لندن..

وعاد السفير يتأملها ثم قال:

ـ أظنك إسبانية؟..

ـ أجل.. وقد اختارني الألمان لأتجسس أنباء تجارب المدافع الثقيلة التي يشتغل علماؤكم بتصميمها في لندن.. واتفقوا معي على أن أنشىء محطة لاسلكية قصيرة الموجة في المنزل الذي سأقيم فيه، لأوفيهم بالأنباء.. وهاك الأوراق..

وأشارت إلى الأوراق التي نثرتها من حقيبتها، فإذا بها رسوم لشرح طريقة إقامة المحطة اللاسلكية وإدارتها..

وعادت الفتاة تقول:

ـ لقد أرادوا أن أكون لهم جاسوسة، فقبلت، ودرست في مدرسة الجاسوسية النازية.. معهد **كلوبستوك بهامبورغ**.. لا لشيء إلا لأجد منفذاً أفر خلاله من الجحيم..

كان أبي فرناندو كورتيز أشهر جواسيس الألمان في الحرب الأولى..

آه لقد عرفت بالجزاء الذي ناله من الألمان بعد أن خدمهم..

الآن.. التقينا عند نقطة للتفاهم.. لقد أعدموه لمجرد خلاف بسيط بينه وبين رئيسه.. قتلوه بعد أن أدى لهم أجل الخدمات.. فهل أدركت مدى حقدي عليهم؟.

ـ ولم جئت تسألينني الإذن بالسفر، وقد زودك الألمان ـ ولا ريب ـ بجواز؟.

ـ إنني لا أريد استخدام أوراقهم المزورة.. وأود أن تعلم المخابرات السرية البريطانية بأمري قبل سفري..

وبادر السفير بالاتصال بلندن لاسلكياً، من جهاز خاص بالسفارة، فإذا لندن تعرف كل شيء عن يوليشكا كورتيز، وتوافق على أن يمنحها جواز السفر الذي تطلبه..

وانصرفت الفتاة تحت جنح الظلام كما أقبلت..

وما أن وصلت يوليشكا كورتيز إلى لندن، حتى اختارت فندقاً متواضعاً لإقامتها.. وفي حديقة هذا الفندق وافاها مندوب من إدارة المخابرات السرية البريطانية، ليفضي إليها بخطة العمل.. فقد قررت الإدارة أن تتولى بنفسها إقامة المحطة السرية وإدارتها، لتوفر عليها

عناء العمل. . أو ـ بمعنى أوضح ـ لتطمئن إلى أن الفتاة لن تعمل في الخفاء مع القوم الذين تظاهرت بالتمرّد عليهم. .

وتولّت إحدى فتيات المخابرات تسجيل صوت يوليشكا، ونبراتها، ولهجتها، واللكنة الإسبانية التي تتخلل كلامها بالألمانية. . ثم راحت تتدرب على تقليدها حتى تضطلع بنفسها بإبلاغ الرسائل التي تعدها إدارة المخابرات للتغرير بالألمان، دون أن يفطن خبراء الصوت في إدارة الجاسوسية النازية إلى أن المتكلمة غير فتاتهم. .

وتم الاتصال بين لندن وبرلين من خلال محطة يوليشكا اللاسلكية. . وكانت الرسائل تحمل بعض أنباء صحيحة عن الجو والاستعدادات والقوات وما إلى ذلك، وقد حشيت بأخرى زائفة تفسد على الألمان أي تدبير يستغلون فيه تلك المعلومات. . كما أعدت رسائل توحي إلى النازيين بأن بريطانيا تملك قوات كبيرة، ومعدات ضخمة، لإيقاع الرهبة في نفوسهم. .

وخطر لرجال المخابرات السرية البريطانية، أن يستغلوا المحطة في معرفة عملاء النازيين في لندن، والوسائل التي يمولون بها الجواسيس. . فأرسلوا خلال الأنباء، مرة، رسالة تزعم فيها يوليشكا أن نقودها نفدت. . فأتاها الرد بأن 500 جنيه إنكليزي ستحول باسمها إلى بنك سويسري، ليحولها تلغرافياً إلى مصرف لندن. .

ولم يرتح البريطانيون إلى هذه النتيجة فعادت يوليشكا تتصل ببرلين سائلة العدول عن هذه الخطة، لما قد يثيره وصول خمسمائة جنيه لمجهولة مثلها من شكوك. . ومرة أخرى كانت النتيجة مخيبة لرجاء الإنكليز إذ أرسلت برلين إلى يوليشكا ـ عن طريق سويسرا ـ مجموعات قيمة من طوابع البريد النادرة، تزيد قيمتها على ألف جنيه.

وسكت رجال المخابرات حيناً عن المحاولة، ثم عادوا يطلبون من برلين «باسم يوليشكا، نقوداً. . وفي هذه المرة وكان قد انقضى أكثر من عام على وجود الفتاة في إنكلترا ـ أنبئت بأن امرأة سويسرية من المتجرات بالمجوهرات ستصل إلى لندن بعد أيام، متظاهرة بعرض مجوهراتها في أسواق لندن. . فعليها أن تتصل بها لتتلقى منها حاجتها من المال مع تعليمات جديدة خطيرة. .

واتصلت يوليشكا بالسويسرية، فأدلت إليها بتعليمات برلين، ولكنها لم تعطها مالاً. . فقد سطا لص مجهول على أمتعتها في الفندق الذي نزلت فيه فسرق مالها وجواهرها. . واضطرت السويسرية إلى المبادرة بالرحيل في اليوم التالي، وقد أدركت ما وراء السطو من نشاط المخابرات البريطانية. . بينما سعت يوليشكا إلى الإنكليز الذين كانت تتعاون معهم، تزجي إليهم بالتعليمات الجديدة. . فقد طلب إليها الألمان أن تسعى للحصول على خطط الحلفاء لغزو أوروبا. .

وأدهش الإنكليز أن الألمان طلبوا إلى يوليشكا أن تلتحق بعمل في محل لبيع الورد في ميدان الطرف الأغر، لتكون أقرب اتصالاً بمواقع العسكريين وثكناتهم. . وكان سرّ الدهشة أن صاحب المحل ـ وهو عجوز فرنسي الأصل، كفيف البصر ـ كان بحاجة فعلاً إلى عاملة، بعد أن جندت عاملته السابقة، وعزّ عليه الحصول على غيرها، فكيف عرف الألمان بكل هذا؟. .

على أنهم سمحوا للفتاة بالعمل في ذلك المحل. . فسرعان ما اجتذب جمالها الزبائن، وراجت ورود العجوز الفرنسي الكفيف.

وبدأت إذ ذاك مرحلة جديدة، وخطة جديدة. . فقد بدأ رجال المخابرات البريطانية يرسلون إلى برلين ـ عن طريق يوليشكا ـ أنباء

زائفة مصطنعة، عن الاستعدادات الحربية والحشد العسكري وقالوا على لسان الفتاة في إحدى رسائلهم:

«إن صاحب المحل حزين، إذ إن له إبناً في صفوف قوات ديغول الفرنسية، نقل مع فرقته إلى أيسلندا».. .

وقالوا في رسالة أخرى:

«لا يضايق الضباط الإنكليز والأميركيين المترددين على المحل، سوى ما يسمعونه عن شظف العيش، ومتاعب الحياة في أيسلندا التي سينقلون إليها قريباً».. .

ووجد الألمان في هاتين الرسالتين مصداقاً لما روّجه الحلفاء من اعتزامهم اتخاذ جزيرة أيسلندا قاعدة لغزو أوروبا.. فبادروا إلى نقل جيوشهم وعتادهم إلى النرويج، ليستعدوا لصد الغزاة.. وكان هذا عين ما رمى إليه الحلفاء، فانتهزوا الفرصة، وفازوا بهجومهم الناجح على ساحل نورماندي.. .

وانقطعت صلة يوليشكا ببرلين عقب الغزو.. .

وفي أحد الأيام، وجدت المرأة وصاحب المحل العجوز الكفيف، ذبيحين داخل المتجر.. وراحت شهيدة الجاسوسية.. ولم يعرف أحد كيف ذبحت هي والعجوز.. فقد ظل ذلك سراً غامضاً إلى اليوم.. .

المراجع

بالعربية:

1 ـ أحمد هاني «الجاسوسية بين الوقاية والعلاج». الشركة المتحدة للنشر والتوزيع. القاهرة 1974.

2 ـ باروخ نادل «وتحطمت الطائرات عند الفجر». د.ت. ودون تحديد دار النشر ومكانها.

3 ـ برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس». ترجمة غسان درويش. الدار الوطنية للطباعة والنشر. بيروت 1963.

4 ـ تشيكوف «دزيرجينسكي». ترجمة الدكتور سامي عمارة. دار التقدم بموسكو 1984.

5 ـ «الجاسوسية في العالم). تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988.

6 ـ جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل دقاق. دار المكشوف. بيروت 1947.

7 ـ جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية/ الاستخبارات السرّية منذ رمسيس الثاني حتى اليوم». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998.

8 ـ حاتم خوري «شولا كوهين أخطر جاسوسة إسرائيلية عرفها الشرق

الأوسط». دار اليقظة للنشر والتوزيع. مطابع الأهرام بكورنيش النيل 1993.

9 ـ د. حسين مؤنس «الجارية روكسيلانا تتزوج السلطان سليمان الفاتح». دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية. ومؤسسة المعارف للطباعة والنشر. بيروت. د.ت.

10 ـ دانييل جيميسيل «المخابرات الإسرائيلية وصيد الجواسيس». منشورات فلسطين المحتلة. بيروت. د.ت.

11 ـ دايڤيد كان «حرب الاستخبارات». ترجمة عبد اللطيف أفيوني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1982.

12 ـ دينيس إيزنبرغ، إيلي لاندو وأوري دان «الموساد جهاز الاستخبارات الإسرائيلية السرّي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. د.ت.

13 ـ زافي ألدوبي وجيرولد بالينغر «الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستّة». تعريب غسان النوفلي. بيروت 1972.

14 ـ «السجل الأسود» تأليف مجموعة من الكتّاب السوفيات. ترجمة هيثم علي حجازي. دار الجيل. بيروت. والأهلية للنشر والتوزيع. عمّان/ الأردن. الطبعة الأولى 1989.

15 ـ سعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». دار الجيل. بيروت 1995.

16 ـ سعيد الجزائري «ملف الثمانينات عن حرب المخابرات». دار الجيل. بيروت. ودار دمشق 1989.

17 ـ سعيد الجزائري «ملف التسعينات عن أعمال المخابرات». الجزء الثاني. دار الجيل. بيروت 1997.

18 ـ د. سليمان المدني «تركيا اليهودية». دار الأنوار. دمشق. الطبعة الثانية 1998.

19 ـ سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية». دار الكاتب العربي. دمشق. الطبعة الأولى 1989.

20 ـ سيّد صدّيق عبد الفتّاح «موسوعة أقوال الفلاسفة والحكماء في عالم النساء». مكتبة مدبولي. القاهرة. د.ت. (جزءان).

21 ـ شاي فيلدمان «الخيار النووي لإسرائيل». ترجمة غازي السعدي. دار الجليل للنشر. عمّان/ الأردن. الطبعة الأولى 1984.

22 ـ د. صالح زهر الدين «موسوعة أسرار من التاريخ». (جزءان). مؤسسة الرحاب الحديثة. بيروت. الطبعة الأولى 1994 ـ 1995.

23 ـ د. صالح زهر الدين «المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية». المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى 1985.

24 ـ د. صالح زهر الدين «الاستخبارات الأميركية» (الجزء الأول من موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم). المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003.

25 ـ د. صالح زهر الدين «الموساد بين الإخفاق والاختراق» (الجزء الثامن من موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم). المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003.

26 ـ د. صالح زهر الدين «قاموس المخابرات والتجسس» (ثلاثة أجزاء). المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003.

27 ـ د. صالح زهر الدين «موسوعة الإمبراطورية الأميركية» (قاموس الشخصيات الأميركية ـ الجزء الثاني). المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2004.

28 ـ صالح مرسي «الحفّار». دار أبوللو للنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الثالثة 1988.

29 ـ صلاح نصر «الحرب الخفية ـ فلسفة الجاسوسية ومقاومتها». منشورات الوطن العربي. الطبعة الثانية 1982.

30 ـ صلاح نصر «الحرب النفسية». الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة 1967.

31 ـ طلعت المرصفي «أوراق مجهولة من ملفات المخابرات العالمية». مكتبة مدبولي. القاهرة 1995.

32 ـ عادل حمودة «الموساد واغتيال المشدّ». دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الرابعة 1994.

33 ـ علي ملكي «الجاسوسية الصهيونية في البلاد العربية». منشورات صوت الشوف. د.ت.

34 ـ د. علي موسى «حكم وأمثال في المرأة». دار نينوى. دمشق. الطبعة الأولى 2001.

35 ـ علي الموسوي «شبكات الوهن ـ عملاء إسرائيل في قبضة القضاء». دار الهادي. بيروت. الطبعة الأولى 2001.

36 ـ عمر أبو النصر «إيلي كوهين جاسوس إسرائيل في دمشق». بيروت 1968.

37 ـ فابريسيو كالڤي وأوليڤر شميدت «التاريخ الأسود للاستخبارات السرّية». ترجمة ريمة الفوّال. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1998.

38 ـ فاو بشاسوف «أربعون عاماً في المخابرات السوفياتية». ترجمة جلال الماشطة. دار التقدم بموسكو 1980.

39 ـ فريد الفالوجي «جواسيس الموساد العرب». مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى 2003.

40 ـ فريد الفالوجي «أمينة المفتي أشهر جاسوسة عربية للموساد». مكتبة مدبولي. القاهرة. الطبعة الأولى 2002.

41 ـ كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965.

42 ـ لطفي أكدوغان «سارة». دار طلاس. دمشق.

43 ـ مايكل لي لاننج «مائة قائد عسكري» (تصنيف لأكثر القادة العسكريين تأثيراً في العالم عبر التاريخ). مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. أبو ظبي. الطبعة الأولى 1999.

44 ـ محمود عابدين صالح «المخابرات والأمن والجاسوسية». طباعة خاصة. توزيع مكتبة مدبولي. القاهرة 2003.

45 ـ مدحت الجادر «غزاة في الظلام». مكتبة النهضة. بغداد. الطبعة الأولى 1987.

46 ـ موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت. الطبعة الأولى 1992.

47 ـ ناصر الدين النشاشيبي «نساء من الشرق الأوسط». دار الريّس للكتب والنشر. بيروت 1988.

48 ـ نجدة فتحي صفوت «حكايات دبلوماسية». دار النهار. بيروت 1970.

49 ـ نزار عمار «الاستخبارات الإسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1976.

بالأجنبية:

1 - Barbara Tuchman «Les secrets de la grande guerre». Librairie Fayard. Paris 1965.

2 - Charles Wigton et Gunter Peis «Les espions de Hitler». Librairie Fayard. Paris 1965.

3 - Gert Buchheit «Secrets des services secrets». Editions Arthaud. Paris 1974.

4 - Jacques Mercier «Elie Kohen le Combattant de Damas». Editions Robert Laffont. Paris 1982.

5 - Jean Marcillac et louis Garros «Les grands espions de la seconde guerre mondiale». (sous la direction d'Albert Demazière). Tome 1. Editions R.Y.B. Genève 1978.

6 - Oleg penkoveshy «Carnet d'un agent secret». Librairie Jules Tallendrier. Paris 1966.

7 - Ronald Hingley «La police secrète russe». Editions Albin - Michel. Paris 1972.

8 - Shula «Code name the Pearl». by Aviezer Golom and Danny Pinkes. Delacorate Press. NewYork 1980.

9 - Steve Weissman and Herbert Krosney. «The Islamic Bomb». TIMES Books. N.Y. 1981.

الصحف والمجلات والدوريات

1 ـ مجلة «الحوادث» (اللبنانية). العدد 1377. الجمعة 25/ 3/ 1983.

2 ـ جريدة «الحياة» (اللندنية). الأربعاء 18 حزيران/ يونيو 2003. والثلاثاء 16 آذار/ مارس 2004. و 17/ 11/ 2004.

3 ـ جريدة «السفير» (اللبنانية). الأربعاء 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1985. والسبت 12 نيسان/ ابريل 2003.

4 ـ مجلة «شؤون فلسطينية». العدد 30. شهر شباط/ فبراير 1974.

5 ـ جريدة «الشرق الأوسط» (اللندنية). الأربعاء 10 أيلول/ سبتمبر 2003.

6 ـ مجلة «العالم» (اللندنية). العدد 77. السبت 3/ 8/ 1985.

7 ـ جريدة «المحرّر العربي» (اللبنانية). الأعداد: (371) من 15 ـ 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 2003. و (372) من 22 ـ 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2003. و (393) من 25 نيسان/ أبريل ـ 1 أيار/ مايو 2003. و (403) من 4 ـ 9 تموز/ يوليو 2004. و (407) من 1 ـ 7 آب/ أغسطس 2003. و (390) من 4 ـ 10 نيسان/ أبريل 2003. و (440) من 27 آذار/ مارس ـ 2 نيسان/ أبريل 2004. و (442) من 10 ـ 16 نيسان/ أبريل 2004.

8 ـ جريدة «المستقبل» (اللبنانية) في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 2003. و 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 2004.

9 ـ مجلة «نيوزويك» الأميركية (الصادرة بالعربية).

10 ـ صحيفة «هيرالد تريبيون» في 13/ 10/ 2003.

11 ـ مجلة «الوسط» (اللندنية). العدد 552 في 26/ 8/ 2002. والعدد 586 في 21/ 4/ 2003. والعدد 597 في 7/ 7/ 2003. والعدد 599 في 21/ 7/ 2003.

12 ـ مجلة «الوطن العربي» (الباريسية). العدد 324، من 29/ 4 إلى 5/ 5/ 1983.

الفهرس

بطاقة تعريف

* ولد د. صالح زهر الدين في قرية كفرفاقود/ الشوف عام 1951، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية في المنطقة.
* حاصل على إجازة في التاريخ من الجامعة اللبنانية في بيروت عام 1979.
* تابع دراساته العليا في فرنسا، وبالتحديد في جامعة باريس السابعة (Paris 7) وحصلْ منها على شهادات (AESA) و (DEA) ودكتوراه في التاريخ والحضارات.
* كما حصل على دكتوراه في العلوم التاريخية من معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم القومية في أرمينيا عام 1994، وكان أوّل مؤرّخ عربي يحصل على هذه الشهادة منذ تأسيس الأكاديمية حتى اليوم.
* عضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.
* عضو اتحاد المؤرّخين العرب.
* عضو لجنة وضع منهاج «التاريخ الموحّد» في لبنان.
* عضو اللجنة العربية لإعادة كتابة تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني.
* مدير ومعدّ ومقدّم برامج تلفزيونيّة في «قناة العالم الإخبارية» لاسيّما برنامج «الإمبراطورية السادسة» (حول الولايات المتحدة الأميركية) في تسعين حلقة، مدّة كل حلقة تسعون دقيقة أسبوعياً . . .

* تسلّم مسؤوليات عديدة في مؤسسات ثقافية وتوثيقية وإعلامية في لبنان.
* شارك في مؤتمرات ومحاضرات ثقافية وفكرية في لبنان والخارج.
* حائز على «وسام الاستحقاق الوطني» من فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية العماد إميل لحود سنة 2003.
* له أكثر من خمسين كتاباً في التاريخ والسياسة والاجتماع..

من مؤلّفاته

1 ـ موسوعة أسرار من التاريخ (جزءان).

2 ـ موسوعة معارك العرب (6 أجزاء).

3 ـ موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم (12 جزءاً).

4 ـ موسوعة رجالات من بلاد العرب (مجلّد واحد في ألف صفحة).

5 ـ موسوعة الإمبراطورية الأميركية (16 جزءاً).

6 ـ المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية.

7 ـ الأرمن شعب وقضيّة.

8 ـ تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز).

9 ـ الأمير شكيب أرسلان وجهاده ضد الاستعمار والصهيونية.

10 ـ الإسلام والاستشراق.

11 ـ مشروع «إسرائيل الكبرى» بين الديموغرافيا والنفط والمياه.

12 ـ سياسة الحكومة العثمانية في أرمينيا الغربية وموقف القوى الدولية منها.

13 ـ اليهود في تركيا.

14 ـ مخاطر الدور التركي في المنطقة العربية.

15 ـ الصداقة العربية ـ الأرمنية والمصير المشترك.

16 ـ موقع كاراباخ في الصراع الأرمني ـ الأذربيجاني.

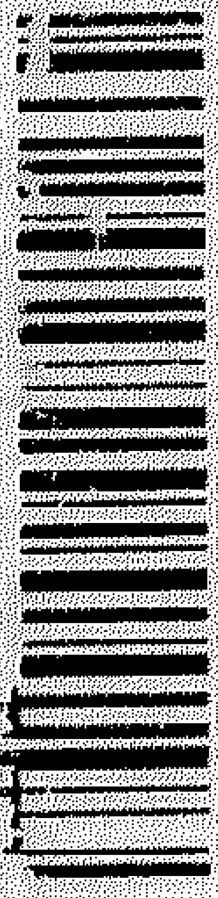
17 ـ أصالة العرب والوفاء الأرمني.

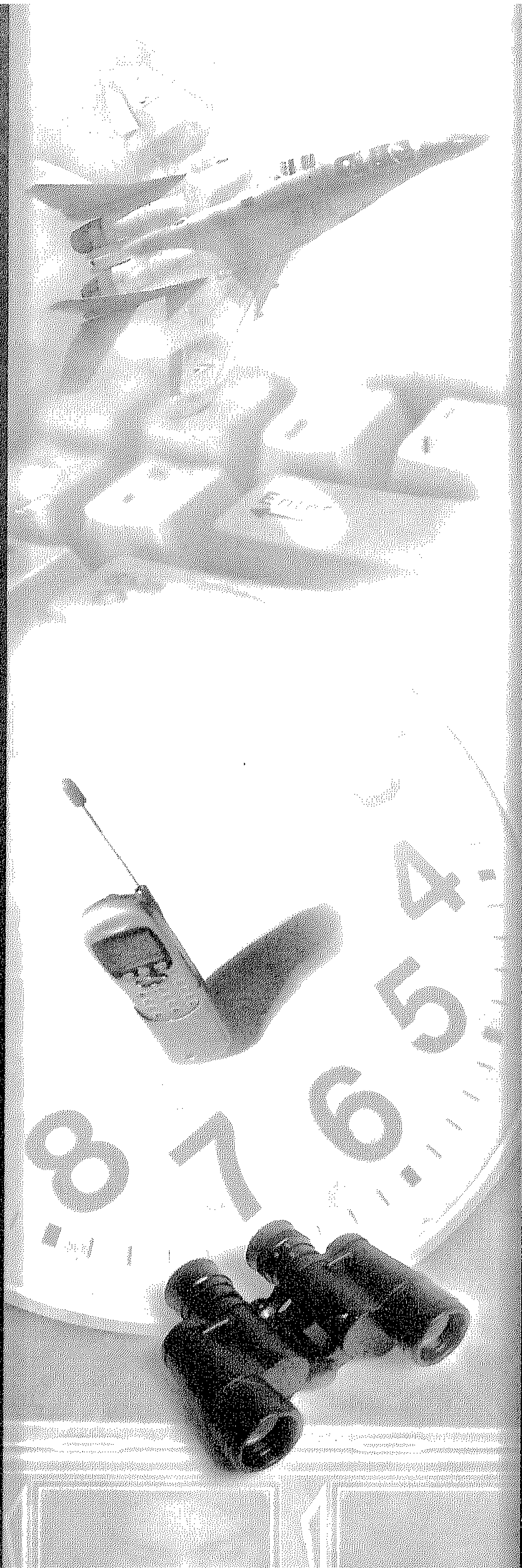
18 ـ الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غارودي.

19 ـ خلفيات الحصار الأميركي ـ البريطاني للعراق.

20 ـ العرب والأرمن بين الطورانيّة والصهيونيّة. . .

21 ـ موسوعة شخصيات أرمنية في القرن العشرين.





مركز الشرق الأوسط الثقافي